ترجمان

أندريه سيغفريد

روح الشعوب

ترجمة: عاطف المولى



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

روح الشعوب

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

روح الشعوب

أندريه سيغفريد

ترجمة

عاطف المولى



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
سيغفريد، أندريه، 1875-1959

روح الشعوب/أندريه سيغفريد؛ ترجمة عاطف المولى.

224 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)

يشتمل على ببليوغرافية (ص. 211) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-074-1

1. الحضارة الحديثة. 2. الحضارة الغربية. 3. أوروبا - تاريخ. 4. الثقافة الغربية. 5. الشعوبية - أوروبا. أ. المولى، عاطف. ب. العنوان. ج. السلسلة.

909.82

هذه ترجمة لكتاب

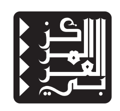
L'Âme des Peuples

by André Siegfried

عن دار النشر

Hachette, 1950

الناشر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع رقم: 826 - منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر
هاتف: 44199777 - 00974 فاكس: 44831651 - 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب - شارع سليم تقلا - بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 - 11 - رياض الصلح - بيروت 2180 1107 - لبنان
هاتف: 8 - 991837 1 - 00961 فاكس: 1991839 - 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

لوحة الغلاف: «مظاهرة في 17 أكتوبر 1905» للفنان الروسي إيليا ريبين

الطبعة الأولى

المحتويات

تقديم المراجع

نبذة عن المؤلف

ولد أندريه سيغفريد في 21 نيسان/أبريل من عام 1875 بمدينة الهافر (Le Havre) الفرنسية، وهي من أكبر مدن شمال غرب فرنسا، وتقع على الضفة اليمنى لمصب نهر السين، كما أنها ثاني موانئ فرنسا في الأهمية بعد مرسيليا، وأكبرها من حيث التحميل والشحن البحري والنهري. وتنبع أهمية الهافر أيضًا من كونها المرفأ الأول للتجارة بين فرنسا وأميركا الشمالية، خصوصًا في مواد القطن والبن والسكر. هذا إضافة إلى موقعها الاستراتيجي ومكانتها الحاسمة في تحقيق الإنزال الناجح لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. يقول أندريه سيغفريد إن نشأته في تلك البيئة طبعت نفسه بطابع الميل إلى دراسة الاقتصاد والاجتماع، ثم الولع بمعرفة مختلف الأعراق والشعوب؛ لأن الموانئ كثيرًا ما تستقبل أعراقًا وأقوامًا وشعوبًا متباينة، مما يدفع بأبنائها إلى فضول البحث والتعرف إلى هذا التنوع.

والده جول سيغفريد (Jules Siegfried) كان سياسيًا لامعًا تقلّد مناصب رسمية كبيرة، فكان محافظ مدينة الهافر، ثم نائبًا في البرلمان، فوزيرًا للاقتصاد. وقد حاول أندريه السير على خطى والده في السياسة، إلا أنه تخلى عن ذلك بعد فشله 3 مرات في الانتخابات البرلمانية.

عُرف عن أندريه أنه كان من المفكرين الأحرار ومن البروتستانت، في زمن شهدت فيه فرنسا منع التعليم عن أعضاء الجماعات الدينية (قانون كومب 1904 وصدور قانون الفصل بين الكنائس والدولة 1905).

كان أندريه سيغفريد عالمًا في الاجتماع، والتاريخ، والاقتصاد، والجغرافيا، كما كان كاتبًا وصحافيًا قديرًا.

نال الدكتوراه برسالة عن «الديمقراطية في نيوزلندا»، وعُيّن مدرسًا بمدرسة العلوم السياسية في باريس في عام 1911، ثم انتقل إلى معهد فرنسا «كوليج دو فرانس». وكان مقربًا من عالم الاجتماع الشهير غوستاف لوبون (صاحب كتاب سيكولوجية الجماهير)، فنشر في عام 1913 بتأثير منه كتابه المعلم: لوحة سياسية لغربي فرنسا خلال عهد الجمهورية الثالثة، وفيه يركّز على تأثير الجيولوجيا في خيارات الناخبين في 15 منطقة من مقاطعات غرب فرنسا خلال فترة تاريخية محددة. وقد اعتبر هذا الكتاب مساهمة تأسيسية في علم اجتماع الانتخابات.

في عام 1932 انتخب عضوًا في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي عام 1933 تسلّم كرسي الجغرافيا الاقتصادية والسياسية في الكوليج دو فرانس. واظب منذ عام 1934على الكتابة في جريدة لوفيغارو حتى وفاته في باريس في 28 آذار/مارس 1959. انتخب بعد شهرين على تحرير باريس من الاحتلال النازي عضوًا في الأكاديمية الفرنسية (12 تشرين الأول/أكتوبر 1944). وصار أيضًا أول رئيس للمؤسسة القومية الفرنسية للعلوم السياسية (1945). أسس في عام 1954 معهد العلوم والتقنيات الإنسانية الذي كان صفًا تحضيريًا لدخول المدارس الكبرى[1].

ولأندريه سيغفريد مؤلفات كثيرة خصوصًا حول البلدان الأنكلوسكسونية، وفرنسا، وحول علم اجتماع الانتخابات، وسنورد لائحة بأعماله في ثبت ملحق بهذا الكتاب. كما أن كل الهوامش هي من إضافة المراجع.

وباختصار، فقد كان أندريه سيغفريد صاحب مدرسة في الدراسات

(1) المدارس الكبرى (Grandes Écoles) هي بحسب وزارة التربية الوطنية في فرنسا «مؤسسة للتعليم العالي تختار طلابها بواسطة الامتحانات والاختبارات وتؤمن لهم تأهيلًا وتدريبًا على مستوى عال». وهي تابعة للوزارة. أولى المدارس الكبرى أسستها الحكومة منتصف القرن الثامن عشر بهدف إعداد كوادر تقنية وعسكرية للدولة ومؤسساتها وأجهزتها الرئيسة مثل الجيش والتعليم والإدارة المركزية وقطاعات المناجم والاتصالات والمياه والغابات والجسور والزراعة والمرافئ والطب البيطري...

السوسـيولوجية الأكاديميـة تربـط بيـن العوامـل المؤثـرة جغرافيًـا واقتصاديًـا واجتماعيًـا، وتنظـر إلـى مـدى تأثيـر كل منهـا فـي الأخـرى.

تعريف بالكتاب

هـذا الكتـاب عبـارة عـن محاضـرات كان ألقاهـا أندريـه سـيغفريد فـي مناسـبات متفرقـة، ثـم رأى جمعهـا فـي كتـاب تحـت عنـوان روح الشـعوب، وهـو متأثـر فـي اختيار عنوانـه بصديقـه وزميلـه غوسـتاف لوبـون[2]. قـدّم سـيغفريد لهـذه المحاضـرات بفصـل أول تحـدث فيـه عمـا كانـت عليـه حـال الشـعوب (الغربيـة) فـي الميادیـن السياسـية والاجتماعيــة والاقتصاديــة قبــل الحربيــن العالميتيــن الكبيرتيــن (1914-1918 و1939-1945)... ثـم انتقـل إلـى الحديـث عـن خمسـة شـعوب يـرى أنهـا تمثـل أرقـى مـا فـي البشـرية مـن حضـارة، وهــي: اللاتيــن، الأنكلوسكســون، الألمــان، الــروس، الأميركيــون. وهـو باختيـاره هـذا حصـر الحضـارة فـي شـعوب القـارة الأوروبيـة وامتدادهـا الأميركـي الشـمالي.

فـي هـذه المحاضـرات يسـلط أندريـه سـيغفريد الضـوء علـى مـا يسـميه «روح الشـعوب»، ويعنـي بذلـك مزاجهـا النفسـي، ليطـرح سـؤاله الإشـكالي: هـل تغيّـرت هـذه الشـعوب إثـر الحربيـن العالميتيـن؟ وجوابـه فـي هـذا الكتـاب أن روح الشـعوب الغربيـة لـم تتغيـر، وأنهـا بقيـت علـى مـا كانـت عليـه فـي الماضـي علـى الرغـم مـن الويـلات والكـوارث التـي عاشـتها فـي النصـف الأول مـن القـرن العشـرين (صـدر الكتـاب عـام 1950).

---

(2) غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) طبيب ومؤرخ فرنسي ولد في مقاطعة نوجيه لوروترو، في فرنسا عام 1841. درس الطب، وقام بجولة في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. اهتم بالطب النفسي وأنتج فيه مجموعة من الأبحاث المؤثرة في سلوك الجماعة، والثقافة الشعبية، ووسائل التأثير في الجموع، مما جعل من أبحاثه مرجعًا أساسًا في علم النفس، ولدى الباحثين في وسائل الإعلام في النصف الأول من القرن العشرين. كما أنه ساهم في الجدل الدائر يومذاك حول المادة والطاقة، وألف كتابه تطور المواد الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا. وهو حقق نجاحًا كبيرًا مع كتابه سيكولوجية الجماهير، ما منحه سمعة جيدة في الأوساط العلمية، اكتملت مع كتابه الأكثر مبيعًا الجماهير: دراسة في العقل الجمعي، وجعل صالونه من أشهر الصالونات الثقافية التي تقام أسبوعيًّا، لتحضره شخصيات المجتمع المرموقة مثل: بول فاليري، وهنري برغسون، وهنري بوانكاريه. توفي لوبون في عام 1931.

وقد هدف المؤلف من كتابه هذا إلى بيان اختلاف أمزجة الشعوب الغربية ونفسياتها، ودراسة خلفيات تكوين تلك الأمزجة والنفسيات وتحليل مكوناتها وأسباب اختلافها، مع حرصه على إبراز مساهمتها التاريخية الحاسمة في تقدم الحضارة البشرية، على اختلاف استعداداتها وإمكاناتها.

والكتاب في جملته، على الرغم من تعصب المؤلف لفرنسيته بوجه خاص ولغربيته بوجه عام، هو من المراجع المهمة للدارسين والمثقفين ولمن يريد فهم سيكولوجية الشعوب من خلال تأثير العوامل التاريخية والجغرافية والبيئية التي يخضعون لها، ناهيك بالأصول العرقية لكل شعب.

يندرج عمل أندريه سيغفريد في إطار الموجة التي خلفتها كتابات غوستاف لوبون. كان لوبون شخصية خلافية فهو من جهة أزعج العلماء أمثال دوركهايم الذين اعتبروه هاويًا في زمن صارت فيه الطريقة المنهجية في البحث أكثر من ضرورية[3]. ومن جهة ثانية فهو كان يبدو بمظهر العنصري المتمسك بالأيديولوجية العنصرية لزمنه[4]. إلا أنه كان معاديًا للكنيسة ومعارضًا في الآن نفسه للاستعماريين الفرنسيين. وفي الحقيقة، فإن لوبون لم يكن يحمل نظرية عنصرية في تراتب الحضارات وتفاضلها إنما كان يقول بوجود اختلافات بينها لجهة مراحل تطورها. وقد عُرف عنه أيضًا بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، فلم يَسِر على نهج كثير من مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي. لكن لوبون الذي ارتحل في العالم الإسلامي وله فيه مباحث اجتماعية، أقرَّ أن المسلمين هم مَن مدَّنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده، وأن يُبديه للعالم في صورته الحقيقية؛ فألف عام 1884 كتاب حضارة العرب[5] جامعًا لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبحث في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها للعالم تقديم المدين الذي يدين بالفضل للدائن.

---

(3) Véronique BEDIN et Martine FOURNIER (dir.), Gustave Le Bon, La Bibliothèque idéale des sciences humaines (Paris: Sciences humaines, 2009).

(4) Laure Hillerin, La comtesse Greffulhe, L'ombre des Guermantes (Paris: Flammarion, 2014).

(5) Gustave Le Bon, Civilisation des Arabes, Livre I à VI (Paris: Firmin-Didot, 1884).

وقد توقع انبعاث أفريقيا في القرن العشرين. وبعد رحلة له في الهند نشر عام 1887 كتابه الآخر المهم: حضارة بلاد الهند. وكان لوبون في هذه الكتب على عكس الكونت دو غوبينو[6]، يرفض أسطورة «العرق الأبيض» ويدين بشدة كل دعاة التفوق العنصري من القوميين الاجتماعيين، ويحذر من النازيين خصوصًا، وذلك منذ عام 1924. وقد ظهر كتابه سيكولوجية الجماهير في عام 1895 ليشكل منعطفًا في حياة الطبيب من حيث إن أفكار الكتاب أدت دورًا مهمًا مطلع القرن العشرين، حتى أن سيغموند فرويد على الرغم من بعض تحفظاته اعتبر أن لوبون يقدم سيكولوجية تقترب كثيرًا من سيكولوجيته حين يركز على دور اللاوعي في الحياة النفسية[7]. وفي عام 1921 استند فرويد في كتابه علم النفس الجمعي وتحليل الأنا إلى قراءة نقدية لكتاب لوبون سيكولوجية الجماهير وأشار إليه وإلى أعماله خصوصًا حول التحولات التي تحدث للأنا حين يكون داخل جماعة أو مجموعة فاعلة متحركة، وكتب فرويد في إحدى فقراته: «وهنا أترك الكلام للوبون»[8]. في عام 2010 اعتبر كتاب لوبون واحدًا من بين 20 كتابًا غيرت العالم وهي الكتب التي نشرتها جريدة لوموند ومنشورات فلاماريون[9]. وفي مقدمته لكتاب لوبون كتب ماثيو كوياشا منتقدًا «من يزعمون أن الكتاب قد ساهم في التمهيد للفاشية»، ووصف الكتاب بأنه «مساهمة أساسية في السيكولوجيا الجمعية، وفي فهم الظاهرة الغامضة التي هي الجمهور/الدهماء أو العوام. إن سيكولوجية الجماهير لغوستاف لوبون تدين بشعبيتها لحقيقة أن هذا الكاتب الساحر الغامض قد عرف كيف يعبر عن قلق معاصريه وحيرتهم حيال بعض مظاهر الحداثة. وهذا الكتاب هو نص تأسيسي لعلم النفس الاجتماعي، ووثيقة تاريخية رائعة».

---

(6) جوزيف أرتور دو غوبينو (1816-1882) (Joseph Arthur de Gobineau) دبلوماسي وكاتب فرنسي نال شهرة كبيرة بسبب كتابه المعنون: بحث حول اللامساواة بين الأعراق البشرية (1853-1855) (Essai sur l'inégalité des races humaines)، الذي وضعه في مصاف آباء الفكر العنصري. وهو مؤلف رويات رومنطيقية أيضًا كما كان له مساهمات تاريخية ولغوية عن إيران القديمة.

(7) Sigmund Freud, Psychologie collective et analyse du moi (Paris: Payot, 1921), p. 16.

(8) Ibid., p. 9.

(9) Gustave Le Bon, Psychologie des foules, collection: Les livres qui ont changé le monde (Paris: Félix Alcan, 1895).

أعيد اكتشاف لوبون في فرنسا عام 1981 بفضل سيرج موسكوفيتشي[10] وذلك بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته، وصدور كتاب موسكوفيتشي عصر الجماهير/ العوام (L'Âge des foules) الذي يتحدث عن الآباء المؤسسين لعلم النفس الاجتماعي وهم لوبون وغبريال تارد وسيغموند فرويد. وبرأي موسكوفيتشي فإن لوبون هو «مكيافيلي» مجتمعات الجماهير وهو أول من التقط أهمية دور الجماهير في الصيرورة التاريخية ووضع لها تصنيفية نموذجية.

وقد تحققت صحة معظم أفكار لوبون إلى حد كبير، خصوصًا ما قاله عن ميل الجماهير إلى الخضوع الطوعي. كتبت حنة أرندت في هذا: «إن واقع كون النظام التوتاليتاري على الرغم من جرائمه الظاهرة للعيان قد استند إلى الجماهير هو أمر مقلق للغاية»[11].

كان غوستاف لوبون الرائد في نحت مفهوم «الجمهور العام» المستخدم اليوم في علم اجتماع وسائل الإعلام. وفي الحقيقة فإن «الجمهور العام» بالمعنى السوسيو - نفساني لا يمكن أن نجده متحققًا جسمانيًا إلا بوصفهم مشاهدي تلفزة أو مستخدمي إنترنت أو جمهور محمسين في الملاعب. ويشكل أعضاء هذا الجمهور في لحظة محددة جماعة تشترك في النشاط نفسه وتشارك المشاعر نفسها. ولو أنه عاش إلى ما بعد عام 1931 لكان بإمكانه اكتشاف مدى تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية (mass-media) والتحقق من صوابية حكمه الذي أطلقه عام 1924: «مع استخدام الوسائل الحديثة للإعلان يمكن إطلاق رأي ما أو عقيدة ما، وتعميمها ونشرها مثلها مثل أي مستحضر من المنتوجات الصيدلانية».

---

(10) سيرج موسكوفيتشي (1925-2014) (Serge Moscovici) من مواليد رومانيا عاش ودرس وصار مشهورًا في فرنسا. وهو من كبار علماء النفس الاجتماعيين ومن المنظرين لعلم البيئة السياسي.كان مديرًا لمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس وأحد مؤسسي علم النفس الاجتماعي ومديرًا لمختبر علم النفس الاجتماعي ومؤسس المختبر الأوروبي لعلم النفس الاجتماعي في بيت العلوم الاجتماعية بباريس (1976-2006)، وأول رئيس للجمعية الأوروبية لعلم النفس الاجتماعي التجريبي.

(11) Hannah Arendt, Les origines du totalitarisme (Paris: Seuil, 1950).

مصطلح روح الشعب

مـن جهـة أخـرى يبـدو أن أندريـه سـيغفريد يسـتخدم المعنـى الـذي يحملـه المصطلـح الألمانـي Volksgeist حيـن يتحـدث عـن «روح الشـعب»؛ والمقصـود هـو «الطابـع القومـي الخـاص بـكل شـعب» أو «الـروح الجماعيـة التـي تمتلكهـا كل أمـة أو شـعب». والفكـرة أطلقهـا علـى مـا يبـدو الفيلسـوف الألمانـي هـردر[12] لتحميـس الشـعوب الناطقة بالألمانيـة علـى بنـاء هويـة ثقافيـة وقوميـة. كان هـردر أول مـن أطلـق الشـعور القومـي الألمانـي وقـد سـاوى بيـن الجرمـان والقـوط مفضـلًا كل مـا هـو قوطـي فـي الفـن، ودعـا الجرمـان إلـى حمـل رسـالة قوميـة فـي ميـدان اللغـة. وهـو كان مـن أوائـل الذيـن قالـوا إن اللغـة تحـدد الفكـر. وقـاده تركيـزه علـى اللغـة والتـراث الثقافـي إلـى اعتبارهـا الرابـط الـذي يخلـق «أمـة» مضيفًـا إليهـا الفولكلـور والرقـص والموسـيقى والفـن. وعلـق هـردر أهميـة قصـوى علـى الوطنيـة والشـعور الوطنـي: «مـن يفقـد شـعوره الوطنـي يفقـد ذاتـه ويفقـد كل العوالـم التـي تحيـط بذاتـه»، و«كل كمـال إنسـاني هـو عمـل وطنـي أولًا». وقـد أخـذ هـردر نظريـة الفولكلـور إلـى أقصاهـا مؤكـدًا أن هنـاك طبقـة واحـدة فـي الدولـة هـي «الشـعب» (Volk) ينتمـي إليهـا الملـك كمـا الفـلاح، مضيفًـا أن الشـعب ليـس «العـوام»؛ وبذلـك ظهـر مـع هـردر مفهـوم «الشـعب» السياسـي الحديـث «the people»، بوصفـه قاعـدة لـولادة جسـم قومـي متراتـب هرميًـا، ولكـن غيـر طبقـي.

---

(12) يوهان غوتفريد فون هردر (1744-1803) (Johann Gottfried von Herder) فيلسوف ألماني ولاهوتي وشاعر وناقد أدبي. ارتبط اسمه بحقبة التنوير (Enlightenment)، وحقبة العاصفة والشغف (Sturm_und Drang)، وكذلك بكلاسيكية فايمر (Weimar Classicism). وقد ولد هردر في أسرة فقيرة في مملكة بروسيا وتعلم وحده على كتاب التوراة وكتب الأناشيد الدينية التي كانت لوالده. دخل الجامعة في عام 1762 وعمره 17 سنة وصار تلميذًا للفيلسوف كانط. صار كاهنًا عام 1764 وسافر إلى فرنسا وتنقل فيها حتى وصل ستراسبورغ عام 1770، حيث قابل الشاب غوته الذي استوحى من نقد هردر الأدبي تطوير أسلوبه الخاص. وكان ذلك بداية ما عرف باسم حقبة «العاصفة والشغف». استخدم غوته لاحقًا نفوذه في فايمار لتأمين منصب لهردر مراقبًا عامًا لمدينة فايمار التي تحولت إلى أهم مركز أدبي فلسفي فني في أوروبا كلها. وفي عام 1776 بدأ هردر ينتقل إلى الكلاسيكية التي انتعشت في فايمار. في آخر حياته تبنى هردر الثورة الفرنسية ما أدى إلى عداوات كبيرة من معظم أصدقائه. كما شهدت الفترة نفسها افتراقًا عن صديقه غوته. وما زاد في عزلته حملاته المتكررة ضد الفلسفة الكانطية.

ولكن هردر لم يستخدم مصطلح Volksgeist، إنما كان هيغل أول من استخدمه عام 1801. وبعض المفكرين يعزو إلى مونتسكيو وفولتير فكرة روح الشعوب، وبعضهم الآخر ينسبها إلى إرنست رينان[13] الذي تحدث بالفعل عن «روح الأمة» وعن «عبقرية العنصر» (العرق)، ما أدى إلى وسم المفهوم بالعنصرية التي لم يكن رينان بعيدًا منها خصوصًا ضد العنصر السامي (العرب واليهود على حد سواء).

---

(13) جوزيف إرنست رينان (1823-1892) فيلسوف ومؤرخ فرنسي متخصص في لغات الشرق الأوسط القديمة وحضاراته. ولد وعاش في منطقة بروتانيا الفرنسية واشتهر بكتاباته التأريخية عن المسيحية واليهودية وبنظرياته السياسية حول الأمة والهوية القومية. ولعل أشهر كتبه وأخطرها هو حياة يسوع (Vie de Jésus) الذي ألفه بطلب من أخته هنرييت التي توفيت في جبال لبنان. في كتابه هذا يجعل رينان من يسوع إنسانًا تطهّر من يهوديته (العرق السامي) ليصير آريًا... كانت تلك أولى بذور نظرته العنصرية ضد السامية وتمجيدًا للعرق الآري. أثار كتابه موجة كبيرة من النقد والاحتجاج وبالأخص عند الكنيسة الكاثوليكية وفي أوساط اليهود. واشتهر من ناحية أخرى بسجاله مع السيد جمال الدين الأفغاني حول العرب ومدى مساهمتهم في نهضة الإسلام وفي الحضارة الإسلامية التي اعتبرها غير عربية أصلًا؛ كما اعتبر أن الإسلام والعلم لا يتفقان.

ولعل تعريف رينان للأمة هو ما يفيدنا هنا. فالأمة هي «الجماعة المشتركة التي أنجزت أعمالًا كبيرة بوصفها جماعة، والتي تطمح إلى إنجازات أخرى معًا أيضًا».

«avoir fait de grandes choses ensemble, vouloir en faire encore» (having done great things together and wishing to do more).

وقد اعتبر رينان أن الخصائص العرقية فطرية ومحدِّدة بشكل حاسم لشخصية أي شعب. واعتبر أن «العرق السامي» أحط من العرق الآري، وأن العقل السامي محدود بسبب جموده وفقدانه أي منظور حضاري كوني. وبحسب رينان، فإن الساميين هم «عرق غير مكتمل». وأمام وجود يهود أوروبيين (الأشكناز) اخترع رينان نظرية الخزر والتي تقول إن هؤلاء الأشكناز يتحدرون من لاجئين من الشعوب التركية القديمة التي اعتنقت اليهودية وهاجرت بعد انهيار مملكة الخزر صوب الأراضي الألمانية واخترعت لنفسها لغة جديدة هي اليديشية وبقيت على ديانتها اليهودية.

الفصل الأول
الوجه الجديد للعالم

ثمة في سيكولوجية الشعوب أصل للدوام مستمر لا يزول. فنحن مثلًا نشبه أجدادنا الغاليين في كثير من خصالنا. كما أننا نجد بلا ريب عند الألمان والإسرائيليين اليوم، الخصال والميزات الخاصة بالبربر واليهود التي وصفها المؤرخ اللاتيني تاسيت[1] (Tacite) في زمانه. ومع ذلك، فقد حصل بلا شك نوع من التكيفات والاختلاطات بين الشعوب. ولسوف نسائل أنفسنا في الصفحات التالية لهذا الكتاب عن ما يشكل الأساس الصلب للشعوب الغربية، وإلى أي حد هم الآن مهيأون للتكيّف مع الظروف الثورية التي يعيشون في خضمها؟

لقد عرفت هذه الشعوب في خلال ثلاثين سنة حربين عالميتين، ليستا ككل الحروب، غيّرتا وجه العالم، وتوازناته. ونحن ندرك جيدًا أن ما حصل لم يكن مجرد تطور عادي لا أكثر ولا أقل، بل إن ما وقع كان في الأحرى «ثورة» بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى: لم يبق شيء في مكانه، وقيمة الأشياء لم تعد كما كانت عليه، وقد انقلبت العلاقات الإنسانية بين الناس رأسًا على عقب.لا بل إن الفكرة التي يحملها الناس عن العالم وقوانينه، قد أصابها كثير من الاضطرابات والانقلابات المفاجئة، بحيث إنها زعزعت حتى أسس الأخلاق وطرائق التفكير. والحال أن هذه الأزمة كانت كامنة وتتحضر منذ مدة طويلة. وقد شعر كل إنسان في نهاية القرن الماضي (التاسع عشر) بالنتائج العميقة

(1) تاسيت، باللاتينية تاسيتوس (Tacitus)، مؤرخ وسناتور روماني عاش بين عامي 58 و172 للميلاد.

للثورة الصناعية. فالمكننة حين تسللت إلى كل مكان، تسللت إلى كل شيء أيضًا، مزعزعة الأطر الدهرية لمجتمع ثبتت أصوله التي كانت ولا تزال مؤثرة منذ قرون. ويجب أن نشير هنا إلى أن الحربين العالميتين لم تتسببا بحد ذاتهما في حدوث ما حدث، بل إن دورهما كان في التعجيل فحسب، وبوتائر ضخمة، بإحداث تلك الحركة العميقة التي كانت خليقة أن تحدث على كل حال.

نحن إذًا أمام شيء جديد، لم يكن هناك البتة ما يهيؤنا له في الماضي. وعندما نجيل النظر في ما يحيط بنا، بنظرات قلقة ولكن فضولية في الآن نفسه، فإننا نشعر بالدهشة البدئية لذلك الإنسان الذي يخرج من مخبئه بعد انتهاء قصف القنابل، حيث يسأل نفسه عما سيجده متبقيًا من بيئته الحميمة التي ألفها سابقًا. والحق أن العالم الذي يحيط بنا، هو في الحقيقة عالم جديد جغرافيًا بالنسبة إلينا: من الآن فصاعدًا هو عالم متمحور خارج أوروبا أكثر مما هو أوروبي، ومركز ثقله لم يعد كما كان. وقد مر وقت أدركنا فيه جيدًا أننا نعيش في القرن العشرين الذي احتجنا إلى كثير من السنوات كي نعتاد عليه، أو بالأحرى كي نستسلم له. إن شخصية هذا القرن تبدو لنا الآن أنها تشكل تناقضًا ملموسًا مع سلفه، ذلك القرن الأحمق، ولكن لربما المأسوف عليه (القرن التاسع عشر). وإنه لشيء مؤثر جدًا أن تلك النكبات علّمت العالم القديم تشاؤمًا لم يكن في الواقع صنع يديه: فآباؤنا، (بل نحن أنفسنا أيام شبابنا)، كانوا يعتقدون بإيمان راسخ في حقيقة «التقدم»، ولم يكن في مقدورهم بتاتًا أن يتصوروا الأرض الموعودة في مكان آخر غير المستقبل. ويحدث أن نسأل أنفسنا اليوم إن لم تكن تلك الأرض موجودة حقًا في الماضي.

(1)

كان القرن التاسع عشر يظن نفسه عن حسن نية أنه قومي وإمبريالي: فهو قرن عرف نفسه على أنه عصر بسمارك[2] (Bismark) وماكينلي[3] (McKinley).

(2) أوتو فون بسمارك (1815-1898) (Otto von Bismarck) رجل دولة ومستشار مملكة بروسيا من 1862 حتى 1870 ثم مستشار الإمبراطورية الألمانية من 1871 حتى 1890.

(3) وليام ماكينلي (1843-1901) (William McKinley) رئيس الولايات المتحدة الأميركية من عام 1897 حتى عام 1901.

ولكن الحقيقة هي أنه كان عصرًا أمميًا وتحرريًا. فقد حقق العرق الأبيض الغربي، لنقل الأوروبي، في ظل ذلك العصر، نمطًا من أنماط الوحدة العالمية التي تعيد ذكرى وحدة الإمبراطورية الرومانية. فقد كنا ما إن نغادر أوروبا، ندخل بقوة في نوع من الجمهورية التجارية الدولية (المصطلح نحته إيلي هاليفي[4])، التي تشتغل في ظل الرعاية البريطانية، حيث يتمتع بها البيض، كائنًا من كانوا، بالحقوق ذاتها. وكنا نصطدم بلا أدنى ريب مع القومية ومع النزعة الحمائية، ولكن نتائجهما تظل في نطاق ضيق، ومضبوطة دائمًا؛ لأن الجو العام يومها كان جو التبادل لا بل حرية التبادل على وجه التقريب.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء، محاولين أن نستنتج الصفات المميزة لذلك العصر شبه المنقضي، تتملكنا الدهشة ليسره وسهولته: سهولة التبادل ويسر المواصلات، على الرغم من البون الشاسع بين طرق مواصلاته البدائية، مقارنة بالإنجازات العجيبة والممتعة في أيامنا هذه، وبالأخص سهولة الرحلات، في عالم ذهب مع عميق الأسف إلى غير رجعة، والذي كان فيه الناس ينتقلون بحرية تامة ومطلقة لا تقف معها في طريقهم حدود أو جوازات سفر أو ضرائب. إن استقرار هذه الأزمنة الماضية لا يزال يدهشنا أكثر أيضًا، فالتعريفات الجمركية، والمعاهدات التجارية القائمة على ما يشبه عدم الاستمرار، أي قابليتها للتغير، كانت قاعدة ثابتة تسهل بها عملية المحاسبة. وقروض الحكومات كانت قائمة على دعائم مالية قوية الأركان، لدرجة أن معاصريها اعتقدوا أنها ستستمر إلى الأبد. كما أن المتانة النقدية المعتمدة على الذهب كانت تسمح بمقارنات معقولة بين الأسعار، لفترات زمنية تمتد إلى خمسين عام أو إلى قرن تقريبًا.

وأخيرًا، فإنه في هكذا أوساط، تكون التوقعات ممكنة، حيث هناك نوع من الاستقرار التعاقدي؛ فالتوقيعات بالأسماء كانت محترمة (وهي لا تزال أحيانًا محترمة اليوم، ولكن في تلك الأيام لم يكن ليخطر ببال أحد تهنئة من يلتزم بكلمته وكأنه بطل). وكان هذا الاستقرار ينعكس أخيرًا على البنيان المجتمعي، لأن الرجل الأوروبي أو الغربي كان لا يزال متجذرًا في الوسط الذي يعيش فيه،

(4) إيلي هاليفي (1870-1937) (Élie Halévy) فيلسوف ومؤرخ ليبرالي فرنسي متخصص بالمملكة المتحدة.

الأمـر الـذي لـم يعـد علـى هـذه الحـال اليـوم؛ وكان الفـلاح فـي تلـك الأزمنـة متعلقًـا بأرضـه، كمـا تتعلـق الشـجرة بـالأرض، وكان نقلـه مـن أرضـه يعنـي فقدانـه كليًـا لمحـور حياتـه؛ والصانـع الحرفـي كان يعيـش مـن تقاليـد حرفتـه، وكل الصناعـات، حتـى الميكانيكيـة منهـا، كانـت لا تـزال منطبعـة بـروح المهنـة التـي ظـل مصدرهـا فـي العمـق نابعًـا مـن الحرفـة القديمـة. وحتـى البورجـوازي، بـدا وكأنـه لا ينفصـل عـن الإطـار الـذي يعيـش فيـه، مدعومًـا ومحـدودًا بحسـه فـي التوفيـر، وديانتـه فـي النظـام، ورغبتـه فـي أن ينقـل إلـى وارثيـه أفضـل مسـتوى مـن المعيشـة.

وقـد آمـن أهـل ذلـك العصـر مخلصيـن أن ذلـك النظـام أمـر طبيعـي، ثابـت، أراده اللـه، ولـم يكـن ليداخلهـم شـك فـي أن هـذا النظـام حتمًـا دائـم. فإنجـازات العلـم المبهـرة كانـت تمـلأ نفوسـهم ثقـة وإعجابًـا. وكانـوا يعتبـرون أن «التقـدم والحريـة» همـا بالضـرورة وحـدة لا تتجـزأ. ولـم يكـن يجـري فـي تصورهـم أنـه يمكـن حصـول ردة أو ارتجـاع إلـى الـوراء ولـو رجوعًـا زمنيًـا، فـي طريـق الإنسـانية الصاعـد إلـى الأمـام. ومـع هـذا، فـإن بـذور الأزمـة كانـت هنـا، وقـد كان ممكنًـا أن نلحـظ وجودهـا فـي الآثـار الملموسـة الواضحـة للمكننـة، وللتمركـز الصناعـي، وفـي الوجـود الملـح يوميًـا لمشـكلة اجتماعيـة تبحـث عـن الإنسـان داخـل المنتِـج، وفـي النمـو السـريع لبلـدان مـن خـارج أوروبـا، صـارت هـي منافسـنا للمسـتقبل. والحـال أنـه لـم يلاحـظ أحـد شـيئًا ولفتـرة طويلـة مـن الزمـن. وأنـا أتذكـر تاريخًـا أعتقدنـا أنـه تاريـخ قـدري وهـو الحـادي والثلاثون مـن كانـون الأول/ديسـمبر عـام ألـف وتسـعمئة، أي بدايـة القـرن الجديـد. ففـي أمسـية ذلـك التاريـخ علـى وجـه التحديـد، كنـا نتبـادل التهنئـة بكلمـة «قـرن طيـب» بـدلًا مـن «سـنة طيبـة»، ومـع شـيء مـن الوقـار. وفـي اليـوم التالـي لهـذه الأمسـية، وعنـد خروجـي مـن المنـزل، كنـت أنظـر بفضـول إلـى الشـارع وحركـة المـرور فيـه، لأرى مـا طـرأ عليـه مـن تغييـر. بيـد أن كل شـيء كان كعهدنـا بـه، كالعـادة. ولفتـرة طويلـة لـم نعـد نفكـر فـي هـذا الأمـر: كان القـرن التاسـع عشـر مسـتمرًا. حتـى أن المجلـة الإنكليزيـة الشـهيرة القـرن التاسـع عشـر لـم تكـن قـد قـررت تغييـر هـذا الاسـم، بـل إنهـا أضافـت إليـه ببسـاطة هـذه العبـارة: «ومـا بعـده»، (أي صـار اسـمها القـرن التاسـع عشـر ومـا بعـده)، وكان ذلـك يعنـي برنامجًـا كامـلًا مبنيًـا علـى وهـم أن مـا سـيصير بسـرعة ماضيًـا، سيسـتمر ويبقى.

كانت حرب عام 1914 صحوة أولى، ولكننا كنا لا نزال نعتقد بإمكان أن نرجع بعد ذلك إلى الوضع الذي كان قائمًا، وكان ذلك على ما نذكر هو الحلم الفطري الساذج لجمهرة غفيرة من الناس. وكانت أزمة عام 1929 العالمية هي الأزمة التي حتمت الظروف وقوعها لتفتح أعين الإنسانية الغربية وكي تجعلها تعي أن صفحة قد طويت، ليس الآن فحسب، وإنما منذ وقت طويل: فنحن الآن في القرن العشرين... وقد استلزم الأمر انقضاء ثلاثين عامًا كي ننتبه إلى ذلك. وكانت الحرب العالمية الثانية هي الكفيلة بأن تبدد أي وهم كان قد بقي عالقًا في أذهاننا. ونحن اليوم نعرف من دون أي شك أن ثورة قد حدثت وهي تتجاوز طابع السياسة وأن لها بعدًا إنسانيًا كونيًا؛ ونحن نسبح الآن في المياه العميقة للقرن العشرين، وكما يقول الفيلسوف الفرنسي إميل ليتريه[5] (Émile Littré): نحن نشعر أيضًا أننا لا نملك بوصلة أو أشرعة في هذا المحيط الذي لم نعد نرى له شواطئ.

(2)

إذًا فيمَ غيرت هاتان الحربان العالميتان العالم؟ وهما اللتان تعتبران نقطتي انطلاق لحوادث كبيرة، بحيث منحتانا هذا الشعور بالثورة الذي لا يبارح ذهننا أبدًا.

هنالك أولًا ثورة في التوازن الداخلي للدول. فقد تغيّرت ظروف السلطة السياسية. فالحروب إذ أصبحت حروبًا كلية، وضعت بين أيدي الحاكمين قوة، وهذه القوة ليست سياسية أو عسكرية فحسب، بل اقتصادية واجتماعية وفنية، بحيث إن المصالح الخاصة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها، أصبحت أكثر التصاقًا بمصلحة المجموع. مثل هذا النظام هو الذي فرضه التوتر وصخب المعارك، ولكن لا ينبغي أن ننخدع، فالدولة لن تستغني عن الأسلحة التي حصلت عليها نتيجة تلك الظروف الاستثنائية. إنها ستحافظ عليها وستحاول

(5) إميل ليتريه (1801-1881) (Émile Maximilien Paul Littré) قاموسي موسوعي فرنسي وفيلسوف ورجل سياسة اشتهر خصوصًا بفضل قاموسه للغة الفرنسية الذي صار يعرف باسم قاموس ليتريه.

تدعيمهـا، ثـم إنهـا بعـد ذلـك، وكـي تبـرر موقفهـا أمـام جمهـرة الشـعب، ستسـتخدمها لتشـبع رغبـات الشـعب الماديـة والعاطفيـة معًـا (أي وبلغـة العصـر: بطاقـة التمويـن والرياضـة والسـينما)، فضـلًا عـن عطـش الجماهيـر البدئـي إلـى المسـاواة. إن الجمـوع البشـرية فـي حالـة عـدم مقدرتهـا علـى اسـتخدام السـلطة السـيادية التـي اعتُـرف لهـا بهـا تبعًـا لاتفـاق ضمنـي، لا تسـتطيع فـي عصـر أصبـح فيـه التنظيـم الكبيـر شـرطًا لا غنـى عنـه لأي حيـاة جماعيـة متطـورة، إلا أن تفـوّض بالكامـل هـذه السـلطة للحكومـات. وتحـوّل السـلطة مـن الجمـوع البشـرية إلـى الحكومـات يـؤدي بالطبـع إلـى دكتاتوريـة رجـل واحـد، أو حـزب واحـد، أو بيروقراطيـة... وفـي آخـر المطـاف إلـى الاسـتعباد الـذي تضعـه الحكومـات فـي إطـار نسـتمر بحكـم العـادة علـى تسـميته إطـارًا ديمقراطيًـا.

ويبـدو أن هـذا الاسـتعباد قـد جـرى الخضـوع لـه وقبولـه مـن دون ألـم. فهـل هـو كسـل أو تعـب، أم هـو قصـور؟ إن الفـرد علـى وجـه العمـوم، وحتـى فـي مجتمعاتنـا الغربيـة، لـم يعـد يقبـل أن يهمـل متـروكًا أمـام مسـؤولية شـخصه، وأن يُتـرك إلـى مبادرته الخاصـة، فهـو يطالـب، ويتطلـب، وفـي الأخيـر يجـد أنـه مـن الطبيعـي أن تقـوم الحكومة بـأوده، فيرتمـي بيـن يديهـا كمـا المفلـس بيـن ذراعـي وكيـل التفليسـة، وبهـذا فإنـه لا يعـود حـرًا. ولكـن قـد يحلـو لنـا أن نسـأله إن كان يهمـه أن يكـون كذلـك مـا دام الأمـن والأمـان قـد أصبحـا همـه الأول. كمـا أن المجتمـع يتجـه إلـى أن يصبـح أكثـر مسـاواة، وأكثـر تعاونًـا وتضامنًـا، ولكـن أقـل حريـة. وسـتبدو الليبراليـة مذهبًـا غيـر متعـارف عليـه فـي نظـر المثقفيـن أو مـن يوصفـون بالرقـي؛ ومعنـى ذلـك: أنـك تصبـح رجعيًـا إذا مـا دافعـت عـن الفـرد ضـد التنظيـم، لأن التنظيـم هـو التقـدم، أو اليسـار... ويـا لهـا مـن كلمـة لا يسـتطيع المـرء معهـا شـيئًا.

ويجـب علينـا فـي هـذا المقـام أن نقـرر أن الشـروط الحديثـة للإنتـاج الصناعـي تتعـارض مـع المبـادرت الفرديـة والحريـات الشـخصية. فبعـد مرحلـة المهنة/الحرفـة التـي تقـوم علـى اسـتعمال الآلـة اليدويـة البسـيطة باعتبارهـا امتـدادًا للـذراع، أي للعقـل، جـاءت المرحلـة الميكانيكيـة التـي تقـوم علـى الآلـة الميكانيكيـة (الماكينـة) والتـي تـؤرخ لزمـن سـيطرة المهنـدس وسـيادته. لكننـا دخلنـا الآن فـي مـا يبـدو مرحلـة

أخـرى جديـدة تراجعـت فيهـا التقنيـة الخالصـة أمـام سـيادة التنظيـم. ففـي هـذا العصـر الإداري الـذي تتطلـب فيـه الإدارة المعقـدة للمشـاريع، وجـود رؤى شـمولية وحسًـا عميقًـا بالإخـراج (الفنـي)، صـارت الوحـدة الجامعـة فـي الإنتـاج ضـرورة ملحـة، لأنـه لـم يعـد مقبـولًا أن تعمـل فـي حـدود جهـود متفرقـة... رجـل الإنتـاج الجماعـي يحـل محـل رجـل الفوضـى الفرديـة.

إن الحـرب إذ أجبـرت الحكومـات علـى أن تسـيطر علـى الإنتـاج بـروح توتاليتاريـة، قـد عجلـت كذلـك بهـذا التطـور الـذي حافظـت فيـه التقنيـة علـى دورهـا الحيـوي، والذي أصبحـت فيـه أيضًـا صفـات التنظيـم هـي أكثـر الأشـياء ضـرورة بصـورة مباشـرة. إن عامـي 1914 و1939 يعتبـران مـن هـذه الوجهـة مرحلتيـن حاسـمتين، لأن هـذه الصفـات قـد دعمـت تركيـز الصناعـات أو تجميعهـا، وفرضـت فـي عـدد مـن الحـالات «وحـدة تخطيـط الصناعـات الرئيسـة» مـن زاويـة المصلحـة القوميـة وتحـت إشـراف الدولـة. وبتطورهـا هـذا فقـد زادت المنشـأة الكبيـرة بالطبـع مـن مـدى سـلطانها، وأصبحـت منطقيًـا مشـروعًا سياسـيًا يبحـث بالتالـي عـن وضـع يـده علـى الدولـة. كـي تدافـع الدولـة عـن نفسـها، حاولـت مجتهـدة بدورهـا أن تتسـلط علـى المنشـأة وأن تبتلعهـا. وعلـى أي حـال، فقـد تقلـص إشـراف السـلطات العامـة مـن دون أن يـؤدي ذلـك إلـى تحديـد الدولـة. ومـن هنـا يأتـي ذلـك الإغـواء الرهيـب للقـوة أو لسـوء اسـتعمالها، لا بالنسـبة إلـى الدولـة ذاتها فحسـب (وهـي مقولـة مجـردة)، بـل أيضًـا بالنسـبة إلـى أولئـك الذيـن يمارسـون - فـي الواقـع - الحكومـة. فالقـوى المضـادة للعصـر الليبرالـي لـم يعـد لهـا وجـود شـيئًا فشـيئًا أمـام ظهـور ذلـك الجسـم الكبيـر الـذي ينيـخ بكلكلـه علـى الفـرد.

فـي مثـل هـذه الظـروف، فـإن كل مشـكلة تنحـو إلـى أن تكـون إداريـة، ومـن ثـم سياسـية بطريـق غيـر مباشـر. فالحلـول الفردانيـة التـي كانـت لا تـزال شـبه قاعـدة عامـة فـي القـرن التاسـع عشـر لـم تعـد تكفـي أو تشـفي غليـلاً. أمـا الآن، فقـد أوجـب الوضـع الراهـن حلـولًا مـن جانـب الدولـة يُعبّـر عنهـا فـي صيغـة قوانيـن ومراسـيم تتضمـن تنظيمـات أو أوامـر لا يحصيهـا العـد، ولا يمكـن نقضهـا؛ ذلـك أننـا نجـد اليـوم عـددًا لا حصـر لـه مـن المشـاكل تتعلـق بالجماعـة بوصفهـا كلًا مـن مثـل: الصحـة والمسـكن والغـذاء والإعانـة والضمـان الاجتماعـي والعلاقـات بيـن

أصحاب العمل والعمال، والإنتاج الصناعي، والتي تعجز المبادرة الفردية عن حلها. فعدد الساعات التي يجب أن نخصصها من حياتنا للإجراءات الإدارية، قد ارتفع عن ذي قبل، فضلًا عن أن جزءًا كبيرًا من نشاط المنتجين يضيع في إجراءات مكتبية، وهذا ما يتطلبه ويفرضه علينا «العصر الإداري»، وإذا لم يتعقلن العصر الإداري، على منوال ما فعله «العصر الميكانيكي»، فإن البنيان الاجتماعي الوسخ الأدرن لا بد وأن ينهار.

ومع ذلك، وفي هذا التيه المحزن ربح الكائن البشري كثيرًا، لأنه لم يعد، كما كان في ظل النظام الليبرالي العدواني والشامل، «عامل إنتاج» بالتكلفة فحسب. فالعمل النقابي والحركات المختلفة للإصلاح الاجتماعي، والعقيدة الإنسانية التي أطلقها البيان الفاتيكاني[6] (Rerum Novarum) فرضت في أشد أزمات الإنتاج وأعنفها، مبدأ احترام الإنسان. فهل يجد الكائن الإنساني في هذا الاحترام ما يعادل تقدمًا ما؟ إن ما ربحه الفرد من جانب قد فقده مع الأسف من جانب آخر؛ فالمجتمع سيتهدده بسرعة الجمود والتصلب إذا لم يجد من جديد في مبادرة الفرد مصدر حياته الذي لا يُعوّضه أي مصدر آخر. إنه، بكلمة، توازن جديد علينا إيجاده. والبحث عن هذا التوازن هو من عمل الأجيال الصاعدة. ولكن إذا فقد الفرد ذاته في مغامرة هذا البحث، فإن الإنسانية جمعاء، قد ترجع القهقرى تحت مظهر خداع من التقدم التقني.

وبالمقابل نرى أمامنا حدوث تغيّر كامل في توازن الكوكب الأرضي؛ وها نحن كذلك في عصر المواصلات السريعة. فقد خلق لنا هذا العصر على حد تعبير بول موران [7] (Paul Morand) رذيلة جديدة وهي السرعة؛ ونحن لا نستطيع

---

(6) «في التغيير الثوري» (Rerum novarum) هو منشور بابوي فاتيكاني صدر في 15 أيار/مايو 1891 عن البابا ليون الثالث عشر (1810-1903)، يشكل النص التأسيسي للعقيدة الاجتماعية للكنيسة الكاثوليكية. وقد صدر المنشور بتأثير من صعود حركة «المسيحيين الاجتماعيين» جوابًا عن المسألة الاجتماعية، فأدان البؤس والفقر اللذين تتخبط فيهما الطبقة العاملة كما أدان بالقوة نفسها الاشتراكية الإلحادية وتجاوزات الرأسمالية، وشجع على العمل النقابي المسيحي.

(7) بول موران (1888-1976) (Paul Morand) كاتب ودبلوماسي وأكاديمي فرنسي يعتبر أحد آباء «الأسلوب الحديث» في الأدب.

أن نتخلص منها، أما فوائدها فأمر مشكوك فيه. لقد ألغت الطائرات المسافات، فيا للتناقض بين تنقلاتنا اليوم وبطء تنقلات أجدادنا وآبائنا؟ وبحسب ما عرفته من مذكرات جدي، فإن رحلته التي قام بها في عام 1821 من مرسيليا إلى مدينة تربيزوند (طرابزون التركية على البحر الأسود)، بسفينة شراعية، استغرقت ستة وعشرين يومًا. أما اليوم، فتستغرق الرحلة من باريس إلى القاهرة أو من باريس إلى اسطنبول يومًا واحدًا فحسب.

في عام 1861 قام أبي برحلة من ميناء الهافر إلى نيويورك في سبعة عشر يومًا. وفي عام 1938، استغرقت مني هذه الرحلة على الباخرة «نورماندي» أربعة أيام ونصف اليوم. وهناك مثل آخر أكثر وضوحًا: فمن برانكيلا التي تقع على الشاطئ إلى بوغوتا عاصمة كولومبيا في أميركا اللاتينية والتي تقع على الهضاب العالية لجبال الأنديز على بعد ألف كيلومتر في الداخل، كانت الرحلة تستغرق منذ خمسة عشر سنة أو عشرين سنة مضت، خمسة عشر يومًا. ولكني قمت بالرحلة نفسها، وقطعتها في ثلاث ساعات ونصف الساعة أي إنني غادرت برانكيلا في التاسعة والنصف، وتناولت طعام الغذاء في بوغوتا... هذه الرحلات الخاطفة قد أصبحت اليوم شيئًا عاديًا. ومنذ وقت قريب، تناولت إفطاري في الخرطوم، ثم آويت إلى فراشي في المساء في بروكسل من دون أن تعتريني الدهشة من هذه السرعة الفائقة التي تعودناها.

ومع ذلك، فإنني لا أنسى رحلتي الجوية الأولى التي عبرت بها المحيط الأطلسي: بدأت الرحلة في الثامنة مساء من مطار أورلي في باريس، ثم تناولت عشائي في مطار برستويك في مقاطعة اسكتلندا بشمال إنكلترا. وكان جو النهار شبيهًا بالغسق الذي لا نهاية له. ثم تناولت إفطاري في أيسلندا في اليوم التالي، وكانت الأرض في هذه البقعة من العالم أشبه ما تكون بقطعة من الألوان المختلطة بين حمر وصفر وخضر، ذلك منظر رائع أخاذ لا يتطاول الخيال إلى بلوغ حدود وصفه. وعندما وصلت في الخامسة مساء، وبعد أن طرت طويلًا فوق بحر مرصع بجبال من الجليد إلى الأرض الجديدة ذات التربة المثلجة التي تنتشر في جنباتها أشجار الصنوبر السود، استأنفنا طيراننا على

الشاطئ الأميركي ذي المدن البراقة الوهاجة؛ وكنا في هذه الحال كأننا في حلم. وأخيرًا هبطنا في واشنطن في العاشرة مساء. وبالمقارنة مع ما نفعله اليوم، نجد أن زمن سير المواصلات كان فعلًا بطيئًا، ومع ذلك فإنه لا يكون هناك اليوم أي استعداد ذهني للاغتراب كما كان يشعر به الناس بالأمس خلال الساعات الطويلة والمملة التي تستغرقها الرحلة: فنحن نهبط من السماء لنجد أنفسنا فجأة في أجواء قارة جديدة، وقد أضحى السفر بطريق الطائرة لا يتبع طريقًا مستقيمًا، بل طريقًا منحنيًا يتسم بالاعوجاج، ناهيك باللف والدوران.

كان من نتيجة هذه الثورة في مقاييس سلم السرعة أن انتهت بالتأكيد حالة الإقامة في جزر متباعدة. فبعد الطيار الأول بليريو[8] (Blériot) وبعد ليندبرغ[9] (Lindbergh)، وبعد رحلات الطيران العجيبة التي أدهشت العالم منذ الحرب العالمية الثانية، هل يجوز لنا أن نتحدث عن عزلة في جزيرة؟ لقد أصبحت جميع الاتصالات أو العلاقات ممكنة بسرعة ومن دون تأخير والدورة المشهورة حول العالم التي استغرقت ثمانين يومًا، تستغرق اليوم ثمانٍ وأربعين ساعة. هذا صحيح! ولكن يا ترى هل نستطيع القول إن هذه المغالاة في السرعة قد خلقت فعلًا علاقات أفضل بين الناس؟ فلننظر إلى ما يجري حولنا: سنجد أن الحواجز السياسية والإدارية قد اشتدت وتعاظمت في حين تحاول الوحدات القومية الدفاع عن نفسها من طريق إحاطة نفسها بعوائق مختلفة. الليبرالية الاقتصادية لم يعد لها وجود (إن صح القول). مع أن المسافات قد تدانت اليوم عنها بالأمس، إلا أن الزمن الذي كسبناه تقنيًا نفقده إداريًا في دوامة من الشكليات، والتشريعات، وتأشيرات الخروج. وفي الأخير، فإن التقدم الكلي ليس مؤكدًا.

من كل ما تقدم، نرى أن هناك تغييرًا، لعله شبه ثورة في معيار القوى. البلاد الوحيدة التي تستطيع أن تبقى قوى من الدرجة الأولى هي تلك البلاد ذات

---

(8) لويس شارل جوزيف بليريو (1872-1936) (Louis Charles Joseph Blériot)، طيار فرنسي ومخترع ومهندس. اشتهر عالميًا حين قام عام 1909 بأول رحلة بطائرة نقل جوية عبر القناة الإنكليزية.

(9) تشارلز أغسطس ليندبرغ (1902-1974) (Charles Augustus Lindbergh)، طيار أميركي ومؤلف ومخترع وضابط عسكري ومستكشف وناشط اجتماعي.

المساحات الشاسعة، والمكتظة بالسكان، والمنظمة تنظيمًا جيدًا، والتي تسيطر على ما تملك من أراض مترامية الأطراف. فقواعد الإنتاج الحديث، تتطلب تلك الضخامة التي من دونها لا تستطيع الآلة والإنتاج الغزير تأدية دورهما على الوجه الأكمل. وكذلك لم يعد كل من العلم والمنهجية، والطريقة الفنية، وحدها أمورًا كافية، فالإنتاج لم يعد ممكنًا إلا في إطار هياكل عملاقة. ويبدو أنه لا بد من بلاد مساحتها في الأقل من 8 إلى 10 ملايين كيلومترًا مربعًا، وسكانها في الأقل 100 مليون نسمة لتكون دولة كبرى. لكن سبق أن سيطرت أثينا على حوض البحر المتوسط، وكانت عبارة عن رقعة صغيرة من الأرض، يعيش بين ثناياها نخبة مختارة من المواطنين، وكنا نحن نستطيع أن نحقق منذ زمن وبمجموعة تتراوح من ثلاثين إلى أربعين مليونًا من السكان، السيادة أو الزعامة الأوروبية. أما اليوم فقد أصبحت الغلبة لكثافة السكان، ولهذا، فإن الولايات المتحدة وروسيا، وهما قارتان حقيقيتان، تتبادلان دور قيادة العالم بدلًا من الطرف الآسيوي الصغير (أوروبا) الذي كان يوجه العالم منذ أربعة قرون بفضل تناسقه وتنوعه المدهشين، على الرغم من قلة كثافة سكانه. وأصبح على «الوحدات القومية» أن تتحد (فدراليًا) لأنها لم تعد في مستوى هذا العصر الجديد.

في الوقت الذي كان يتغير فيه معيار تصنيف القارات والبلاد، حدث اختلال في توازن مركز الثقل العالمي. فأوروبا المحطمة الجاثمة على قدميها المهزومة في عقر دارها، لم تعد قادرة على أن تؤدي دور القيادة في الحضارة الغربية، ولم تعد - كما كانت منذ قرون - من يقوم بتنمية قيمة العالم. وقد ظهر ازدواج في مركز الثقل لمصلحة إما أميركا الشمالية وإما ما يشبه القارة السادسة أو السابعة التي يمكن أن نصفها بالقارة الأورو - آسيوية. وعلى ذلك، فإن مشاكل السلام وإعادة تنظيم العالم بعد الحرب العالمية الثانية، لم يعد يتم تناولهما لدى المنتصرين من وجهة نظر أوروبا، كما كان عليه الحال في جميع المناقشات الدبلوماسية السابقة. وكان لاختيار مدينة سان فرنسيسكو مقرًا للاجتماع الأول لمنظمة الأمم المتحدة أكثر من مدلول. فالمنتصرون في الحرب العالمية الأولى لم يفكروا قطعًا في أن يجتمعوا في مكان آخر غير القارة القديمة. ومن الأمور ذات المعنى أن يكون مقر الهيئة الجديدة للأمم

بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة؛ ومما له معنى كذلك أن تنقل روسيا مراكزها الصناعية إلى شرق الأورال. وبذلك ظهر عالم آخر، لا تسوده «الأوروبية»، بل واحدة من اثنتين: آسيوية أو أميركية.

ومن هذه الحقيقة، نجد أن جغرافية الطرقات قد تغيرت عن ذي قبل. فأي مكان ناء، في أقصى بقاع الأرض، مثل مدينة أدمنتن في الشمال الغربي لكندا، أصبح اليوم يقع في طريق أهم الخطوط العالمية ما بين القارات. وهكذا فإن إنكلترا، تلك الأرض الشمالية القصية (باللاتينية Ultima Thule) في القرون الوسطى، والتي لم يكن يحيط بها إلا مساحات شاسعة من محيط لا نهاية له، قد غدت بعد الاكتشافات العظيمة نقطة انطلاق عدد كبير من التبادلات البحرية، وأصبحت كذلك رأس جسر بين أوروبا والقارات الجديدة الناشئة من الحياة التي خلقتها العلاقات المتبادلة. وأي أرض/وحدة سياسية لم تعد تفهم جيدًا إلا بكونها ضمن خريطة العالم. فهذه الخريطة وحدها هي التي تتيح لنا أن نفهم بنظرة خاطفة، الأهمية الجديدة التي تحتلها المنطقة القطبية؛ لأن المواصلات الجوية المباشرة بين القارات ونصف الكرة الشمالي تمر بهذه المنطقة. وعلى ذلك يدخل القطب ضمن المناطق التي تتصارع فيها الإمبرياليات... من هنا يستلزم الأمر شيئًا من الجهد الفكري لنكتشف أن «خط شيكاغو - كلكوتا» يمر بالقطب الشمالي، وأن أقرب البلدان غير الأميركية إلى كندا هي سيبيريا. إذًا، فالحروب القادمة لا بد أن تضع في حسبانها هذه الاعتبارات التي كان بوسع الجيل السابق أن يتجاهلها، أما الجيل الحالي، فليس بمستطيع ذلك.

والأرض اليوم لم تعد أرض الأمس. وكم هذا مؤثر، بل كم هو مهين، للرجل الأوروبي الذي كان قد عرف نظامًا مختلفًا تمامًا. ففي ما بين عامي 1898 و1900، حين كنت شابًا صغيرًا، وطوفت بأرجاء العالم، رأيت بعيني كيف كانت تفتح جميع الأبواب المغلقة أمام الرجل الأوروبي أو الغربي الذي كنته أنا، وكان يكفي أن أقول إنني مواطن روماني (باللاتينية civis romanus sum) كي تنهار كل الحواجز والعراقيل. كنت أتمتع بامتياز وحيد هو انتمائي إلى العرق الأبيض وإلى ملكة القارات. كم تغيّر الزمن عما كان عليه قبلًا! ذلك أنه

يخالجني الآن شعور بأني عاصرت ما يشبه نهاية الإمبراطورية الرومانية. ويجول في ذهني هنا بيت من الشعر قاله كورناي[10] (Corneille) في القرن السابع عشر:

قَدَر عظيم ينتهي... قَدَر عظيم يبدأ

في ضوء هذه التجارب التي كانت قاسية غالبًا، نبدأ بإدراك كنه الخصائص المميزة الرئيسة لهذا القرن العشرين الذي يختلف إلى حد كبير عن القرن السابق، والذي استغرقنا وقتًا طويلًا كي نستقر فيه. بيد أن التقدم التقني هو في الحقيقة «جبّار» وهو يدهشنا لدرجة أنه غمر كثيرين منا بشيء من النشوة؛ فقد حملنا على الاعتقاد أننا قد انتصرنا على العناصر الطبيعية، وأنه لم يعد هناك من حد لقوة الإنسان، وقد وسّعنا من حدود معرفتنا ومددنا من آفاق رؤيتنا إلى ما وراء عالمنا. ولكن في الوقت نفسه، فإن المعارف القديمة التي هي في الظاهر قوية ثابتة، والتي كان يفخر بها القرن التاسع عشر، ومنها مبدأ الحتمية، وفكرة القانون الطبيعي، تميل إلى أن تغلبنا. فقد كان يوجد في هذا المبدأ الفلسفي (الحتمية)، على الرغم من كل بدائيته، أساس لمنطق سليم للتفكير: فالاحتمالات الإحصائية لم تعد تمنحنا الأمن والطمأنينة المنشودين، في وقت يؤدي فيه عدم توقعنا الحركات الذرية إلى إدخال مملكة الشك في العقول، وسط وهم جذاب بالحرية. هذه هي الروح المضطربة وقت أن سادت الحماسة العارمة لاكتشافات عجيبة.

لقد حقق القرن التاسع عشر إلى حد ما، الوحدة الاقتصادية للكون. واليوم يتجه العالم إلى الانقسام إلى وحدات سياسية اقتصادية كبرى مجزأة أجزاء صغيرة، ومدعمة تدعيمًا عسكريًا واقتصاديًا قويًا، هي في الواقع توتاليتارية أو إنها تجنح بأن تكون توتاليتارية وكأن ذلك ضرورة لها. ولم تعد الحرية التامة تسبغ ظلالها على انتقال الأفراد والبضائع التجارية، ذلك أن مبدأ الحماية القديم الذي كان ينحصر في التعريفات الجمركية فحسب، لم يعد يربطه بمبدأ

(10) بيار كورناي (1606-1684) (Pierre Corneille) مؤلف مسرحي وشاعر فرنسي شهير، ينحدر من أسرة بورجوازية من نبلاء الثوب، أي من الأرستقراطية التي اشتغلت في الإدارة وفي المحاماة، تحول من المحاماة إلى الأدب مثل كثيرين غيره من حملة شهادات القانون في زمانه.

الحمايـة الجديـد إلا ربـاط واه. وهـذا المبـدأ الجديـد قـد أقيـم علـى أسـاس تقنيـن حصـص الاسـتيراد، وعلـى الأخـص قواعـد المبادلـة والصرافـة؛ والأدهـى مـن ذلـك أن النقـد نفسـه، لـم يعـد حياديًـا كمـا كان مـن قبـل فـي هـذه الحمايـة. فالبنـوك المركزيـة الموزعـة للنقـد تسـتأثر بالقفالـة الماليـة التـي بهـا تغلـق البـاب بإحـكام علـى الخـارج. والمفاوضـات الدوليـة اقترحـت قـرارات عـدة لمصلحـة التبـادل، وصاغـت تفاهمـات عـدة، ولكـن مـن غيـر جـدوى. فلـم تصـدق جميـع الحكومـات علـى هـذه القـرارات، وحتـى أولئـك الذيـن صدقـوا عليهـا، فإنهـا لـم توضـع مـن جانبهـم موضـع التنفيـذ. ففـي عالـم ترغـب فيـه جميـع الـدول أن تصبـح صناعيـة، لـم يحـدث أن كان مبـدأ الحمايـة القوميـة أكثـر تصلبًـا ممـا هـو عليـه اليـوم.

والأكثـر تأثيـرًا حقًـا كان الدفـاع الحمائـي ضـد الهجـرات البشـرية وحتـى ضـد مجـرد تنقـلات الأفـراد. ومـن طريـق جـوازات السـفر، ومكاتـب الصرافـة، أضحـت الهجـرة (فـي الاتجاهيـن) صعبـة جـدًا. ومـن العسـير أن تسـافر مـن دون معاونـة الدولـة، ويصبـح ذلـك مسـتحيلًا فـي حـال اصطـدم المـرء بأقـل قـدر مـن عـدم رغبـة الدولـة بسـفرك. ولقـد قـام الرحالـة فيليـاس فـوغ برحلـة حـول العالـم اسـتغرقت ثمانيـن يومًـا، وهـو قـد انطلـق فـي الليلـة نفسـها التـي راهـن فيهـا علـى ذلـك. ونسـتطيع اليـوم أن نقطـع الرحلـة بأقـل مـن أسـبوع واحـد. ولكـن كـم يومًـا تسـتغرق عمليـة الإعـداد لهـذه الرحلـة؟ هـذا مـن دون أن نذكـر اسـتحالة القيـام بالأمـر قبـل حلـول الليـل مـع مـا يتطلبـه ذلـك بالطبـع من إعـداد جـواز السـفر والتطعيـم واسـتبدال العمـلات بعمـلات أخـرى.

علينـا إذًا أن نندمـج اندماجًـا كليًـا فـي أي دولـة ضخمـة، قويـة الجانـب تجـاه الإنسـان، ضعيفـة جـدًا أمـام كميـة المشـكلات العويصـة التـي تواجههـا. وقـد كتـب الشـاعر الفرنسـي بـول فاليـري[11] (Paul Valéry) فـي هـذا المعنـى يقـول: «الدولـة مخلـوق ضخـم الجثـة، مزعـج وضعيـف؛ إنهـا عمـلاق مشـوه، قـوي جـدًا، أخـرق

(11) بول فاليري (1871-1945) (Ambroise Paul Toussaint Jules Valéry)، شاعر ومؤلف وفيلسوف فرنسي. وهو إضافةً إلى شعره ورواياته وقصصه ومسرحياته، انشغل أيضًا بالتاريخ والفن وبالحوادث السياسية اليومية. رشح لجائزة نوبل للأدب 12 مرة.

جدًا، إنها بنت القوة والقانون وقد أنجباها من تناقضاتهما. وهي لا تحيا إلا بواسطة جمهرة من صغار الناس الذين يحركون بحماقة يديها وقدميها التي لا حياة فيها. أما عينها الوحيدة فلا ترى إلا «الملاليم» أو المليارات. الدولة صديقة الكل، وعدوة الفرد».

وفي هذا العصر: عصر الحديد والنار الذي قضى عدد كبير منا فيه عشر سنوات من حياته في الحرب؛ نجد أن التدهور الخلقي شيء ملموس ومخيف. لا يمكن أن يكون آباؤنا قد تصوروا مدى الفظائع التي ارتكبها البشر، ولا حتى في أتون حماوة المعارك، وقد ارتكبوها بدم بارد ومنهجية نظامية. ولم تعد البشرية لتبدو أكثر من مجرد معركة في مؤخرة الجيش.

(3)

إن نتائج هذا الانقلاب قد سرت سريعًا بشكل تبدو معه وكأنها تتعجل مرور المجرى العادي للزمن. وهي ليست تغيرات سياسية واجتماعية تجري أمام ناظرينا فحسب، بل إننا نشعر أن البشرية دخلت عصرًا جديدًا. ومن الملاحظ أن الانتقال من الآلة اليدوية إلى الآلة الميكانيكية لم يستغرق وقتًا طويلًا ليس في الغرب فحسب، بل في كل مكان: فالآلة اليدوية كانت فردية ومعلِّمة؛ أما الآلة الميكانيكية فهي بطبيعتها جماعية لا تتلاءم مع العمل الفردي فهي لها وتيرتها الخاصة التي ليست وتيرة الإنسان، ويؤدي ذلك إلى تغيير كل بنية الإنتاج.

يستتبع ذلك ثورة في أخلاقيات العمل. فقد كان العمل الحرفي اليدوي أو الفني في الماضي قائمًا في الأغلب على تقاليد شرف المهنة. ولكن صفحات بيغي[12] (Péguy)، غير البعيدة مع ذلك عن أيامنا، والتي تصف عملية تقشيش

(12) شارل بيار بيغي (1873-1914) (Charles Pierre Péguy)، كاتب وشاعر ومسرحي فرنسي تتنوع كتاباته لتشمل حتى بعض الألغاز من وحي قروسطي كتبها شعرًا، وأشعار صوفية متفرقة تستوحي خصوصًا شخصية جان دارك التاريخية التي ظل بيغي متعلقًا بها طوال حياته. وكان بيغي مثقفًا ملتزمًا تنقل خلال مرحلة الدراسة بين أن يكون مناضلًا اشتراكيًا ثم فوضويًا متحررًا ثم معاديًا للكنيسة، فمدافعًا عن درايفوس، ليقترب منذ عام 1908 من الكاثوليكية والقومية المناضلة. اشتهر بكتاباته المتحسسة للهم الاجتماعي والرافضة للحداثة.

الكراسـي وتقاليـد شـرف هـذه المهنـة الخاصـة، صـارت ذكـرى ماضيـة مـن زمـن سـحيق. ومـن الآن فصاعـدًا، فـإن العمـل الصناعـي فـي المصنـع سيتأسـس بالنسـبة إلـى الرئيـس علـى التقنيـة وروح التنظيـم، وعنـد العامـل علـى الانتبـاه وحيويـة الحـركات والضميـر وقـوة الاحتمـال. وفـي غالـب الأحـوال، لـم يعـد الأمـر يتعلـق بشـرف المهنـة أو بالـروح الفنيـة طالمـا أن العمـل الفـردي يـذوب فـي عمـل الجماعـة التـي يجـب أن ينتظـم فيهـا كل شـيء، كمـا تتحـرك أجـزاء السـاعة. إذًا، فلـم يعـد هنـاك موضـوع للتميّـز الفـردي، أو لمـن يسـرع أكثـر، أو لمـن ينجـز أفضـل مـن الآخريـن، طالمـا أن الواجـب يفـرض عليـه ألا يتحـرك مـن مكانـه الـذي خصـص لـه، مثـل أي قطعـة فـي آلـة ميكانيكيـة دقيقـة. فـروح العمـل كفريـق وكرابطـة وروح التعـاون، تنطـوي علـى أخلاقيـات جديـدة فـي العمـل، محملـة بالتضحيـة مـن جانـب الفـرد الـذي يشـعر معهـا أيضًـا بالعظمـة والسـمو، مـن لحظـة شـعور الفـرد بأنـه جـزء مـن عمـل المجمـوع. ولعـل أخلاقيـات المسـتقبل هـذه هـي ذات أسـاس صوفـي.

ونحـن نـرى هنـا ثـورة فـي العلاقـات الاجتماعيـة بيـن النـاس. فالفرديـة الطبيعيـة التـي لهـا تقديـر مـن وجهـة النظـر الإنسـانية، والموجـودة عنـد صاحـب الحرفـة أو الفـلاح المالـك، تبـدو أنهـا غيـر تاريخيـة. لـم يعـد ممكنًـا أن ننتـج لوحدنـا بطريقـة فرديـة فـي مجتمـع التـف حـول الآلـة، وحيـث لـم تعـد الملكيـة الخاصـة تجـد أجواءهـا فيـه بسـهولة. وإن شـكلًا مـن أشـكال التعـاون مهمـا تعـددت صـوره فـرض نفسـه فرضًـا فـي هـذا المجتمـع، ونحـن نأمـل أن يهـدف هـذا التعـاون إلـى العنايـة بالفـرد والاهتمـام بـه؛ لكـن الاتجـاه يذهـب فـي أغلـب الأحيـان وجهـة الجمعويـة الخالصـة. والحيـاة الخاصـة نفسـها لا تنجـو مـن هـذه السـطوة، لأن تنميـط الإنتـاج يترتـب عليـه منطقيًـا توحيـد الاسـتهلاك: يجـب أن نربـي المسـتهلك علـى أن يكيّـف نفسـه وفـق مقتضيـات أي صناعـة معقلنـة، بحيـث يصبـح الإنتـاج «بحسـب الطلـب» أمـرًا مسـتحيلًا، اللهـم إلا بالنسـبة إلـى حفنـة مـن أصحـاب الملاييـن. فمجـال الفرديـة يتجـه إذًا إلـى الانكمـاش، كمـا ينكمـش جلـد الشـاغرين[13]. ولا شـك فـي أن الحيـاة

---

(13) جلـد الشـاغرين (La Peau de chagrin) هـي روايـة فرنسـية كتبهـا عـام 1831 الروائـي والكاتـب المسـرحي أونوريـه دو بلـزاك (Honoré de Balzac) (1799-1850) والروايـة تـدور أحداثهـا فـي باريـس القـرن التاسـع عشـر وبطلهـا رجـل يعثـر علـى قطعـة سـحرية مـن جلـد أليـة (أو عجـز أو ردف) بغـل أو حمـار (تسـمى

الرغدة المتوسطة تنتشر، ولكن الإنسان، وفي صور شتى مختلفة، يصبح مجرد رقم بين مجموعة أرقام.

كيف يمكن لتوازن المجتمعات الإنسانية أن يصمد أمام الهزات التي لم يكن لها سابقة من قبل؟ إن سرعة سير مجرى التغيرات الاجتماعية قد تؤدي إلى كوارث، لأن التقنية الصناعية تتطور اليوم بسرعة أقوى من تطور العقول. فهناك اليوم تعايشًا بين أداتية القرن العشرين التي تنتشر في أرجاء العالم وبشرية ظلت سيكولوجيتها ما قبل صناعية. وبالتالي، فإننا سنجد أنفسنا نواجه ثغرة واسعة. ولسنا في حاجة إلى أن نبسط أخطار أن توضع في اتصال وتواصل، وعلى غير انتظار منها، بلاد أصابت حظًا من التقدم في الصناعة الميكانيكية، ومجتمعات حرفية قديمة لا تزال تعيش حصرًا على صناعاتها اليدوية. لقد تسللت الآلة الميكانيكية اليوم إلى كل مكان، فقد رأيت مصانع للنسيج على أحسن صورة من الإعداد كمصانعنا وسط جبال الأنديز في أميركا الجنوبية، وفي بعض المقاطعات الهندية التي ليس فيها بعد طريق معبد، ولا خط حديد. والواقع أن الانتقال كان سريعًا من الدابة إلى الطائرة. وقد أصبحت من المناظر غير المألوفة والتي تدعو إلى السخرية معًا منظر تلك القافلة التي تتكون من الجمال والتي يقابلها من طرف آخر قافلة من السيارات الكبرى وهي تعبر قلب الصحراء ومن فوقها الطائرات تغدو وتروح في سمائها، ومن تحتها خطوط أنابيب البترول تشق أرضها. وقد ترى في الجنوب الغربي من بلادنا تلك الأبقار البيض الجميلة الموثقة كل اثنتين معًا بواسطة حبل يشدها، تحافظ على هدوئها المتزن وكأن كل واحدة منها في تعايش سلمي مع الأخرى:

---

chagrin وهي كلمة مشتقة من التركية sağri أي ردف) تحقق له كل أمانيه ورغباته. والكلمة الفرنسية chagrin تعني أيضًا «الحزن». والمفارقة أن هذا الجلد السحري يأكل من حياة صاحبه كلما حقق له أمنية أو رغبة، فينشأ التناقض القاتل بين الإلحاح في تحقيق المزيد من الرغبات والخوف على حياة صاحبها. ومع أن الرواية تستخدم الخيال الفانتازي إلا أن بلزاك المعروف بواقعيته القاسية يرسم صورة عن مادية البورجوازية وجشعها وحبها للمال؛ والجلد السحري يمثل قوة الحياة لدى صاحبه التي تتأكل بعد كل أمنية أو رغبة تتحقق، خصوصًا حين يستخدمها للاستحواذ على القوة والسلطة متجاهلًا التحذيرات فيكتسب ثروة كبيرة ومجدًا ماديًا، لكن ليجد نفسه في النهاية عاجزًا مقعدًا بائسًا.

فهـل يسـتطيع البشـر أن يتمثلـوا بهـذه الأبقـار؟ إن الارتباطـات أو الاتصـالات بيـن المجتمعـات التـي لـم تصـل إلـى مسـتوى العصـر الحديـث تـؤدي فـي الحقيقـة إلـى بعـض الانفجـارات. وعلينـا بهـذه المناسـبة أن نتذكـر حالـة روسـيا قبـل عـام 1914 بمصانعها التي أدخلت عليها الآلات الميكانيكيـة، فـي حيـن أن اليـد العاملـة كانت مـن ريـف يعيـش بعقليـة القـرون الوسـطى. ولنتذكـر حالـة المكسـيك التـي هـي فـي صميمها هنديـة (نسـبة إلـى الهنـود الحمـر) والتـي لا تـزال تعيـش حيـاة حرفيـة خالصـة، وهـي القريبـة جـدًا مـن البلـد الأكثـر تقدمًـا صناعيًـا. لا توجـد أي بنيـة اجتماعيـة مهمـا بلغـت مـن القـوة والصلابـة تسـتطيع مقاومـة مثـل هـذه الاهتـزازات. إن جـرس الغطاسـين يقتـل مـن الأحيـاء لأمـر أقـل أهميـة مـن ذلـك.

هكـذا، فـإن انتصـار التقنيـة أمـر مذهـل: المهنـدس قـادر علـى حـل جميـع المشـكلات التـي تعـرض عليـه، لكـن رجـل الأعمـال والمشـتغل بالسياسـة وواضـع علـم الأخـلاق خصوصًـا يشـعرون أنهـم تائهـون أمـام مشـكلات جديـدة تنشـأ مـن التقـدم وبشـكل أسـرع حتـى ممـا يمكنهـم التعامـل معهـا. فـكل حـل لمشـكلة صناعيـة تقنيـة يخلـف وراءه مشـكلة اجتماعيـة أو أخلاقيـة... فـكأن الطبيعـة تثـأر لنفسـها بـأن تجعلنـا ندفـع مـن دون رحمـة ثمـن الفوائـد والمكتسـبات التـي حصلنـا عليهـا. ولهـذا فـإن هـذا الانتصـار علـى الطبيعـة والـذي تحدثنـا عنـه آنفًـا، ليـس بالتأكيـد انتصـارًا فعليًـا ونهائيًـا. إن الآلات مطيعـة، بيـد أنـه فـي اللحظـة التـي نلحـظ فيهـا الانتصـار التقنـي الأكثـر إبهـارًا، نجـد أن الحضـارة ترجـع إلـى الـوراء، إلـى طرائـق اقتصاديـة اتبعـت سـابقًا، وإلـى عـادات سياسـية قديمـة ليـس مـن المبالغـة فـي شـيء أن نصفهـا بالبربريـة.

(4)

لقـد غـدا المدلـول اللفظـي لكلمـة الثـورة غيـر محـدود المعانـي. صـار النـاس كافـة يسـتعملونها، بمناسـبة ومـن غيـر مناسـبة. بيـد أنـه فـي مقامنـا هـذا، نـرى أنهـا تعبّـر عـن مدلولهـا الصحيـح بـكل مـا تحمـل هـذه الكلمـة مـن معنـى لأننـا نعـي بأننـا نعيـش ثـورة: وليـس ثـورة سياسـية فحسـب، تسـتتبع تغيـرات فجائيـة فـي النظـم والأشـخاص، وليـس ثـورة اجتماعيـة فحسـب تنطـوي علـى تغييـر التـوازن القديـم فـي

الطبقـات، بـل إننـا نشـهد ثـورة إنسـانية اضطرتنـا إلـى مراجعـة كل القيـم وإلـى إعـادة النظـر فـي طرائـق تفكيرنـا فـي الحيـاة، وفـي الأسـس التـي قامـت عليهـا أخلاقنـا.

عندمـا نرجـع بذاكرتنـا إلـى سـنوات مـا قبـل عـام 1939، يبـدو لنـا أننـا نسـتعيد عصـرًا آخـر. ويبـدو عـام 1914 بعيـدًا جـدًا لدرجـة يشـق علينـا معهـا عقـد المقارنـات بينهمـا، وكأننـا أمـام مجتمـع لـم تعـد تسـتطيع معاييـره التمشـي مـع تفكيرنـا. وكأننـا مثـل هـؤلاء الذيـن خرجـوا مـن ملاجئهـم بعـد هـزة أرضيـة عنيفـة فوجـدوا أن بعـض معالـم البـلاد مـا زالـت كمـا كانـت، ولكـن البلـد لـم يعـد هـو نفسـه، ولـم يعـد بإمكانهم التصـرف كمـا لـو أن شـيئًا لـم يحـدث[14].

قـد يكـون مـن الجنـون أن ندعّـي الرجـوع إلـى الـوراء وأن نريـد بعـث مـا قـد مضـى، فانتصـارات الآلـة الميكانيكيـة قـد أصبحـت حاسـمة، ويجـب أن نهـيء أنفسـنا حتـى نتكيـف مـع الوسـط التقنـي الاقتصـادي والاجتماعـي والسياسـي الجديـد. وإن مواءمـة كهـذه تتضمـن مراجعـة لفلسـفتنا الأخلاقيـة التـي يجـب أن يحـدد فيهـا وضـع الفـرد بالنسـبة إلـى المجمـوع فـي شـروط تحافـظ علـى اسـتقلال العقـل والفكـر قـدر الإمـكان. هـذه هـي مشـكلة المشـكلات بالنسـبة إلـى الغـرب. وفضـلًا عـن ذلـك، فـإن علـى البلـدان المختلفـة التـي تعتبـر دعامـات الحضـارة الأوروبيـة أن تواجـه هـذه المشـكلة بإمكانـات تختلـف بحسـب اختـلاف سـيكولوجيتها التقليديـة. فبعـض هـذه البلاد تواجـه المشـكلة برغبـة صادقـة وبـروح سـمحة مـن دون النظـر إلـى الـوراء، وبعضهـا الآخـر تواجههـا بشـيء مـن الحنيـن إلـى مـاضٍ لا يبـدو لهـا أنـه أفلـس وانتهـى. وبعـض ثالـث قاعدتـه التحتيـة ليسـت فـي أسـاس طبيعـة الغـرب وماهيتـه، يضيـف إلـى خدمـة التقنيـة الصناعيـة عاطفـة قويـة، بـل بربريـة نوعًـا مـا، بطريقـة توحـي بالشـك فـي أنهـم يعملـون حقًـا مـن أجـل الحضـارة.

ولعلنـا بعـد الدراسـة المتقصيـة لعـدد مـن هـذه السـيكولوجيات سـنكون قادريـن علـى أن نتبيـن ماهيـة الغـرب بشـكل أكثـر وضوحًـا.

---

(14) المثل القرآني هو أهل الكهف.

الفصل الثاني
الواقعية اللاتينية

(1)

تسـري فـي أوروبـا روح لاتينيـة مـن دونهـا تفقـد حضارتنـا توازنهـا. فالواقعيـة الفكريـة لهـذه الـروح تعطـي الثقـل المضـاد للديناميـة الأنكلوسكسـونية فـي الحـدود التـي تبتعـد فيهـا هـذه الديناميـة عـن التـراث الكلاسـيكي. وفـي حـال انفصـل الغـرب الأقصـى للعالـم الجديـد عـن هـذه الجـذور، فإنـه سـيظل غربيًـا مـن دون شـك، ولكنـه لـن يسـتطيع مـع الوقـت أن يوجـه مصيـره إلا بطرائـق مختلفـة عـن طرائـق الغـرب. فمـا هـي حقيقـة هـذه الـروح اللاتينيـة؟

نحـن نتحـدث كثيـرًا عـن الأعـراق اللاتينيـة، لكـن إذا اسـتعملنا الاصطـلاح بمعنـاه الحقيقـي، يجـب أن نعتـرف بـأن اللاتينييـن لا يمثلـون عرقًـا. هنـاك لغـات لاتينيـة هـي أداة لتعبيـر معيّـن عـن الفكـر، تطابـق مـن دون جـدال حضـارة كان مهدهـا البحـر المتوسـط. مـن وجهـة النظـر هـذه، فـإن اللاتينيـة هـي حقيقـة واقعـة.

سـاعد عـدد لا بـأس بـه مـن الأعـراق علـى تكويـن النـوع البشـري الخـاص بالبحـر المتوسـط. وأقـدم هـذه الأعـراق وأشـملها تمثيـلًا أيضًـا لهـذا النـوع البشـري هـو العـرق الأيبيـري أي سـكان إسـبانيا والبرتغـال، وهـو عـرق أبيـض مسـتطيل الجمجمـة، ذو بنيـة عظميـة نحيفـة، قصيـر القامـة، أسـمر البشـرة. ويتميـز هـذا العـرق مـن أعـراق تختلـف عنـه جغرافيًـا كعـرق النيغـرو الـذي يتميـز باسـتطالة الجمجمـة وبأنـه أسـود (كمـا قـد يقـول السـيد لاباليـس)، أو العـرق الـذي يسـكن جبـال الألـب،

أو عـرق الكلـت الذيـن مـن سـماتهم اسـتدارة الجمجمـة، أو الاسـكندنافيين والشـماليين الذيـن يمتـازون هـم أيضًـا باسـتطالة الجمجمـة وإن كانـوا شـقرًا وبشـرتهم فاتحـة اللـون.

موطـن هـذا العـرق الأيبيـري هـو الحـزام الغربـي لحـوض البحـر المتوسـط: البربـر والإيطاليـن والإسـبان وفرنسـيي الجنـوب، حيـث إن هـذه الأعـراق ترتبـط جمعـاء بربـاط الوحـدة الأوروبيـة الأفريقيـة، مـا يجعلنـا نسـتذكر بهـذه المناسـبة الإمبراطوريـة الرومانيـة التـي نشـأت علـى محـور بحـر mare nostrum[1]. لكـن الأيبيرييـن لـم يكونـوا وحدهـم مـن سـكان البحـر المتوسـط، بدليـل تلـك الغـزوات المتلاحقـة وحـوادث التسـلل التـي جلبـت معهـا أعراقًـا غيـر متجانسـة. فالشـماليون الذيـن يغريهـم غالبًـا سـحر الجنـوب وشمسـه، كثيـرًا مـا غـزوا اليونـان وإيطاليـا وبـلاد الغـال وإسـبانيا ووصلـوا حتـى إلـى الشـواطئ الشـمالية مـن قـارة أفريقيـا. وهـؤلاء الشـماليون كانـوا يذوبـون فـي شـعوب تلـك المناطـق، ولكـن وجودهـم بقـي مـع ذلـك قائمًـا. ونحـن نعـرف جيـدًا نظريـة العنصرييـن الذيـن يقولـون: إنَّ كل شـيء طيـب فـي البحـر المتوسـط قـد أتـى مـن الشـمال. وحيثمـا وجدنـا فـي حـوض البحـر المتوسـط ذلـك الشـعور بالقيـادة والترتيـب والنظـام الـذي نلمسـه بيـن سـكان هـذه المنطقـة فهـو فـي مجملـه مـن خصـال أهـل الشـمال؛ لا بـل إن السـيد المسـيح نفسـه، ذلـك الجليلـي، قـد يكـون مـن فصيلـة العـرق الأعلـى لمسـتطيلي الجمجمـة... هـذه النظريـة هـي مدعـاة للسـخرية، ولكنهـا مـع هـذا تحتـوي شـيئًا مـن الحقيقـة، إذ لا شـك فـي أن سـيطرة ثقافـة المغلـوب[2] (Graecia capta) لـم تكـن فـي اتجـاه واحـد.

إن العـرب، أولئـك السـاميين البيـض، لـم يقومـوا بـأي تأثيـر ضاغـط، مـن الناحيـة الإثنيـة: فقـد شـعر النـاس بعملهـم ونشـاطهم فـي طـول الجنـوب الغربـي وجنـوب

(1) «بحرنا» Mare Nostrum كلمة لاتينية، هي الاسم الروماني للبحر الأبيض المتوسط. في السنوات التي تلت توحيد إيطاليا 1861 استخدمت العبارة حين أحياها القوميون الطليان الذين آمنوا بأن إيطاليا هي وريثة الإمبراطورية الرومانية.

(2) كانت الثقافة الرومانية متأثرة بالإغريق، ما حدا بهوراس (أشهر شعراء روما المولود في القرن السابع قبل الميلاد) أن يقول قوله الشهير: Graecia capta ferum victorem cepit أي «إن اليونان الأسيرة أسرت غازيها الغليظ».

البحـر المتوسـط حيـث نشـروا حضـارة تحمـل بـلا شـك سـماتهم الخاصـة بهـم. فالعـرب الساميون هـم الذيـن طـوروا طرائـق الـري، وأدخلـوا فـي هـذه البقـاع مختلـف النباتـات الاسـتوائية مثـل القطـن والأرز وقصـب السـكر والموالـح، بحيـث جعلـوا حـوض البحـر المتوسـط «جنوبـي الطابـع». وهـم كانـوا فـي الوقـت نفسـه يسـاعدون علـى انهيـار الوحـدة القديمـة للحضـارة المتوسـطية كمـا عرفهـا العالـم الرومانـي. وقـد كان مـن جـراء ذلـك أن حـوض البحـر المتوسـط لـم يعـد مسـيحيًا خالصًـا.

يجـدر أخيـرًا أن نذكـر الأتـراك، هـؤلاء المغولييـن. فهـم لا يعـدون بحـق مـن سـكان حـوض البحـر المتوسـط لا مـن حيـث الأصـل ولا مـن حيـث الثقافـة، ولكنهـم وصلـوا إلـى شـواطئ بحـر سـيطروا عليـه سـيطرة شـبه تامـة مـع بقائهـم غربـاء عنـه أو كالغربـاء. «أهـل البـر» هـؤلاء عاشـوا حينًـا مـن الدهـر علـى هامـش حيـاة البحـر وبيئتـه، وكانـت حصيلتهـم فـي النواحـي السياسـية والعسـكرية عقيمـة، علـى عكـس العـرب.

وقـد جعـل الأتـراك منـذ تاريـخ اسـتيلائهم علـى القسـطنطينية عـام 1453، هـذا الممـر التاريخـي للمواصـلات القاريـة العالميـة حاجـزًا أقامـوه بأنفسـهم، إلـى أن تـم افتتـاح قنـاة السـويس فـي عـام 1869، فأصبـح هـذا الطريـق الـذي يقـع فـي حـوض البحـر المتوسـط الشـرقي والـذي تعاقـب عليـه أجيـال وأجيـال، مغلقًـا وعديـم الجـدوى عمليًـا. فأيـن نبحـث فـي هـذا الخضـم المتلاطـم عـن وحـدة لعـرق لاتينـي؟

علــى العكــس ممــا ســبق، تبــدو الحضــارة اللاتينيــة حقيقــة ناصعــة مؤكــدة. ذلــك أن التأثيــرات التــي ســاعدت علــى تكــون معالــم شــخصيتها أكثــر مــن أن يحصيهــا العــد: التأثيــر الرومانــي وبالأخــص الرومانــي الكاثوليكــي والتأثيــر الإغريقــي أيضًــا مــن طريــق رومــا، مــع إضافــة تأثيــر بعــض الشــعوب المتســللة مــن الشــرق مــن طريــق اليونــان ومــن طريــق العــرب. فالمنطقــة الجغرافيــة للغــة اللاتينيــة هــي أساسًــا منطقــة الإمبراطوريــة الرومانيــة القديمــة، ولكــن ليــس كلهــا علــى الإطــلاق: فقــد عــرف الحــوض الشــرقي للمتوســط، خصوصًــا فــي آســيا الصغــرى، الغــزو التركــي علــى نحــو واســع وكبيــر، كمــا عــرف الحــوض الأفريقــي الإســلام. وتســللت التأثيــرات التركيــة إلــى اليونــان، والتأثيــرات العربيــة إلــى إســبانيا. وبالمقابــل اتســع نطــاق اللتنتــة (latinité) لتصــل أميــركا المســماة لاتينيــة، الإســبانية منهــا والبرتغاليــة، حيــث صــارت

تتمتع بسبب ذلك بوحدة ثقافية لا جدال حولها. ولا شك في أن سريان عدوى خارجية إلى هذه المناطق الجديدة، يهدد وحدة التراث الأصلي للبلاد وتكامله: فالوجود الهندي كما الوجود الأسود، يهددان بإدخال مكونات مثيرة للقلق، لا علاقة لها بالمصدر المتوسطي الذي خرجت منه.

وللطابع اللاتيني سمات مميزة يُعرف بها، وحيثما حل، ولا يتعلق الأمر باللون السياسي وإنما بالثقافة. حيث ترتسم حول المجتمعات اللاتينية الخالصة مناطق تعاطف وروابط تآخي. وبإمكاننا أن نرسم بسهولة خريطة للبلاد التي تنتمي إلى هذه الأجواء، وسيدهشنا حقًا اتساع رقعة هذه المنطقة.

(2)

إن العوامل التي ساعدت على تكوين سيكولوجية الشعوب اللاتينية كثيرة جدًا: منها مناخ البحر المتوسط، والبنية الجغرافية للبيئة المتوسطية، والتراث العظيم لماض عميق جدًا، والتأثير الملموس مباشرة لحضارة روما. وقد لا تُفهم الحضارة الأوروبية جيدًا إلا من زاوية هذه الروح اللاتينية، إذ إننا لا نشعر أننا فعلًا في أوروبا إلا بسبب وجود هذه الروح. إن الحضارة الأميركية هي على الدوام حضارة غربية، تميل إلى التمايز عن العالم القديم بقدر ما يكف العنصر اللاتيني، في الأقل مباشرة، عن التأثير فيها.

ولمناخ البحر المتوسط مميزات خاصة تجعله يفترق عن المناخات القريبة منه: مناخ المحيط الأطلسي والمناخ القاري الأوروبي والمناخ الصحراوي، ويشكل بين هذه منطقة صراع وانتقال: فتارة يتغلب التأثير الصحراوي فيكون الصيف الأفريقي في الجنوب، جافًا وحارقًا من غير رفق أو شفقة؛ وطورًا يتغلب التأثير الأطلسي ذو الشتاء الرطب والممطر. ففردانية هذا الجو هي في حقيقتها إذًا فردانية تناقض وتنافر بين رياح هوجاء عاتية، وأمطار غزيرة كارثية، تجلب معها فيضانات ضخمة. وأحيانًا يكون جو هذه المنطقة صحراويًا بضيائه ونوره المتلألئ وأحيانًا أخرى يكون استوائيًا بتقلباته المختلفة أو قاريًا بموجات البرد القارس المباغتة. والانطباع الذي يتركه هو أنه في مجموعه مناخ أفريقي

أكثـر منـه أوروبـي. حيـن نهبـط مـن شـمال أوروبـا ونجـد أنفسـنا فـي حـوض البحـر المتوسـط، ليـس مـن المبالغـة فـي شـيء أن نقـول: إننـا تركنـا إلـى حـد مـا أوروبـا.

وينعكـس هـذا المنـاخ علـى مـزاج سـكان فرنسـا بشـكل واضـح، حيـث يكـون لـه تأثيـر كبيـر فـي أمزجتهـم خصوصًـا الريـاح العاتيـة التـي تـؤدي دورًا بـارزًا فـي حياتهـم عمومًـا، ويتأثـر السـلوك الفـردي لـكل منهـم بذلـك أيمـا تأثيـر. فهنـاك أساسًـا تنافـر بيـن ريحيـن: ريـاح بحريـة تنهـك القـوى، وريـاح شـمالية تثيـر الأعصـاب. ولا شـيء مـن هـذا يتوافـق مـع ريـح الغـرب القادمـة مـن أعمـاق المحيـط والحاملـة نسـمات مهدئـة. وقـد كتـب ميشـليه فـي وصـف هـذه النسـمات العنيفـة والمؤذيـة، مسـتذكرًا مدينـة ناربـون، مـع إضافـة شـيء مـن عاطفتـه الجياشـة الخاصـة: «هـواء جـاف يمـر فـوق هـذه السـهول ويثيـر الأعصـاب إلـى أقصـى حـد... وعلـى الرغـم مـن ريـح الشـمال (Cers) الغربيـة، فـإن الميسـترال[3] (Mistral) العنيـف والصحـي، والـذي نصـب لـه أغسـطس معبـدًا، والهـواء الحار الثقيـل المفسِـد القـادم مـن أفريقيـا، يلقيـان بثقلهما علـى هذه البـلاد؛ إن جروح السـيقان يصعـب مداواتهـا فـي ناربـون». كمـا كتـب ألفونـس دوديـه[4] (Alphonse Daudet) يصـف يـوم هبـوب الميسـترال فـي ريـف مدينـة نيـم (Nîmes) الفرنسـية: «حـر لا تقـف فـي وجهـه عقبـات، يكنـس مـن أمامه السـهل الشاسـع المتموّج، حيـث بعض العـزب والبيـوت الريفية الضائعـة هنـا وهنـاك تبـدو وكأنهـا تناثـر قريـة بفعـل العاصفـة. كان يمـر مـرور الدخـان فـي السـماء، فـي رذاذات سـريعة فـوق سـنابل القمـح العاليـة، فـوق حقـول الزيتـون التـي كان يداعـب أوراقهـا الفضيـة، وبارتـدادات كبيـرة كانـت ترفـع بموجـات شـقر غبـارًا يقرقـع تحـت العجـلات. كان يخفـض صفـوف السـرو المرصوصـة وقصـب إسـبانيا بأوراقـه

(3) الريح الشمالية العنيفة الباردة الجافة التي تهب على شواطئ المتوسط الفرنسية.

(4) ألفونس دوديه (1840-1897) (Alphonse Daudet)، روائي فرنسي ولد في نيم لعائلة بورجوازية ومارس التعليم لفترة قبل أن ينسحب ليمارس الصحافة في باريس. في عام 1866 صدرت روايته الشهيرة ذكريات من طاحونتي (Lettres de mon moulin). كما اشتهرت روايته الهزلية تارتاران دو تاراسكون (Tartarin de Tarascon) (1872). كان دوديه ملكيًا ومن أشد معارضي الثورة الفرنسية.كما كان معاديًا لليهود بقوة. كتب شقيقه الروائي إرنست سيرته في كتابه شقيقي وأنا (Mon frère et moi) كما أن ابنيه ليون ولوسيان كانا أيضًا من الكتاب المشهورين.

الطويلـة النديـة والتـي تعطـي انطباعًـا بأنهـا جـدول مـاء غـض علـى حافـة الطريـق. وحيـن كان يصمـت لبرهـة كمـا لـو أنـه انقطـع نفَسـه، كنـا نشـعر بثقـل الصيـف، حـر أفريقـي يصعـد مـن جـوف الأرض وسـرعان مـا تبـدده الزوبعـة الصحيـة والمحيـة التـي تنشـر جذلهـا إلـى أبعـد أفـق، صـوب تلـك التـلال الصغيـرة الرماديـة الباهتـة التـي تقبـع خلـف كل منظـر ريفـي بروفانسـي (مـن مقاطعـة بروفانـس الفرنسـية)، والتـي يلونهـا غـروب الشـمس بألـوان قـوس قـزح فاتنـة»[5].

لا يوجـد مـكان آخـر فـي العالـم يمكـن أن نتكلـم فيـه علـى الريـح والمنـاخ أكثـر مـن نيـم وناربـون وكاركاسـون.

إن مـزاج قاطـن البحـر المتوسـط وبالتالـي مـزاج الرجـل اللاتينـي يتأثـر مباشـرة بهـذا المنـاخ لا مـن جهـة الريـاح المتقلبـة فحسـب، بـل مـن هـذا الضيـاء السـاطع مـن شـمس جنوبيـة والـذي لا تحجبـه الكآبـة الثقيلـة للمنطقـة الاسـتوائية. إن جـول تيلييـه[6] (Jules Tellier) الشـاعر الهافـري (نسـبة إلـى مينـاء الهافـر فـي فرنسـا) قـد أعطانـا صـورة فلسـفية رائعـة عـن شـروق شـمس الجنـوب فـي صفحـة كاملـة تصـف بدقـة واسـتقصاء كل مـا هـو الجنـوب: «مـا إن يضـيء الشـرق حتى يبـزغ الفجـر ويعقبـه الضحى، ثـم يأتي النهـار، لا شـيء أسـرع من هذا ولا شـيء أكثـر إغناء لغسـق الشـمال من هذا الشـفق. ولا ينتابنـا ولـو للحظـة أي إحسـاس أو شـعور بحصول أي صـراع أو معركـة مشـبوهة، تخوضها مقاومـة مـا غامضـة مـن أشـياء الظـلام. فـكل شـيء جـرى بطريقـة سـهلة وواضحـة. لقـد انبلـج الصبـح. هـذا كل شـيء. دخـل مـن دون اسـتئذان وكأنـه فـي بيتـه. ويبـدو أن الليـل نفسـه لا يطـول كثيـرًا، إذ لا يعتبـر أنـه فـي بيتـه، فيخـرج مـن هنـا كمـا دخـل مـن دون جلبـة. وعنـد ظهـور خيـوط الفجـر البيـض الأكثـر غموضًـا، يبـدو الضـوء ضـرورة «قدريـة» للنـاس. وهنـاك شـيء ينقـص، ويجـب أن يكـون ناقصًـا بالفعـل، شـيء مضطـرب وعميـق،

---

(5) Alphonse Daudet, Numa Roumestan (Paris: G. Charpentier, 1881).

(6) جول تيلييه (1863-1889) (Jules Tellier) كاتب وصحافي فرنسي ولد في مدينة الهافر. دخل الجامعة عام 1882 وصار أستاذًا في شيربورغ وقسطنطينة الجزائرية (1885-1887) ثم عاد إلى باريس ليتعاون مع الحزب الوطني. توفي بحمى التيفوئيد في مستشفى تولوز بعد عودته من رحلة في الجزائر وإسبانيا وكان عمره 26 سنة.

فـي شـعر سـكان الجنـوب الذيـن يولـد النهـار عندهـم بهـذه الطريقـة»[7]. فأشـعارهم تختلـف عـن أشـعار أهـل الشـمال، ذلـك أن شـعرهم متحفـظ، فيـه مـن الاسـتعارات والالتفافـات الواضحـة الشـبيهة بالمنمنمـات، وهـو شـعر كلاسـيكي يختلـف عـن الشـعر الرومنطيقـي لأهـل الشـمال. لكـن مـن الصحيـح القـول إن الريـاح المتقلبـة والضـوء الأخـاذ لهمـا تأثيـر أكيـد فـي مـزاج سـكان الجنـوب. وكمـا ذكرنـا، فـإن الليـل لا يطـول في هـذه الأقطـار، وبالتالـي فـإن النـوم لا يباغـت هـؤلاء النـاس، لذلـك فـإن وثبـات الطاقـة والنشـاط عندهـم غيـر ثابتـة.

إن جغرافيــة هــذا المتوســط الــذي تكونــت فيــه الــروح اللاتينيــة، تحمــل النــاس عامــة علــى الفرديــة وتتحــدد الــروح الاجتماعيــة فيــه بالقبيلــة أو العشــيرة. ونقصــد بهــذه الجغرافيــة جغرافيــة الأراضــي المقســمة بحســب حدودهــا الطبيعيــة: فهــي عبــارة عــن ســهول منعزلــة عــن بعضهــا بعضًــا، ومحــدودة بســرعة، ومحاطــة بالجبــال القريبــة دائمًــا منهــا. وهــي جغرافيــة الســواحل المتشــابكة التــي تســاعد علــى إقامــة المواصــلات البحريــة المولّــدة للتجــارة المحليــة مــع قدرتهــا علــى أن تمتــد فــي ظــروف خاصــة إلــى البعيــد. وهــي جغرافيــة القراصنــة التــي تســتلزم للدفــاع عــن المنشــآت القديمــة المســتقرة، بنــاء مــدن صغيــرة محصّنــة. وهــي جغرافيــة الجفــاف والفيضانــات الغزيــرة التــي تجعــل مــن إيجــاد سياســة لــري الأراضــي أمــرًا ضروريًــا، مــع مــا يســتلزمه ذلــك، وعلــى الرغــم مــن كل شــيء، مــن أشــكال التعــاون ولــو فــي أصغــر صــورة. مــن هــذه الملامــح الأصليــة لجغرافيــة هــذه المنطقــة، نجــد أننــا نشــعر دومًــا بوجــود هــذه الحضــارة اللاتينيــة علــى الرغــم مــن بعــد الشــقة التــي تفصــل بينهــا وبيــن حضنهــا. وقــد كتــب لــي ذات يــوم فرنانــد موريــت[8] (Fernand Maurette)، ذلــك الجغرافــي العظيــم الــذي قضــى نحبــه وهــو فــي ريعــان الشــباب، رســالة خاصــة

(7) Jules Tellier, Reliques, Hérissey, Évreux, 1890 (voir: De Toulouse à Girone). Maurice Barrès, Du Sang, de la volupté et de la mort (Paris: G. Charpentier et E. Fasquelle, 1894).

(8) فرناند موريت (1878-1937) جغرافي وعالم اجتماع واقتصاد فرنسي تخصص بدراسة جغرافية أفريقيا وصار خبيرًا جغرافيًا معترفًا به عالميًا. أقام فترة طويلة في جنيف للعمل في مجال «الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية»، ثم عيّنه مدير مكتب العمل الدولي (منظمة العمل الدولية لاحقًا) بجنيف مديرًا لقسم البحوث والإحصاء. وفي عام 1937 استدعته الحكومة الفرنسية ليكون عضوًا في المجلس الاقتصادي الوطني ويشارك في تحديث قوانين العمل التي أصدرتها حكومة الجبهة الشعبية اليسارية.

أعتـز بهـا وأحتفـظ بهـا حتـى اليـوم، فقـال لـي فـي مـا كتـب: «إن اقتصـاد بـلاد البحـر المتوسـط هـو عبـارة عـن بنيـان مقسـم الأجـزاء لإقليـم يصـل فيـه الجبـل حتـى البحـر الـذي يصنـع كثيـرًا مـن الأجـزاء المنفصلـة بقـدر مـا يوجـد مـن سـهول صغيـرة غارقـة في وسـطه. إنـه إقليـم تعتبـر فيـه سياسـة الميـاه ضروريـة وملحـة، طالمـا أن الأرض فـي حال تركـت لمصيرهـا، قـد تتحـول إلـى مسـتنقع إن لـم توضـع وسـائل تصريـف الميـاه منهـا موضـع التنفيـذ، وإلـى صحـراء إن لـم تـرو بالميـاه... إنهـا بـلاد أسـاس حيـاة الفـرد فيهـا البسـتان وليـس الحقـل... بـلاد تفـرض فيهـا تضاريـس الأرض علـى أهلهـا الصبـر والـدأب فـي الزراعـة المنزليـة... بـلاد يعتبـر البحـر فيهـا الطريـق السـهل المعبـد للتجـارة بـدلًا مـن أن يكـون عقبـة فـي سـبيل التبـادل التجـاري، وذلـك لكثـرة موانئـه وجـزره» (19 كانـون الثاني/ينايـر 1929). وهكـذا نـرى أن مجتمـع هـذه المنطقـة هـو مجتمـع تمفصـل ومحليـة وتنـوع، وهـذا يتعـارض مـع حضـارات التسلسـل والحشـد.

إن حضـارة البحـر الأبيـض المتوسـط هـي حضـارة متوغلـة فـي القـدم؛ فمنـذ العصر الحجـري كانـت هنـاك شـعوب سـكنت المنطقـة واكتملـت لهـا دواعـي التقـدم مقارنـة بمنطقـة أوروبـا الشـمالية التـي كان مـن أسـباب تأخـر سـكناها بقـاء الثلـوج فيهـا مـدة طويلـة. فعلـى ضفاف شـواطئ فرنسـا الجنوبيـة كما بقية الشـواطئ المتوسـطية، نجـد آثار حضـارة عمرهـا قـرون أكثـر ممـا علـى شـواطئ الشـمال. وتكشـف لنـا الكنائـس القديمـة مـن خـلال طبقـات هندسـاتها المتتاليـة، عـن تراصـف حضـارات يشـبه تراصـف الطبقـات الجيولوجيـة. إن كنيسـة بيزييه[9] (Bèziers)، وأطلال إنسـيرون[10] (Enserune)، وسـانت أمبرواز[11] (Saint-Ambroise)، تشـهد علـى هـذا التاريـخ والتـراث الحافليـن. ولا نملـك بعـد هـذا إلا أن نسـتنتج أن المتوسـطيين، أي اللاتينييـن، يملكـون طبيعيًـا الشـعور بالزمـن الـذي انقضـى، وهـم علـى اتصـال دائـم مـع أقـدم عصـور التاريـخ، ولـم تكـن رومـا ولا اليونـان ولا حتـى الشـرق، بالغريبـة عليهـم. هـؤلاء اللاتينيـون ليسـوا شـعوبًا شـابة حديثـة، بـل تامـة النضج،

(9) مدينة جنوب فرنسا.

(10) موقع أركيولوجي فيه بقايا قرية جنوب فرنسا تعود إلى العصور القديمة.

(11) المقصود الكاتدرائية على اسم القديس أمبرواز في ميلانو.

وبالطبع هرمة في بعض ملامحها. وبكل تأكيد فإنهم ليسوا شعبًا طائشًا كالشعب الإنكليزي مثلًا. وسيكولوجية الشعوب اللاتينية التي هي سيكولوجية البالغ سن الرشد، تفسرها مسألة العمر هذه، فهم مشككون، لا يأخذون الكلام على علاته، وليسوا شعبًا ساذجًا على العموم. إن صفاء قريحتهم ووضوح تفكيرهم ليخوّلهم من دون جهد أن يفرقوا بين المبادئ وطرائق تطبيقها. هذه الطريقة في التمييز والغربلة تحميهم من النفاق الأخلاقي، ناهيك بالواقعية الكلبية[12]. وهم لا يعتقدون، كما اعتقد روسو وتلاميذه، بأن الإنسان خيّر بطبعه، ولا يثقون به، وعلى الرغم من أن للكلمة عند أهل الجنوب سحرًا وبريقًا، فإنهم لا يسرفون في كلام لا طائل تحته كما يظن بعضهم؛ ويتفوق الذكاء لديهم على العمل، إنه ذكاء يعبّر عن نفسه، ويخرج إلى العلن في سهولة عجيبة.

وقد طبعتهم روما بطابعها الخاص... فاللاتينيون مدينون لها من حيث التكوين الاجتماعي الذي يقوم على الأسرة والقبيلة، والموالي التابعين للعشيرة؛ وهي تشكيلات أكثر قوة ومتانة ودوامًا من الدولة ذاتها. وهم مدينون لروما كذلك بمفهوم معين للقانون، وهو قانون مكتوب له زوايا بارزة كالقطاع الجانبي من جبالهم المتعرية. وهذا القانون يقوم على التحرز والواقعية المجردة من دون ادعاء من ناحية الأوهام المتعلقة بالطبيعة الإنسانية: وهنا نلمس الفارق البيّن بين القانونين الإنكليزي واللاتيني. فالثقة هي جوهر القانون الإنكليزي، وهو يعبّر

(12) الكلبية (cynisme) موقف تجاه الحياة ينبع من مدرسة فلسفية أسسها أنتيستن (Antisthène) (444-365 ق.م) في اليونان القديمة، وكان أحد أتباع سقراط، ومن بعده حمل أبرز تلاميذه ديوجين (Diogène de Sinope) (413-327 ق.م) المذهب وجعله مدرسة هدفها المعلن رفض القيم والمعايير الدينية والأخلاقية والقيود الاجتماعية، وتعليم الكبار والعظماء في اليونان القديمة اللامبالاة والتواضع. فكانوا لاماديين ولامتثاليين واقترحوا ممارسة أخرى للفلسفة وللحياة بشكل أعم تقوم على الحكمة والحرية ومجاراة الطبيعة وعدم مجاراة الأعراف السائدة، وعلى الفرح والابتهاج ورفض التقاليد ورفض اللباقة، بل الوقاحة في القول والعمل. وتشير بعض المراجع إلى أن الاسم كلبي نسبة إلى سينوساركس، وهو اسم لمبنى في أثينا، التقى فيه الكلبيون لأول مرة. وتشير المراجع الأخرى إلى أن الاسم مستمدٌ من الكلمة اليونانية التي تعني كلب. وأنها إشارة إلى السلوك الفظ الذي يتصف به الكلبيون ونباحهم في وجه المجتمع الفاسد ليتخلى عن حماقاته. وفي الحديث العادي لدى الغربيين، يوصف الشخص الذي يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير في الطبيعة البشرية بأنه كلبي.

بذلك عن مفهوم الإنصاف والعدالة، حيث نكتب أقل ما يمكن. وأساس كل شيء في القانون اللاتيني هو الملكية التي عرّفت تعريفًا اتصف بالدقة المتناهية، على عقد محرر لا يترك شاردة ولا واردة. وقد عبّر عن ذلك الكاتب السياسي الفرنسي فالديك روسو[13] (Waldech-Rousseau) حيث قال: «نحن أيها السادة، أمة قديمة لها تاريخ طويل، ونتمسك بالماضي بأعمق الجذور، هذه الجذور نفسها التي قد يعتقد بعضهم أنه طالها الذبول والجفاف، فإنها على الرغم من ذلك لا تزال تحتفظ بحساسية معينة لدرجة أن أي جرح لها يوقظها، وينقل ذلك إلى الجسم كله. نحن أمة تسود فيها الشرعية وحكم القانون. نحن شعب لاتيني. نحن من هذا العرق الذي بدا له أن القانون المكتوب ضرورة من ضرورات حياته، لا يجنح إلى التعميم في ما يعرض له من أمور، بل يميل إلى القسط والحرص على حقوقه». (من خطاب ألقي في مجلس الشيوخ الفرنسي في 27 من تموز/يوليو عام 1903).

هذا الكلام هو في أصل مفهوم خاص للدولة، وللسلطة السياسية على وجه العموم. فعند اللاتينيين تعتبر سلطة الدولة خارج الفرد وأعلى منه، أو كأنها سلطة مفارقة، إذ يمكن الاستيلاء عليها كما نستولي على السلاح، وأن نستخدمها أداة للتسلط والسيطرة. وواجب الفرد حماية نفسه من هذه السلطة، لأن الدولة لا تبدو في نظر الفرد رحيمة به بالضرورة. فالتجربة الطويلة التي مرت بالإنسان في حياته جعلته يرتاب كثيرًا تجاه الدولة ذاتها، حتى إنه لا يدهش ولا يسخط إذا ما أسيء استخدام السلطة، إذا ما استعملها الحاكم لنفسه ولأصدقائه. ومن هنا كان سر العاطفة الحماسية التي يتسلح بها اللاتينيون في معاركهم السياسية.

(13) بيار فالديك روسو (1846-1904) (Pierre Marie René Ernest Waldeck-Rousseau)، سياسي فرنسي جمهوري، كان والده محاميًا في نانت ومن زعماء الحزب الجمهوري انتخب نائبًا في عهد الجمهورية الثالثة 1873 وصار وزيرًا للداخلية في عام 1881 ثم في عام 1884؛ وبعد فترة من ممارسة مهنة المحاماة في باريس 1886-1893 عاد إلى الحياة السياسية عام 1894 سيناتورًا في مجلس الشيوخ ثم مرشحًا لرئاسة الجمهورية 1895 ثم صار رئيسًا لحكومة ائتلاف وطني عام 1899 دعمها الاشتراكيون والراديكاليون واحتفظ فيها بمنصب وزير الداخلية ووزير الأديان. استقال عام 1902 بعد انتخابات برلمانية تأكد فيها من انتصار الجمهورية وثباتها.

ومـا أعظـم الفـرق بيـن هـذا والمفهـوم الأنكلوسكسـوني للدولـة، فتعتبـر الدولـة لـدى الأنكلوسكسـونيين تعبيـرًا عـن الجماعـة، والدولـة لديهـم أداة المواطـن وخادمتـه وهـو فوضّهـا سـلطاته. إن الكاثوليكيـة الرومانيـة لـم تكـن علـى سـبيل المثـال مدرسـة للتربيـة المدنيـة، كمـا كانـت الكنائـس البروتسـتانتية المشـيخية المنبثقـة عـن الكالفنيـة (مذهـب كنسـي نسـبة إلـى كالفـن[14] (Calvin)).

مـا يسـترعي نظرنـا ويثيـر انتباهنـا فـي كل هـذه المفاهيـم اللاتينيـة، هـو وضـوح حدودهـا. ويتميـز اللاتينـي بقـدرة مذهلـة علـى التحليـل، وعلـى التعميـم فـي الوقـت نفسـه كذلـك: ففـي كل مشـكلة يسـتخلص تـوًا المبـدأ المتضمـن فيهـا، مـع النتائـج المنطقيـة البعيـدة الاحتمـال للوجهـة التـي سـيختارها الإنسـان. وهـو يتميـز كذلـك بمناقشـة هـذه المبـادئ أكثـر مـن مناقشـة الحقائـق. وهـو يحـب السياسـة بالمطلـق، ولـو أدى بـه ذلـك إلـى اللجـوء فـي مـا يخـص المصالـح الماديـة (التـي لا تخلـو مـن أهميـة عنـده)، إلـى الانتهازيـة الرخيصـة وإلـى المهـارة الأكثـر إبداعًـا فـي التملـص مـن المـآزق.

ولا تنفصـل موهبـة التحليـل هـذه بحـال عـن مقـدرة جميلـة علـى التعبيـر. فاللغـات اللاتينيـة ذات التخطيـط الواضـح والتكويـن المنظـم، تسـاعد كثيـرًا وبروعـة فـي هـذا المجـال، فتبـدو وكأنهـا خلقـت كـي تنقـش علـى الحجـر. لكـن ذلـك هـو فـي الآن نفسـه نقطـة ضعفهـا. ذلـك أن المتعـة فـي اسـتخدامها يظللهـا سـحر غـادر. ومـن هـذه اللغـات مثـلًا الإسـبانية التـي تتميـز بجمـال الجـرس، لدرجـة تغـري المـرء بالتحـدث بهـا واسـتخدامها فـي أسـاليب التعبيـر، بحيـث لا يحـل محـل الفعـل

(14) جان كالفن (1509-1564) (Jean Calvin)، مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفني المنتشر في سويسرا وفرنسا وهو من القلائل من الفلاسفة الذين استطاعوا أن يطبقوا ما أنتجوه من نظريات. في الرابعة عشرة من عمره أرسله أبوه الذي كان يعمل محاميًا إلى جامعة باريس لدراسة القانون والعلوم الإنسانية، وفي عام 1532 كان قد تخرج ليعمل دكتورًا في القانون في مدينة أورليون الواقعة في الشطر الشمالي لفرنسا. كان أول أعماله المنشورة كتاب دي كلامنتيا للفيلسوف الروماني لوسيوس أنايوس سنيكا والملقب بسنيكا الأصغر مصحوبًا بتعليقاته الشخصية. كان من أشد أتباع المذهب اللوثري (نسبة إلى مارتن لوثر). أجبرته الظروف على مغادرة باريس والإقامة في ستراسبورغ ثم بال (سويسرا) قبل أن يستقر منذ سنة 1541 في جنيف. أراد أن يجعل من مدينة جنيف مدينة مثالية، فعمل على تطبيق النظام بطريقة صارمة. من أهم أعماله تأسيس الديانة المسيحية (1536)، ويتعرض فيه للمعتقدات المسيحية.

فحسب وإنما محل التفكير نفسه. فإذا تغنى رجل من أميركا الشمالية بأنشودة عن حرية المبادئ والأفكار، فإنه لن يشعر، إلا قليلًا، بالحاجة إلى أن يكون رجلًا حر المبادئ والأفكار، وإذا ما تغنى كذلك بأنشودة عن شرعية القانون، فإنه يشعر بأنه فقد القوة الدافعة للدفاع عن القانون وحمايته. إن الرجل الفرنسي أقل انذهالًا بالموسيقى، ولذلك فهو قلما يشد انتباهه هذه الحساسية. ومع ذلك، فإن بضعة أبيات جميلة، ولو كانت لا تعني شيئًا، من شعر فيكتور هوغو[15] (Victor Hugo)، تسمح لنا بأن نتخيّل مقدار الإغراءات التي تحويها.

(3)

في ضوء الملاحظات التي سبقت، نستطيع أن نحدد السمات الرئيسة لسيكولوجية الشعوب اللاتينية.

اللاتيني الفرد هو أساسًا إنسان واع يسعى قبل كل شيء إلى إثبات نفسه. وفي حين أن الأنكلوسكسوني الشديد التواضع على المستوى الفردي، والشديد الاعتزاز ببلاده إلى حد عدواني، يتعاون مع غيره بإخلاص، بالنظر إلى كونه مدنيًا بالتقليد المتوارث كما بالغريزة الفطرية، فإن اللاتيني ينظر إلى الأمور من خلال شخصه. فهو عمومًا يتميز بالكبرياء والأنفة والزهو وحب الظهور، وقد يضحي في سبيل نجاحه الشخصي بنجاح الجماعة. وتجده يسارع إلى بذل الجهد والتضحية من أجل تسجيل نقطة في سجل شرفه الشخصي وليس في سبيل الواجب العام. ولا شك في أن كلًا من العرقين اللاتيني والأنكلوسكسوني أناني على طريقته الخاصة، لكن الأنكلوسكسوني هو بالحق صوفي صاحب تفكير عملي. أما اللاتيني فهو شكاك، ولكنه يملك - على كل حال - أكثر من الأنكلوسكسوني الإحساس بالواقعية. إن العمل في صورته الحديثة التي

(15) فيكتور هوغو (1802-1885) (Victor Hugo) شاعر ومسرحي وروائي فرنسي رومنطيقي يعتبر من أهم الكتاب باللغة الفرنسية كما أنه كان شخصية سياسية ومثقفًا ملتزمًا أدى دورًا أساسيًا في تاريخ القرن التاسع عشر. كتب الشعر الملحمي والشعر الملتزم (ضد نابليون الثالث) كما كتب الرواية الشعبية التي حصدت المجد (البؤساء، أحدب نوتردام... إلخ). يعتبر من كبار المساهمين في تجديد الشعر والمسرح في فرنسا.

هــي التنظيــم، أكثــر اتفاقًــا مــع إمكانــات الأنكلوسكســوني. ومــع ذلــك ففــي بعــض الظـروف التـي لـم يعـد للنظـام شـأن فيهـا، خصوصًـا فـي الأزمـات، نجـد اللاتينـي يعـرف جيـدًا كيـف ينجـو بنفسـه؛ فهـو قـوي الأعصـاب وقليـل العاطفيـة إلـى حـد مـا، فهـذا المخلـوق الذكـي يكشـف عـن أنـه يجيـد التخلـص مـن المـآزق والأزمـات. ويجـب ألا تخدعنـا بلاغتـه وغـزارة تعبيراتـه الكلاميـة، وهـي بـلا شـك لا تخدعـه هـو إلا فـي الحـدود التـي يحلـو لنفسـه فيهـا أن ينخـدع.

ويجـب أن نقـرر أن هـذه الخصـال التـي يتصـف بهـا الفـرد، لا تخـدم المجمـوع بحـال. وفـي الحقيقـة، فـإن اللاتينـي لا يرتقـي أبـدًا إلا إلـى الأشـكال البدائيـة والمحـدودة مـن التجمـع، ولكنـه حينـذاك ينخـرط فيهـا بـكل حماسـة ووفـاء المناصـر العنيـد: فهـو لا يتجـاوز المدينـة باختيـاره، بـل هـو يفضـل دائمًـا حيـاة العشـيرة. وتبـدو العائلـة لـه ببسـاطة، بحسـب التعبيـر الدقيـق لهنـري باربـوس[16] (Henri Barbusse)، وكأنهـا «مؤامـرة صغـرى». وأنـا فـي غايـة الدهشـة كـم أن هـذا الاصطـلاح (العائلـة) يثيـر آراء مختلفـة لـدى الأنكلوسكسـوني البروتسـتانتي، وعنـد اللاتينـي الكاثوليكـي. فعنـد سـكان البحـر المتوسـط، وفـي الحضـارات التـي نشـأت منهـم، فـإن تداعـي المعانـي التـي يولدهـا هـذا المصطلـح تـدور حـول معنـى الرهـط مـن النـاس المتضامنيـن فـي مـا بينهـم بربـاط مصالحهـم الناشـئة مـن الروابـط العائليـة. وينتابنـا جميعًـا الشـعور بوجـود شـيء مقـدس كمـا فـي كل مـا يمـس ذلـك العنصـر العميـق

(16) هنري باربوس (1873-1935) (Adrien Gustave Henri Barbusse) كاتب فرنسي من أسرة بروتستانتية، دخل نادي الكتاب في سن مبكرة بعد مشاركته في مسابقة شعرية نظمتها صحيفة باريسية ونشر أول ديوان شعري له عام 1895. مارس الصحافة وكتب النثر والرواية. وفي عام 1914 تطوع في مشاة الجيش على الرغم من المرض وشارك في الحرب في الخطوط الأمامية حتى 1916 وكتب روايته الشهيرة عن الحرب (النار (Le Feu)) والتي نالت جائزة غونكور 1916. وفي عام 1917 أسس وترأس أول جمعية لقدامى المحاربين لينضم عام 1923 إلى الحزب الشيوعي الفرنسي ويصبح من أصدقاء لينين وغوركي. أسس مجلة عالم (Monde) التي كتب فيها كبار الكتاب من العالم كله (توقفت 1935). كان من أشد المعجبين بالثورة الروسية وكتب عنها ولها كثيرًا، وحاول بلورة أدب بروليتاري، وهذه كانت موضة يسارية وشيوعية في تلك الأيام بتأثير من الجدانوفية الروسية في الأدب. أسس حركة للسلم شاركه فيها رومان رولان وألبير كامو. كتب سيرة حياة ستالين (1935) ومات في روسيا في السنة نفسها وسارت كل باريس في جنازته.

والغامض المسمى رابط الدم. ومن تداعي المعاني نفسه تشتق فكرة عفة المرأة التي يدافع عنها اللاتيني، اللاأخلاقي غالبًا، بغيرة الرجل الشرقي. إن العائلة والعشيرة والمدن والجمعيات والنقابات والزبائن، هي الحقيقة الواقعية لجميع الناس الذين شكلوا حياتهم في صورة هذا المجتمع. فالدولة التي نتصورها على أنها سلطة جليلة الشأن، ما زالت بعيدة جدًا. ويجب والحالة هذه أن نكون على علاقة طيبة مع أولئك الذين يستولون عليها، ويعرفون كيفية استخدامها. وفي هذه الظروف تصبح البراعة السياسية بمعنى المكيافيلية مشاعة بين الناس. لكن لن يكون هناك سوى القليل من المواطنة المدنية بمعنى «الخدمة العامة» على الطريقة الأميركية. فالضعف الملموس الذي لوحظ على المجتمعات اللاتينية هو أنها لم تنجح في إرساء قواعد لنظم سياسية قوية لها صفة البقاء. إنها تنتقل من الفوضى إلى الاستبداد من دون أن تجد ولو لمرات قليلة «الحالة الوسطى» التي بلغها - في غير مشقة - السويسريون والإنكليز والهولنديون، وهم الذين ليس لهم من اللاتينية شيء.

إن المحددات نفسها المترافقة مع المواهب الفردية نفسها تتكرر بالنسبة إلى اللاتيني في ميدان الإنتاج؛ فهو شعب نابغ واسع الحيلة، سريع التخلص من المآزق (debrouillard)، بحسب التعبير الذي نحبه كثيرًا. وحين يحب عمله يكون قادرًا على التفاني فيه كما الفنان، والإخلاص الدائب له بحماسة عاطفية خلاقة؛ وقد تولد عزة نفسه المفعول نفسه، فهو ملح في أن يظهر للملأ، في أن يُثبت للناس، بأنه هنا، لا بل وكما نقول بالعامية «أينما ترميه تجده واقفًا»... ففي هذا الميدان، يعتبر اللاتيني متفوقًا بشكل ملحوظ على قرينه الأنكلوسكسوني، وعلى أهل الشمال. وهو تاجر، يتصف بالفطنة والمهارة والتبصر، وبالحذر والتوفير، ما يجعله يضرب بسهم وافر في المشروعات الصغيرة، مع احتفاظه بالقدرة على إنجاح المشروعات الكبرى. وأنت تجده أمامك في كل مكان يُحتاج فيه إلى المرونة والدبلوماسية، لا بل والدسيسة حتى. كما أنه يتمتع بقوة الحجة وصدق الإقناع، والقدرة على سوق البرهان على ما يحكم عليه من قضايا. وفي البلاد اللاتينية تقيم «إدارة الأعمال» للناس وزنًا كما تقيم للأشياء سواء بسواء. والمبدأ في ذلك هو «قبل أن تكسبه عميلًا، يجب أن تكسبه صديقًا أولًا». وقد يكون في

هـذا المبـدأ بعـض الجوانـب الإنسـانية التـي تخـل بنظـام الإدارة، لكنـه مبـدأ يعيـش ولا يمـوت، ويحيـا ولا يفنـى... يـدر الربـح ولا يجلـب الخسـران.

هـذه الصفـات نفسـها تتحـول إلـى مناسـبة لظهـور العيـوب فـي مجتمـع الإنتـاج الصناعـي الكبيـر: أي إنـه فـي عصـر صـار فيـه مـن الضـروري تحقيـق دقـة الإدارة وحسـن التنظيـم، تصبـح شـروط النجـاح متناقضـة فـي العمـق مـع المنـاخ الـلازم لتفتـح الفـرد. لقـد كان البحـر المتوسـط مركـز اقتصـاد العالـم. ولقـد ضـاع هـذا المركـز منـذ اكتشـاف المحيطـات والقـارات عبـر المحيطـات، وخصوصًـا منـذ الثـورة الصناعيـة الجديـدة التـي لـم تعـد قائمـة علـى العبقريـة الفرديـة للمنتـج، بـل علـى التنظيـم الميكانيكـي لعصـر فـي طريقـه إلـى أن يصبـح عصـرًا جماعيًـا. وهكـذا، فإننـا نـرى أن اللاتينييـن ينجحـون بوصفهـم أفـرادًا فـي المجتمعـات الأنكلوسكسـونية، وقـد ينجحـون أحيانًـا فـي هـذه المجتمعـات أكثـر مـن الأنكلوسكسـونيين أنفسـهم، بيـد أنهـم ليسـوا هـم مـن يجـدد اقتصاديـات العالـم؛ وإن كان يوجـد فـي فرديتهـم مـا يقـف حجـر عثـرة فـي طريـق الإنجـازات الضخمـة فـي عصرنـا هـذا. وإذا كان هنـاك مـن ثقـل خـاص بالأشـياء الجميلـة حقًـا، كمـا يقـول الكاتـب الفرنسـي موريـس بارّيـس[17] (Maurice Barrès) فـإن فـي هـذه المشـروعات العملاقـة المميـزة لعصرنـا، شـيء مـن الإغفـال والسـرية الجماعيـة المتناقضـة مـع الفرديـة اللاتينيـة.

هـل معنـى ذلـك، أن نسـقط مـن حسـابنا دور الفـرد فـي الإنتـاج؟ قـد يكـون ذلـك عندمـا نقصـد الحديـث عـن الكـم فـي الإنتـاج، لا الكيـف. فنحـن نحتـاج إلـى الفـرد حيـن نتصـدى للحديـث عـن الكيـف، ومهمـا تكـن الإنجـازات الثقافيـة للشـعب الأنكلوسكسـوني، شـعب الشـمال، فـإن أوروبـا، لـن تكـون أوروبـا مـن دون رصيـد

(17) أوغست موريس بارّيس (1862-1923) (Auguste-Maurice Barrès) روائي فرنسي وصحفي وسياسي أمضى وقتًا في إيطاليا وصار وجهًا من وجوه الأدب الفرنسي بعد مؤلفه عبادة الذات (1888) (The Cult of the Self). انتخب نائبًا عام 1888، وأدى دورًا سياسيًا مهمًا حتى وفاته. ارتبط اسمه الأدبي بتيار الرموزية (Symbolism) الفرنسي وهو المعادل لتيار الجمالية البريطاني (Aestheticism) وتيار الانحطاطية الإيطالي (Decadentism) (تسمية أعدائهم لهم). تميزت أعماله بتمجيد حب إنساني للذات كما كان له ارتباط غامض بحركة التصوف السحري. كان من أشد المعادين لقضية درايفوس وكان من الذين نشروا وعمموا مصطلح «الوطنية القومية» (Nationalisme) باعتبارها حمائية واشتراكية.

الثقافة اللاتينية. فاللاتينية هي التي تحافظ في القارة القديمة على تراث الأدب الكلاسيكي الذي يثبت أكثر من أي شيء آخر دعائم شخصية أوروبا، وهي أيضًا التي تعطيها ذلك النضوج الذي يميّزها عن حيوية الشباب الأميركية وعن تلك الحيوية الشابة المزيّفة في روسيا.

اللاتيني يبدو عليه بسهولة أنه متنقل غير أن دعائمه ترتكز على الحكمة والحذر في الحياة الخاصة، وهما لا يتوفران دائمًا لدى أهل الشمال. واللاتيني يبدو عليه أيضًا أنه لا يبالي إلا قليلًا بالأخلاق، ولكن غياب الوهم يمتد أثره إلى شخصيته بالذات، وفي الأقل إلى أعماق ضمير هذا الشامخ بأنفه. وقد لا أكون مجافيًا للصواب إن اعتقدت بأن نوعًا من الصراحة الفكرية تطبعه أكثر من أولئك المخادعين من أهل الشمال الذين ليس عندهم الشجاعة للنظر إلى أعماق نفوسهم. إذًا، فاللاتينية تعكس إحدى السمات الدائمة للروح الإنسانية.

(4)

هناك إذًا حضارة لاتينية ذات مناخ خاص باللاتينية، وقد يكون من العسير أن نحلل عناصر هذا المناخ، ولكننا نستطيع التعرف إليها من خلال أشياء لا يمكن تحديدها، ومن خلال حضور خاص بها، ومن خلال عطر غير محدد يفوح أريجه في فضائها، أو ضوء من طبيعة خاصة يشع منها. فإذا وصلنا إلى حدودها ونحن قادمون من الخارج لمسناها لأول وهلة من دون أن نتردد في التعرف إليها. فلو كنا قادمين من أوروبا الوسطى إلى أقاليم البحر المتوسط أو من أميركا المسماة شمالية صوب تلك المسماة عن حق اللاتينية، فإننا ننطبع بالانطباع نفسه، حيث نجد في كليهما أسلوبًا خاصًا من الحياة ولونًا خاصًا من الحكومة وطابعًا خاصًا من الأخلاق والدين والروح الفنية، ونجد فيها شكلًا من الحرية الفكرية التي يصعب تحديدها.

ولننظر إلى المنطقة التي رسمنا حدودها آنفًا، وسنرى أن اللاتينية أشبه ما تكون بحالة المد والجزر؛ فأحيانًا تنبسط مساحتها وأحيانًا أخرى تنحسر عن بعض الأراضي التي غزتها. فمنطقتها القصوى هي بالتقريب منطقة

الإمبراطوريـة الرومانيـة، وتشـمل فـي خـارج أوروبـا: أميـركا الإسـبانية والبرتغاليـة. ولكنهـا اليـوم أبعـد مـا تكـون مـن أن تشـمل هـذه الإمبراطوريـة. ذلـك أن المناطـق الشـمالية المتطرفـة مـن الإمبراطوريـة الرومانيـة، وهـي مناطـق لـم يكـن اللاتيـن قـد اسـتوطنوها بالكامـل، غزتهـا عناصـر جرمانيـة وسـلافية (صقالبـة) أو منغوليـة، وهـي عناصـر لـم تنعكـس عليهـا آثـار البحـر المتوسـط الحضاريـة. وقـد تمخضـت عـن ذلـك قـارة أوروبيـة لـم تعـد مراكـز ثقلهـا ومراكـز فاعليتهـا المعاصـرة نابعـة أساسًـا مـن التأثيـر اللاتينـي. فرومانيـا الأمـس، لـم تعـد كذلـك مـن حيـث العنصـر والحضـارة، إلا تجـاوزًا وتهذيبًـا. وفرنسـا التـي تنتسـب مـن ناحيـة العنصـر إلـى شـعوب الكلـت والجرمـان أكثـر مـن انتسـابها إلـى شـعب البحـر المتوسـط، ليسـت بالمعنـى الصحيـح لاتينيـة العنصـر إلا فـي جزئهـا الجنوبـي؛ ولـو أن المدرسـة الرسـمية الموحـدة ونظـام التعليـم الكلاسـيكي فـي فرنسـا قـد جعـلا منـا لاتينييـن فـي سـلوكنا وفـي طريقـة التفكيـر ووتيـرة الـروح. وقـد انطبعـت أميـركا الإسـبانية والبرتغاليـة بهـذا الطابـع، لدرجـة أن نفـوذ أميـركا الشـمالية لـم يفلـح حتـى الآن فـي طمـس معالمـه. لقـد ظهـر طمـس المعالـم بالأحـرى فـي الداخـل، حيـث الجـو يتـراوح بيـن جبـال الأنديـز والمنـاخ الاسـتوائي؛ هنـا ظهـرت خصائـص هنديـة أو زنجيـة تهـدد بتشـويه الأثـر اللاتينـي فـي هـذا الجـزء مـن العالـم.

وبالتالـي، فإننـا نـرى ارتسـام «سـفوح» أو أوجـه؛ فالوجـه اللاتينـي لأوروبـا هـو وجـه الإمبراطوريـة الرومانيـة التـي لا نسـتطيع أن نحددهـا تحديـدًا كافيًـا علـى الخريطـة عندمـا نتصـدى لمناقشـة مشـكلات القـارة القديمـة، والتفكيـر فـي حلـول لهـذه المشـكلات، لأن ردات الفعـل لـم تكـن هـي نفسـها فـي كل الأجـزاء التـي سـادها النظـام الرومانـي والقانـون الرومانـي والملكيـة الرومانيـة. ويجـب علينـا فـي هـذا المقـام أن نتأمـل خريطـة تقـدم المسـيحية لا فـي عهـد الإمبراطوريـة فحسـب، بـل فـي العهـد الكاثوليكـي الرومانـي أيضًـا. ففـي هذيـن العهديـن تغلغلـت الـروح اللاتينيـة، ورسـخت أقدامهـا فـي التـراث البربـري لهـذه القـارة. فليـس مـن شـك فـي أن هنـاك فرقًـا بيـن ذلـك البلـد الـذي بقـي مسـيحيًا ثمانيـة عشـر قرنًـا، وذلـك البلـد الآخـر الـذي لـم يعـرف المسـيحية إلا مـن خمسـة أو سـتة قـرون؛ وعلـى هـذا لا يعتبـر «السـفح» السـلافي - وإلـى حـد مـا السـفح الجرمانـي - إلا نصـف أوروبييـن.

فهناك عالم مختلف تمام الاختلاف متجه وجهة أخرى، وهو يبدأ من المنطقة الثلجية في شمال ألمانيا عند غابة توتوبرغ (Teutoburg Wald) التي فقد فيها القائد الروماني فاروس[18] (Varus) طوابير جنده. وتقدم لنا أميركا - مع الفرق - سفوحًا مشابهة: منها الأنكلوسكسوني، واللاتيني (أو الهندي). والوحدة الجغرافية للعالم الجديد لا تقوى على إخفاء تنوع الثقافة التي لا تزال قائمة بها، والتي لن تقوى القرون على محو آثارها.

وقد أتى وقت تنازع فيه أهل البحر المتوسط وأهل الشمال سلطان العالم. ويبدو أن المنافسة أشد اليوم بين الشرق والغرب منها بين الشمال والجنوب لأن الغرب قد اكتسب في نظرنا شخصية خاصة به، كانت مساهمة اللاتينية فيها عظيمة. نعم لم تكن أوروبا اللاتينية هي التي صنعت الثورة الصناعية، وقد حاولنا أن نستقصي تعليل ذلك، بيد أن هذا لا يحملنا - تبعًا لهذه الحقيقة - على عدم تقدير حجم الدور الجوهري الذي أدته أوروبا اللاتينية في تقدم الإنسانية. فالنظرة اللاتينية في فهمها للأمور وفي التصور الخاص للحياة، تشكل وجهًا لا يستغنى عنه في حضارتنا، فإننا نحقق بهذه النظرة أرقى ثقافة وأكثرها نزاهة، وفي صورة نوعية ودقيقة يغلب عليها الأدب أكثر مما يغلب عليها العلم. وسنرى في ما بعد الدينامية التي لا تقاوم لدى الأنكلوسكسون. أما عن اللاتين، فإن لهم نظامًا عجيبًا يفصل - بوعي - العمل عن الفكر ويتيح للفكر أن يقف أمام الواقع ذاته - ومن دون توسط من مناخ مكتنف - وذلك هو الضمان الأكيد للحرية الفكرية الكاملة. وإذا ما انتُزعت اللاتينية من العالم، فإنه يفقد بلا شك هذه المقدرة النفيسة.

---

(18) بوبليوس فاروس (46-9 ق.م) (Publius Quinctilius Varus) رجل سياسة وجنرال عسكري روماني هزم في معركة حاسمة في توتوبرغ دمرت فيها 3 فيالق رومانية.

الفصل الثالث
«البراعة» عند الشعب الفرنسي

(1)

لنبدأ أولًا بتحديد موقع فرنسا كي نبحث في وضعها الجغرافي عن حقيقة الظروف التي تفسر لنا ماهية الطبع الفرنسي. فلفرنسا ثلاثة سفوح أو أوجه، ونتيجة لهذه الوجوه الثلاثة، تعد فرنسا غربية وأوروبية ومتوسطية في آن. وينتج عن ذلك توازن خاص وفريد من نوعه.

من ناحية جبهتها الأطلسية تطل فرنسا على العالم الخارجي بنافذة مفتوحة على المحيط الواسع، وبذلك تتعرض للإغراءات الخارجة عن القارة، ولإغراء المغامرات البعيدة. هذه الـ «فرنسا» البحرية، الاستعمارية، التوسعية، تنتمي إلى المجموعة الليبرالية لدول الحضارات «الأنكلوأميركية» وهي في هذه الغربية تبدو حقًا «غريبة». فرياح الغرب الدائمة التي تهب على شواطئها تحمل إليها من المحيط شيئًا غير العذوبة الرطبة والنقية. وعلى العكس من ذلك، ونظرًا إلى أنها «قارية» نجدها ترتبط بأوروبا برباط الدم الذي لا ينفصل. وهي تختلف في هذا كل الاختلاف عن إنكلترا الجزيرية. غير أن كل الحزام الشرقي للبلد، أي ذلك الجزء الذي آل من طريق تقسيم شارلمان إلى لوثار[1] (Lothaire)، إنما هو من

(1) لوثار، بالألمانية Lothar وبالفرنسية Lothaire (795-855) هو إمبراطور الرومان (817-855) الذي حكم مع والده (الإمبراطور الكارولنجي لويس التقي) حتى عام 840 ثم أصبح ملك بافاريا وإيطاليا ووسط فرنسا. اختلف مع أشقائه وأدت صراعاتهم إلى زوال إمبراطورية الفرنج التي أسسها جدهم شارلمان وقاد ذلك إلى إرساء أسس تطور فرنسا وألمانيا الحديثتين.

أوروبا الوسطى في كثير من سماته الجغرافية والأخلاقية التي لا تغيب عن عين الناظر. وفي إطار هذه النظرة، لم نعد أطلسيين بل بريين، وأوروبيين خصوصًا. وكل التاريخ القديم والحديث يؤدي إلى هذه النتيجة: وهي أنه لا يوجد فرنسا من دون أن توجد أوروبا، ولا يمكن أن تكون أوروبا من دون فرنسا، ففرنسا جزء لا غنى عنه في أي نظام قاري.

ومن طريق جبهتها المتوسطية تتصل فرنسا اتصالًا مباشرًا بأفريقيا وآسيا والشرق الأقصى، أي في المكان: مع عالم خارجي عظيم، وفي الزمان: مع أمجد ماضٍ للإنسانية. ونحن نعرف الوحدة الأساسية لحوض البحر المتوسط، حيث تتشابه في كل مكان من مرسيليا إلى بيروت، ومن أزمير إلى برشلونة، وعلى ذلك فنحن على صلات وثيقة بمجتمعات لم تعد معاصرة لنا، وبأنماط من الثقافة تعدها أوروبا الشمالية غريبة عليها، ولكننا نرتبط بها بجاذبية خفية. وفي حين أننا نجد فلاحنا بعيدًا كل البعد من ذلك القائم بالزراعة الميكانيكية في العالم الجديد، فإننا نستطيع أن نعثر فيه على بعض التشابه مع «المزارع الصيني». فالأحواض والمساكب والمصاطب الزراعية في الريفييرا الفرنسية تعكس العمل الصبور لأجيال من الفلاحين: وهذه المدرجات الصناعية من الأراضي الزراعية تُذكّرنا بإنسانية خالدة لا تنال منها تقلبات الزمن.

وتأتي الخصيصة الوحيدة للسيكولوجية الفرنسية من هذا التنوع الذي صَهَرته القرون: فخلقت منه وحدة جديدة، ويقصد بهذا التنوع مجموعة متناقضة، تتجه في وقت معًا إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الماضي وإلى المستقبل، وإلى التقليد وإلى التقدم. فليس ثمة بلد أشد منه جرأة في آرائه وأكثر روتينية في عاداته. فأنت تجد دائمًا في فرنسا، ووفقًا لوجهة النظر، شيئًا يستحق النقد، ولكن فيها أيضًا دائمًا شيء يستحق الإعجاب.

وليس أيسر من ذلك أن نحدد جغرافيتنا العرقية. لا يوجد ما يسمى «بالعرق» الفرنسي، بحيث إن التعبير لا يعني شيئًا عند استخدامه. والواقع، أنه يوجد في الشمال جرمانيون، وفي الهضبة الوسطى وفي الغرب كلتيون (Celtes)، أو إذا

أردنـا أليـون (Albins)، وفـي الجنـوب متوسـطيون. فنحـن كمـا يقـول سـينيوبوس[2] (Siegnobos) مـن عـرق مختلـط، ولكننـا نعـرف جيـدًا أن الاصطفـاء الحـاد لا يطـوّر الـذكاء، وأن ليـس أي اختـلاط بيـن الأعـراق يعطـي نتائـج سيئة. ويبـدو أن الشـعب الفرنسـي قـد أثـرى بهـذا اللقـاح المتنـوع؛ فنحـن مدينـون للاتينييـن بصفـاء الذهـن وموهبـة التعبيـر، وللكلتييـن بروحنـا الفنيـة، وبفرديتنـا التـي تندفـع أحيانًـا فتصـل إلـى درجـة الفوضـى، وللجرمانييـن بمـا فينـا مـن عبقريـة تنظيميـة بنـاءة.

غيـر أن كل هـذه الصفـات المتباينـة، قـد انصهـرت فـي وحـدة واحـدة، وتحولـت جميعًـا إلـى صفـة عامـة واحـدة، لـم تتـح لشـعوب أخـرى كالشـعب الألمانـي مثـلًا. فالوحـدة الوطنيـة التـي توصلنـا إليهـا لـم تقـم علـى أسـاس العـرق، وقـد تكـون الأصـول الإثنيـة متميـزة بعضهـا مـن بعـض، ولكـن علـى نقيـض الشـعبين الإنكليـزي والألمانـي لـم يَسُـدْ عـرق علـى عـرق؛ فجميـع الفرنسـيين سـواء انتسـبوا إلـى الجـذع الجرمانـي أو الألبينـي أو المتوسـطي يعتبـرون أنفسـهم فرنسـيين علـى قـدم المسـاواة مـن دون فـارق ناتـج عـن العـرق أو الـدم الـذي يجـري فـي عروقهـم. ولكـن هـل أسـتطيع أن أقـول الشـيء نفسـه عـن الأنكلوسكسـوني البريطانـي بالنسـبة إلـى الكلتـي أو عـن الأميركـي الشـمالي بالنسـبة إلـى النيويوركـي الأسـمر، ناهيـك بذكـر احتقـار النـازي للسـلافيين بالأمـس؟ لقـد نتجـت الوحـدة الوطنيـة الفرنسـية فـي الأكثـر مـن التكيـف القديـم مـع الأرض والمنـاخ ومـن تقاليـد تاريخيـة، أحدثـت نوعًـا مـن نمـط العيـش أو مـن الثقافـة ودعمتـه. إنهـا وحـدة اجتماعيـة أكثـر منهـا سياسـية، بحيـث تتجلـى قـوة الأمـة فـي الأسـرة وفـي الفـرد خصوصًـا لا فـي الدولـة. والمواطنيـة المدنيـة فـي فرنسـا هـي دون العـادي، أمـا المـلاط (الأسـمنت) الاجتماعـي فلـه قـوة الصخـر.

ولمـا كان الفـرد فـي بلدنـا أسـاس الدولـة، فـلا يفوتنـا أن نذكـر أن أزمـة الفرديـة فـي فرنسـا التـي نشـهدها اليـوم، تبـدو فـي منتهـى الخطـورة. فتكويننـا - علـى عكـس كثيـر مـن البلـدان الأخـرى - قديـم ويعتبـر منجـزًا، فـي نـواح كثيـرة، منـذ أمـد طويـل.

---

(2) شارل سينيوبوس (1854-1942) (Charles Seignobos) مؤرخ فرنسي متخصص بالجمهورية الثالثة وعضو في عصبة حقوق الإنسان.

ففـي حيـن أن ألمانيـا لـم يتـم تكوينهـا إلا منـذ عـام 1870، وأميـركا منـذ حـرب الانفصـال، وروسـيا منـذ الثـورة البلشـفية (علـى افتـراض أن هنـاك نظمًـا نهائيـة)، فإنـه ينبغـي علينـا الاعتـراف بـأن الشـخصية الفرنسـية كانـت قـد اكتملـت منـذ القـرن الثامـن عشـر، ونحـن لا نشـعر بثقـة أن التطـورات التـي حدثـت فـي مـا بعـد قـد حسـنتنا. إن حضارتنـا بمقارنتهـا مـع الحضـارات الأخـرى لتعتبـر مـن دون شـك حضـارة فـي سـن البلـوغ.

إن الأزمـة التـي نعانيهـا - والحقيقـة أننـا علـى وعـي بهـا - قـد نتجـت، منـذ أن بلغنـا قبـل قرنيـن مرحلـة النضـج الفكـري، عـن حدثيـن عالميين لهمـا أهميـة ضخمـة: فقـد غيـرت الثـورة الميكانيكيـة وطرائـق الإنتـاج كل ظـروف الحيـاة الماديـة. هـذا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى قلـب تطـور العالـم خـارج أوروبـا، مقاييـس العظمـة ومعاييرهـا، وكذلـك التناسـب بيـن البـلاد، ونقـل مركـز الثقـل فـي العالـم. وروح النظـام الجديـد التـي تسـري فـي العالـم كلـه ناتجـة مـن مسـيرة الإنتـاج الضخـم الـذي أحـل الكـم محـل الكيـف، والعمـل الجماعـي الـذي حـل محـل العمـل الفـردي. فـكل الظـروف إذًا تسـير ضـد تقاليدنـا التـي هـي تقاليـد ريفيـة وحرفيـة وفرديـة جـدًا. ويجـب علينـا بالتالـي أن نكيـف أنفسـنا تبعًـا للظـروف المسـتحدثة، ونحـن نعـرف ضـرورة ذلـك، ولكننـا نعـرف أيضًـا أن خيـر صفاتنـا لا تخدمنـا فـي هـذا التكيـف دائمًـا فـي حيـن أن نقائصنـا تبـدو فيـه واضحـة جـدًا وسـاطعة تحـت الشـمس.

(2)

مـا إن نلاحظهـا حتـى تتكشـف الـروح الفرنسـية عـن اتجاهيـن متضاديـن: الأول نجـده فـي شـخصية سانشـو (Sancho) والثاني فـي شـخصية «دون كيشـوت» (Don Quichotte).

هنـاك أولًا ميـل عملـي، بـل مقتـرب جـدًا مـن أرض الواقـع، يظهـر خصوصًـا فـي مـزاج الفـلاح الفرنسـي وسـلوكه التقليـدي. ويرجـع الأصـل فـي هـذا المجـال أساسًـا إلـى الكلتييـن، علـى مـا أظـن، لأن الكلتـي سـواء فـي ذلـك الرحالـة أو الشـاعر أو الخيالـي، يرتبـط اتباطًـا شـديدًا بأسـرته وأرضـه وبـكل مـا يشـده إلـى بيئتـه، هـذا

هـو مـا يميزنـا أساسًـا مـن الأنكلوسكسـون والشـماليين. وهـذه الخصـال تنمـو أكثـر مـا يكـون وبقـوة شـديدة، فـي حياتنـا الخاصـة. أمـا فـي الحيـاة العامـة، فإنـك سـتجد أمامـك رجـلًا آخـر ذا خصـال أخـرى. ومـن هـذه الناحيـة نجـد أن الفرنسـي بوصفـه رب عائلـة وعضـوًا فـي هـذه الأسـرة أو فـردًا، يحـرص علـى المصلحـة الماديـة، فضـلًا عـن أنـه ذو عاطفـة قوية مشـبوبة تجـاه الملكيـة الفردية، بالمعنـى الرومانـي: uti et abuti، أي الاسـتخدام وسـوء الاسـتخدام فـي آن. وهـو فـي الأعمـال الخاصـة إنسـان حسـن التصـرف يتمتـع إلـى درجـة كبيـرة بـروح القصـد والاعتـدال، ويـكاد أن يؤخـذ عليـه عـدم التطلـع إلـى أعلـى والرضـا بالقليـل، فالمثـل يقـول لـه: «عصفـور فـي اليـد خيـر مـن اثنيـن علـى الشـجرة» وهـو يؤمـن بهـذا... وبالاختصـار نـرى الفرنسـي فـي حياتـه اليوميـة واقعيًـا، يقـف برجليـه علـى الأرض، ولا ينخـدع بالكلمـات. وأعمـال الفرنسـيين تـدار عـادة إدارة حسـنة، أو فـي الأقـل حيـن تدهمهـم الحـروب والكـوارث؛ نـرى أثـاث منازلهـم مصونًـا وملابسـهم فـي حالـة جيـدة لفـرط العنايـة بهـا، وهـم لا يحبـون الاسـتدانة، وميزانيتهـم دائمًـا فـي حالـة تـوازن، وإذا كان انخفـاض النقـد سيجعل هـذه الإدارة الحكيمـة مسـتحيلة، فإنهـم يحنـون إلـى الماضـي ويأسـون علـى الزمـن الـذي كانـوا يسـتطيعون فيـه - ولـو ببعـض التضحية - أن يرتبـوا معاشـهم وفقًـا لقواعـد الحكمـة الماليـة التـي ورثوهـا عـن آبائهـم. وهـذه الحكمـة وروح الادخـار اللتـان تدهشـان الأجنبـي قـد تتحـولان إلـى ضيـق فـي الأفـق وإقليميـة، بـل - إلـى حـد مـا - إلـى ماديـة. ففـي بلـد قديـم كبلدنـا، حيـث يصعـب كسـب المـال، أليـس مـن الطبيعـي أن يتمسـك الإنسـان بالمـال ويحميـه؟ والأميركـي أكثـر بـذلًا وكرمًـا مـن الفرنسـي؛ ولكنـه إذا فقـد ثروتـه فإنـه يؤمـن بإمـكان تعويضهـا فـي حياتـه، أمـا نحـن فـلا نحمـل هـذا الوهـم.

وليـس هـذا لعمـري سـوى وجـه مـن وجـوه طبعنـا، يناقضـه اتجـاه، ليـس أقـل وضوحًـا أيضًـا، نحـو الجماعيـة والمثاليـة والتجـرد مـن الغـرض. فالفرنسـي إذا مـا اطمـأن علـى مصالحـه ثـم حـدد بسـرعة مطامحـه تحـت هـذا السـقف، تـراه يحـرر عقلـه بنـوع مـن الفصـل بيـن الفعـل والفكـر. وعنـد ذاك يسـمو إلـى التجـرد الفكـري بعمليـة انفصـال لا أرى لهـا مثيـلًا لـدى أحـد سـوى الصينـي. فترانـا وقـد تخطينـا ضيـق أفـق القوميـة الطبقيـة أو العرقيـة لنسـمو إلـى فكـرة عـن الإنسـان، هـي إنسـانية بـكل معنـى

الكلمـة. وبهـذا كانـت قدرتنـا علـى الإشـعاع وقدرتنـا علـى تحريـر العقـول وفتـح النوافـذ، قـدرة لا تضاهـى. وهـذه الخصيصـة كمـا رأينـا قـد ورثناهـا عـن اللاتينييـن مـن طريـق الكلاسـيكية التـي هـي أسـاس كل تعليمنـا، والتـي تُوجِّهنـا نحوهـا دائمًـا غريزتنـا القوميـة الأشـد عمقًـا.

لنحـاول الآن أن نفهـم الفرنسـي بوصفـه فـردًا، وهـي أضمـن طريقـة للنفـاذ إلـى لـب الموضـوع. كل خيـر فـي فرنسـا وكل شـر فيهـا، كل عظمتهـا وكل ضعفهـا، تأتـي مـن مفهومهـا للفـرد: وإنـه لمفهـوم جليـل، ويحتمـل أن يكـون أيضًـا مفهومًـا مصابًـا بالمـرض.

المسـألة قبـل كل شـيء مسـألة المطالبـة بالاسـتقلال، وخصوصًـا الاسـتقلال الفكـري. فالفرنسـي يقـول إنـه يفكـر بنفسـه ويقضـي بنفسـه ولا ينحنـي أمـام أي سـلطان، وبالتالي فهـو أساسًـا غيـر امتثالـي، ومعـاد للدكتاتوريـة. وإذا حـدث أن اتبـع أمـرًا عـن تعصـب أو عـن طاعـة عميـاء مـن خـلال التضحيـة ببسـاطة بـكل تفكيـر نقـدي، فـإن ذلـك يرجـع إلـى الإيمـان المتعصـب بمبـدأ أو بنظـام أو بسياسـة، ولكـن ذلـك لا يكـون علـى شـاكلة الرجـل الألمانـي الـذي إذا اتبـع أمـرًا مـا، فإنـه يتبعـه بطبيعتـه الطيعـة. فـي أميـركا قـد تحصـل علـى كل شـيء مـن الفـرد باسـم «الفاعليـة»، أمـا فـي فرنسـا، فإنـك لا تحصـل من الفرنسـي علـى شـيء إلا باسـم مبـدأ مـا. وفـي ضـوء هـذا الاتجـاه، فـإن الفكـر الفرنسـي، سـواء كان ذلـك مـن زاويـة النقـد أو مـن زاويـة «التعصـب الأيديولوجـي»، يبـدو بحـق لا أداة مـن أدوات التحـرر فحسـب، بـل خميـرة خطـرة وثوريـة عنـد الاقتضـاء. وحيثمـا يمـر الفرنسـي، تهـب مـن خلفـه ريـاح تحـرك الغبـار وتزلـزل أحيانًـا دعامـات الـدول. وفـي هـذا المعنـى كتـب شـارل بيغـي يقـول: «نحـن نرفـض بـكل قوانـا العقائـد التـي تعلّمهـا الدولـة رفضنـا لتلـك التـي تقـول بهـا الكنيسـة، فخيـر أن يتكـون مئـة فـرد يتمتعـون بعقـول متحـررة مـن أن يكـون لنـا الآلاف مـن ذوي العقـول الباهتـة المسـتعبدة».

والحـال إننـا لنـدرك جيـدًا أنـه ليـس هنـاك اسـتقلال فكـري مـن دون اسـتقلال اقتصـادي، ولهـذا فـإن مطالبتنـا بالاسـتقلال الفكـري تصحبهـا مطالبـة بالاسـتقلال فـي حياتنـا الخاصـة، فنحـن قبـل كل شـيء لا نريـد أن نعتمـد علـى الآخريـن،

وبالأخـص علـى آخـر معيّـن، أكان جارنـا أو رئيسـنا: وبـدلًا مـن أن نعانـي مـن تدخلـه، فإننـا نؤثـر، علـى غبائنـا، أن نلجـأ إلـى الدولـة؛ فسـلطتها فـي الأقـل هـي سـلطة مغفَلـة. ونحـن نعـرف أيضًـا، أن الاسـتقلال يشـمل حـدًا أدنـى مـن الأمـن. وقـد ظـل الفرنسـي لفتـرة طويلـة يعتمـد علـى نفسـه فحسـب لتحقيـق الاسـتقلال، ومـن هنـا كانـت رغبتـه الجامحـة إلـى التملـك والادخـار واهتمامـه الدائـب للحصـول علـى معـاش يحميـه فـي شـيخوخته. وطمـوح الفرنسـي معقـول ومتواضـع علـى العمـوم، غايـة مـا ينشـده فـي حياتـه: منـزل صغيـر وحديقـة ومعـاش يسـد بـه رمقـه ويقضـي بـه غلتـه. وهنـاك مثـل فرنسـي يقـول: «كوبـي صغيـر ولكنـه يطفـئ ظمئـي»، ولا أعـرف مثـلًا آخـر يعبـر بأوضـح مـن ذلـك عـن عقليـة فرنسـية معيّنـة.

فـي ظـل الجمهوريـة الثالثـة كان الحـزب الراديكالـي، المعبّـر بحـق عـن نكهتنـا السياسـية المحليـة، يحيـل علـى الـدوام برنامجـه باتجـاه المقارنـة، مدعيًـا دائمًـا الدفـاع عـن «الصغيـر» ضـد «الكبيـر»، التاجـر الصغيـر، المالـك الصغيـر، وحتـى الغشـاش الصغيـر. ويمكننـا أن نقـرأ علـى بـاب مقهـى باريسـي فـي المنطقـة السـابعة، اللافتـة التـي تحمـل اسـمه: «الـوزارة الصغيـرة».

وفـي مـا ذكرنـاه آنفًـا مـن خصـال الفرنسـيين نجـد مزيجًـا مـن المثاليـة والتفكيـر الرخيـص. يقـول الأجانـب غالبًـا إن الفرنسـي «مغـرض»، فهـو يعـرف أن الحصـول علـى المـال عسـير، وأنـه إذا مـا اكتسـبه الإنسـان فـلا بـد مـن المحافظـة عليـه، وبالتالـي فإنـه يجـب تضييـق القيـود والرقابـة عليـه... ذلـك هـو العـرف لـدى الفـلاح الفرنسـي. وبمـا أن تقاليدنـا هـي تقاليـد الريـف، وهـو فـي فرنسـا قريـب دائمًـا، فإننـا نقـر بأننـا حريصـون كل الحـرص علـى أموالنـا، وكثيـرًا مـا نكـون أنانييـن، متحرزيـن ضـد مـن يريـد أن يأخـذ مالنـا، وبالتالـي متحرزيـن مـن الدولـة. وأكثـر مـن ذلـك فإننـا نغـار منهـا ونحقـد عليهـا فـي بعـض الأحيـان. ومـع هـذا فقـد نشـأ مـن هـذه العيـوب ذاتهـا شـعب فريـد فـي تطـوره. شـعب فـي سـن البلـوغ والنضـج، نعـم وهـذا هـو الأمـر الجوهـري، شـعب يعـرف كيـف يواجـه الحيـاة مـن دون طفوليـة ومـن دون نفـاق، ومـن دون وهـم كذلـك. إننـا شـعب مـن دارسـي الطبـاع. وفـي الختـام، فـإن هـذا الرصيـد مـن حكمـة الفلاحيـن عبّـر الشـاعر لافونتيـن (La Fontaine) عنـه فـي قصصـه: فواقعيتـه، واعتدالـه،

وفهمـه الجيـد للأمـور، والـذي يحمـل أحيانًـا بعـض الكلبيـة (cynisme)، كل ذلـك يمثـل رأي الشـعب الفرنسـي فـي النـاس وفـي الأشـياء.

إذًا فنحـن قـوم إنسـانيون، متحضـرون خاصـة، ليـس فـي عدتنـا الماديـة فحسـب بقـدر مـا فـي تـوازن عقلنـا. ونحـن نحمـل شـعورًا غريزيًـا ضـد كل مـا هـو فوضـوي أو مـا يجـاوز الحـد المعقـول، ونكـره تلـك الضخامـة (kolossal) التـي يفتـن بهـا الألمـان. إن شـعار: «لا تضخيـم ولا تهويـل» هـو أحـد الشـعارات الأكثـر قدسـية فـي تربيتنـا الأسـرية، نحـن نتجـه دائمًـا كلمـا أمكـن ذلـك إلـى مخاطبـة العقـل والمنطـق. وقـد أبـدى لـي رجـل إنكليـزي، عميـق إعجابـه عندمـا سـمع سـيدة فرنسـية تقـول لطفلهـا البالـغ مـن العمـر ثـلاث سـنوات: «كـن منطقيًـا (sois raisonnable)»، وأضـاف قائـلًا: إن المـرأة الإنكليزيـة تقـول لطفلهـا فـي هـذا الموقـف: «كـن ولـدًا صالحًـا (be a good boy)»، و«هـذا شـيء جـد مختلـف». نحـن فـي الحـق ديكارتيـون، تعلمنـا عنـد لافونتيـن، ومشـينا فـي خطـى قدمـاء الإغريـق، ويـا لـه مـن نسـب رائـع.

وإذا سـئلت مـن أي جانـب لا تـزال هـذه الصـورة صحيحـة اليـوم؟ فإنـي أجيـب: إنهـا صحيحـة عندمـا تنطبـق علـى الفـرد الفرنسـي فـي حياتـه الخاصـة، علـى الفرنسـي التقليـدي الـذي مـا زال موجـودًا بالفطـرة علـى الرغـم مـن الحـروب والثـورات وتخفيضات النقـد، ولكـن علينـا ألا نخطـئ فـي هـذا، فهـو نمـط مـن الرجـال تكـوّن فـي وسـط اقتصـادي واجتماعـي آخـذ فـي الاختفـاء، مـا يجعلنـا نتسـاءل كيـف يمكنـه أن يصمـد فـي ظـروف وجوديـة صـارت مختلفـة اختلافًـا تامًـا.

(3)

هنـاك مفهـوم فرنسـي بحـت يتعلـق بالعمـل، وهـو مفهـوم ورثنـاه عـن أقـدم مـزدرع وطنـي يحمـل مذاقنـا المحلـي، وينحصـر هـذا المفهـوم فـي تمجيـد العمـل المتقـن، وفـي التعـاون البنـاء مـا بيـن الفكـر والآلـة، وفـي الرغبـة الغريزيـة فـي إظهـار الشـخصية الذاتيـة فـي الإنتـاج، ولـذا نجـد العامـل عندنـا يريـد دائمًـا أن يضـع توقيعـه علـى كل مـا ينتجـه. وإنهـا لظاهـرة بديعـة تلـك التـي نشـهدها لـدى صاحـب الحرفـة القديمـة الـذي لا يـكاد ينتهـي مـن عملـه حتـى يرجـع إلـى الـوراء خطـوة... ليتأمـل مـا

صنعت يداه... وكما الأب الأبدي في اليوم السابع، يشعر بالفخر للإنجاز الذي أتمه... وقد كتب بيغي (Péguy) صفحات ممتازة في هذا المقام[3] أذكر منها:

«هل تصدقون أننا عرفنا في حياتنا عمالًا شديدي الرغبة في العمل. وعرفنا عمالًا لا يفكرون منذ بداية اليوم إلا في العمل. كانوا يستيقظون في الصباح المبكر جدًا وينشدون الأغاني فرحًا وطربًا لا لشيء إلا لكونهم سيقبلون على العمل بعد حين. وفي الساعة الحادية عشر يستأنفون الغناء عند ذهابهم لتناول الغذاء. كان العمل متعتهم الحقيقية وجوهر كيانهم وسبب وجودهم. كان للعمل شرف عظيم لا يدانيه شرف آخر، الشرف الأجمل من كل شرف آخر، الأكثر مسيحية، ولعله الشيء الوحيد الثابت لديهم. لقد عرفنا تلك العبادة للعمل المتقن والتي يحافظ عليها حتى متطلبات حدها الأقصى. لقد رأيت بعيني رأسي أثناء طفولتي «حشو» الكراسي بالروح وبالهمة والنشاط نفسيهما، وبتلك اليد التاريخية نفسها التي شيّدت لهذا الشعب الكاتدرائيات العظيمة. لم يكن هؤلاء العمال يخدمون أحدًا، فهم كانوا يشتغلون. وكان عندهم شرف مطلق، كما يليق بالشرف أن يكون. كان ينبغي أن تكون كل قطعة من الكرسي متقنة الصنع، هذا كان هدفهم، هذه كانت أولويتهم. لم يكن ينبغي أن تكون متقنة الصنع إرضاء لرئيسهم، أو للخبراء في الصنعة، أو لعملائهم، بل لأنه كان ينبغي أن تكون القطعة متقنة الصنع: لذاتها، وبذاتها، وفي صميم ذاتها».

لم يكن بيغي يخترع شيئًا هنا. «فهو عرف في شبابه بأورليان»، بحسب ما يقول الأخوة ثارو[4] (Tharaud)، «إنسانية عجوز كانت ثقافتها الأصلية تتشكل من تقاليد محلية وتجربة دهرية، لا تدين بشيء أو تدين بالقليل فحسب للخارج، وحيث السكان أقرب إلى الأرض وحياتها، شعب من العمال المزارعين، كان حتى الأمس ريفيًا خشنًا، يحضر معه إلى مهنته الجديدة كل القيم الزراعية القديمة، من حب للعمل وفرح بالعمل، مدهشين فعلًا، ومن عبادة العمل المتقن، أي باختصار كل ما له علاقة بعالم قديم جدًا، عالم الأمس، عالم أقرب بكثير إلى فرنسا النظام القديم منه إلى فرنسا اليوم».

---

(3) Charles Péguy, La France, N.R.F. (Paris: Gallimard, 1939).

(4) Jérôme et Jean Tharaud, Notre cher Péguy (Paris: Plon, 1926), p. 19.

وكما نرى حقًا، فإن هذا المصدر هو في الأساس حرفي. والواقع أن الفرنسي يعشق الخلق والاختراع، ثم كثيرًا ما يحدث أن يهمل التطبيق فلا يهتم به... إنه يزرع في حين يحصد آخرون، وهذا يفسر لنا لماذا كانت فرنسا في أصل اختراع كثير من الأشياء: السيارة والطائرة على سبيل المثال، ولكنها لا تكون موجودة عند توزيع الأرباح. وقد عبر عن ذلك جان كوكتو (Jean Cocteau) في عبارة موجزة مفيدة؛ إذ قال: «فرنسا التي لا تبالي... كانت تحمل بذورًا ملء جيوبها، وكانت تتركها تتساقط بإهمال خلف ظهرها، ثم كانت تأتي شعوب فتلتقط هذه البذور وتحملها معها إلى بلادها لتزرعها في أرضها، حيث أنتجت لها زهورًا ضخمة، من غير عطر أو شذى...».

وهنا يعن لنا أن نتساءل: أيمكن أن تتواءم هذه المفاهيم، على جدتها، مع الطرائق الجديدة للإنتاج؟ وجوابي أنها تتواءم جد المواءمة، على عكس ما قد نعتقد لأول وهلة. ففي التنظيم العقلاني الصناعي نجد «التفكير الفرنسي» الخلّاق، والبنّاء فكريًا، في مواجهة ذلك النوع من المشكلات الذي يلذ له أن يعالجها، ولا يغيب عن بال أحدنا ماذا يتضمن مذهب تايلر الإنكليزي (Taylor) إنه عبارة عن تأييد مبالغ فيه (شبه عدواني) للعقل في مقابل روتين التقاليد. وفي هذا الاتجاه يمكن أن يندرج هذا الرياضي (تايلر)، ولو أنه لم يكن يعي ذلك، في عداد تلاميذ ديكارت. والفرنسي «الديكارتي» يعتبر حقًا رائد التنظيم والتنميط، ذلك أن «الثورة» (الفرنسية) هي التي أتت بالنظام المتري الذي ما زال الإنكليز والأميركيون معارضين له. وتفكيرنا التحليلي والتعميمي ولغتنا - أداة الدقة - قد هيئا لنا استخدام العقل للتفكير أكثر من أي كان. وأكبر خطأ ترتكبه دعايتنا هو تمجيدنا كثيرًا لإنجازات فرنسا الأدبية: وليس لنا أي مسوغ كي نهمل التقنية وما تسميه الولايات المتحدة في عبارة رقيقة «المعرفة العملية» (Know how).

ولكننا نفقد نحن الفرنسيين - للأسف - جميع صفاتنا عند التطبيق كما يمارس اليوم. وسواء كان عاملًا أم فنانًا أم أديبًا، فإن ما يدفع الفرنسي إلى العمل كما قلنا هو شرف المهنة والكرامة. في حين أن ما يطلب اليوم من العامل هو: قوة الاحتمال والوعي والقدرة على مقاومة الملل في العمل

الأوتوماتيكـي والمغفـل، إن كان الأمـر يتعلـق بمـا يسـمونه سلسـلة التجميـع. فـي هـذا النـوع مـن العمـل حيـث يفقـد العامـل شـخصيته، لا نلمـس للفرنسـي إلا موهبـة يسـيرة، ولا عجـب فـي ذلـك. وهـو يبـدي أحيانًـا القليـل مـن الحماسـة، والقليـل مـن الضميـر حتـى، فـي العمـل الـذي يبـذل للآخريـن، أي ذلـك الـذي لا يهمـه شـخصيًا فـلا يكتـرث بإنجـازه جيـدًا. فالعامـل الفرنسـي لا يعمـل جيـدًا إلا إذا كان يعمـل لنفسـه، أو إذا تحمـس لعمـل يشـعر أنـه مرتبـط بـه، وعنـد ذاك تـرى منـه نشـاطًا وفاعليـة لا حـدّ لهمـا، ولكـن ليـس ذلـك بدافـع المصلحـة أو الضميـر، وإنمـا بدافـع الشـرف والكرامـة. ومـن هنـا نـرى أي خطـر تشـكله علينـا تلـك الاتجاهـات فـي حضـارة أصبـح منهاجهـا عمـلًا فنيًـا تطبيقيًـا بالمـرة، وحيـث أضحـى فيهـا العمـل، بـل والاختـراع نفسـه، جماعييـن وصـار العمـل الفـردي غيـر ذي موضـوع.

والمسـألة هـي إذًا أننـا فـي حاجـة قصـوى، فـي عالـم اليـوم، إلـى إيجـاد أخلاقيـات جديـدة، وهـي أخلاقيـات جديـدة بالنسـبة إلينـا نحـن الفرنسـيين خصوصًـا. والمشـكلة تنحصـر الآن فـي العنايـة بالفـرد مـع الاعتـراف بضـرورة إدماجـه فـي المجتمع. وإلـى الآن لـم يتـح لفرنسـا الوصـول إلـى حـل لهـذه المشـكلة.

وأصـل الآن إلـى مسـألة تبـدو لـي مهمـة جـدًا فـي تكويـن الفكـر الفرنسـي بقـدر أهميـة مفهومـه عـن العمـل، ألا وهـي رأينـا الخـاص فـي الديـن. فجـو الحيـاة الدينيـة فـي فرنسـا هـو فـي الأصـل جـو بلـد كاثوليكـي، وهـذا البلـد لا يـزال يحتفـظ بشـكل لا لبـس فيـه بالطابـع الدينـي وإن بـدا أنـه غيـر مؤمـن أحيانًـا، وهـو طابـع لـن ينـدثـر أو يمحـى بفعـل التكويـن الأصلـي والدهـري لفرنسـا. فالفرنسـي حتـى إذا كان متشـككًا فـي الديـن أو حتـى معاديًـا للديـن، فإنـه يعيـش ويفكـر ويتصـرف فـي إطـار مـن الفكـر الرومانـي. والفرنسـي المتوسـط يجـد نفسـه علـى راحتـه داخـل إطـار الفكـر الكاثوليكـي، فـي حيـن أنـه يجـد نفسـه دائمًـا لا يسـتريح فـي جـو التفكيـر البروتسـتانتي الـذي يبـدو لـه مصطبغًـا بصبغـة أجنبيـة لا يـدري مـا هـي، ويلـوح لـه أن مـن الصعـب عليـه التكيـف معهـا. ومـن هنـا ذلـك التنافـر الأسـاس بيـن فرنسـا والبـلاد البروتسـتانتية. ومـن هنـا أيضًـا سـوء الفهـم المسـتمر والمشـوب أحيانًـا ببغضـاء خفيـة تسـيء إلـى علاقاتنـا مـع الشـعوب الأنكلوسكسونية.

وتنطـوي الكاثوليكيـة الفرنسـية علـى أثـر صلـب مـن عهـد مـا قبـل المسـيحية ينعكـس فـي الاحتـرام الشـعبي الـذي يسـتمر حيًـا، لبعـض الأيـام ولبعـض الأمكنـة التـي تعتبـر مقدسـة، بالمعنـى الـذي كان الأقدمـون يعطونـه لكلمـة sacrum اللاتينيـة. لكـن الكاثوليكيـة الفرنسـية تشـمل أيضًـا، وبوجـه خـاص، الانتمـاء إلـى مجتمـع روحـي يعبّـر عـن نفسـه فـي الكنيسـة (بالمفـرد لأنـه لا يمكـن أن يكـون هنـاك سـوى كنيسـة واحـدة) التـي تعـم بركاتهـا بواسـطة الأسـرار والقربـان (sacrement) التـي يمنحهـا الكاهـن المؤهـل وفقًـا لمراسـم دينيـة معينـة (السـيامة أو رسـامة الكاهـن (ordination)) تضفـي علـى الحيـاة لونًـا مـن البروتوكـول الصوفـي.

ويقـوم هـذا النظـام علـى أسـاس مـن الضبـط والربـط: فيخضـع الفـرد روحيًـا، ولكنـه يعـود ليجـد نفسـه علـى مسـتوى آخـر، فهـو الضعيـف لأنـه كان فـي حاجـة إلـى هـذه الدعامـة، والرسـول، والصوفـي، ورجـل العمـل لأنـه يجـد فـي هـذا الخضـوع نفسـه حريـة مسـلك جديـدة. فالكنيسـة فـي فرنسـا هـي إذًا عبـارة عـن سـلم مـن المراتـب تعطـي للمجتمـع «إطـارًا أخلاقيًـا» وهـي بهـذا عامـل انتظـام، ودورهـا فـي حيـاة البلـد، ليـس مـن الناحيـة الدينيـة فحسـب، بـل الاجتماعيـة والسياسـية، هـو دور عظيـم. فكـون الفرنسـي كاثوليكيًـا أو معاديًـا للكاثوليكيـة، إنمـا يعتبـر فـي فرنسـا أمـرًا سياسـيًا، إضافـة إلـى كونـه مسـألة دينيـة، وحيـن تقـف الكنيسـة فـي وجـه الدولـة وكأنهـا سـلطة/قوة أخـرى، فإنـه ينتـج عـن ذلـك وجـود نزعـة معاديـة للكنيسـة فـي فرنسـا؛ وهـذا مـا لا تعرفـه المجتمعـات البروتسـتانتية.

ولـم يعلمنـا هـذا الديـن لا المسـؤوليات الأخلاقيـة للفـرد ولا ممارسـة الحريـة السياسـية. لقـد وضعنـا فـي إطـار مدعـم مـن «النظـام الكنسـي» الـذي لا ننكـر عظمتـه، لكنـه يشـابه أيضًـا منظمـة بوليسـية عليـا للعقـول والأخـلاق. وقـد خضعـت بلادنـا إلـى حـد كبيـر لهـذا الديـن، ولكنهـا قاومتـه أيضًـا إلـى حـد كبيـر تـارة مـن طريـق «مذهـب الشـك»، وتـارة أخـرى بـأن تشـرك مـع الممارسـة ادعـاء عـدم التضحيـة بالحريـة النقديـة. وقـد حـدث أن عـددًا كبيـرًا مـن الفرنسـيين الذيـن قاوموهـا بقـوة، خرجـوا علـى الكنيسـة كراهيـة إلـى حـد مـا، وأعـداء لهـا، ولكـن ظـل الأكثـرون فيهـا، إذ توصلـوا إلـى طريـق مـن التعايـش (modus vivendi) يحفـظ لهـم الحريـة العقليـة. وبمـا

أنـه لا يوجـد تقريبًـا بروتسـتانتيون فـي فرنسـا، فإنـه يمكـن القـول بـأن جميـع الفرنسـيين سـواء الذيـن ظلـوا علـى ولائهـم للكنيسـة، أم الذيـن خرجـوا علـى طاعتهـا - يحملـون طابـع الكاثوليكيـة. وفولتيـر مـن هـذه الناحيـة هـو حقًـا نتـاج صـاف لهـذا المنبـت. فمـا مـن بلـد بروتسـتانتي كان مسـتطيعًا أن ينبـت مثـل فولتيـر. لقـد بلغنـا فـي بلدنـا درجـة مـن تحـرر العقـل لـم يعرفهـا بلـد آخـر، فقـد تخلـص العقـل - ليـس مـن العقيـدة فحسـب، بـل أيضًـا مـن إكراهـات الأخـلاق - فوصـل إلـى اسـتقلال لا تعرفـه إنكلتـرا المتطهـرة ولا ألمانيـا ذات النظـام المنهجـي، ولا أميـركا صاحبـة الفاعليـة... هـذا التحليـق فـي التفكيـر الـذي يستنشـق الإنسـان فيـه الهـواء المـر والمنعـش، هـواء القمـم العاليـة، يدهـش غالبًـا الأجانـب الذيـن يتـاح لهـم الاتصـال بـه، يدهشـهم كأنـه معجـزة خالصة.

وفـي السياسـة كانـت النتيجـة أقـل توفيقًـا. ففـي الوقـت الـذي راحـت فيـه فرنسـا الكاثوليكيـة تنتظـم فـي إطـار نظـام تسـلطي، اتجهـت الملَكيـة - وكانـت قبـل ذلـك أكثـر توازنًـا - إلـى نظـام مطلـق. وفرنسـا الحديثـة، فرنسـا الثـورة، هـي نتـاج ثـورة مزدوجـة ضـد السـلطة، أكانـت سـلطة الملـك، أم سـلطة الكنيسـة. ومـن هنـا تشـوهت لدينـا فكـرة السـلطة وفكـرة الحريـة فـي آن. ولـم نسـتطع أن نتصـور سـلطة تكـون متحـررة، أو حريـة تكـون بنّـاءة. وهـذا العيـب فـي أصـل فرنسـا المعاصـرة، وهـي مـا برحـت تعانـي منـه.

(4)

إن مسـلكنا فـي الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والخاصـة، علـى السـواء، ليتأثـر تأثيـرًا مباشـرًا بمـا سـبق ذكـره وبالمنابـع المختلفـة التـي نبعـت منهـا شـخصيتنا القوميـة. ومـن السـهل أن نـرى مـا نحـن مدينـون بـه لأصلنـا اللاتينـي ولأصلنـا الكلتـي. إنهـا مزايـا ولا شـك، بيـد أنهـا تتحـول بسـهولة إلـى عيـوب، إمـا نتيجـة للتطـرف وإمـا نتيجـة لسـوء اسـتخدامها. والقـوة المقابلـة والتـي تـوازن العـرق الجرمانـي موجـودة هنـا ولا شـك، ولكنهـا فـي العمـوم غيـر كافيـة، خصوصًـا فـي السـاحة العامـة. ففـي

فرنسا هناك دومًا وبشكل متناسب: كثير من فرسنجيتوريكس[5] (Vercingetorix) وكثير من نوماس رومستانس[6] (Noumas Roumestans).

إذًا ماذا ورثنا عن اللاتينيين؟ورثنا بنيانًا اجتماعيًا متينًا إلى حد مدهش، يقوم على الأسرة وهي أكثر قوة وأمنع صلابة وأشد بقاء من الدولة ذاتها؛ ولكن التعصب العشائري والتحزب الزبائني والانتماء النقابي، تصبح عند الاقتضاء مفاهيم أكثر وضوحًا للوعي الشعبي من المصلحة القومية. وقد ورثنا عن اللاتين أيضًا مفهومنا للقانون، لذلك القانون المحدد المكتوب المختلف جدًا عن القانون العرفي البريطاني. فالرباط الاجتماعي يبدو لدينا كأنه عقد بين شركاء لا يثق واحدهم في الآخر، معتبرين جميعًا أنه من الأحسن تأكيد المؤكد مرتين (على حد قول بعض القصاصين) وأنه لا يوجد ما يكفي من الشهادات الجامعية. فنحن شعب من المحامين (لابسي الثوب، بالفرنسية Robins، وبالإيطالية Togati)، لا يعتقدون كما اعتقد روسو (Rousseau) - ذلك السويسري - بأن الإنسان خيّر بطبيعته.

ومن هنا كان مفهومنا للدولة وللسلطة العامة على وجه الإجمال، فنحن نعتبر الدولة - تبعًا لمفهومنا اللاتيني الحقيقي - أشبه ما تكون بكيان خارج عن الفرد وأعلى منه، ومن المحتمل أن يكون خطرًا عليه. والواقع أننا نعتبر الدولة عدوًا إلى حد ما، يجب على المرء أن يحمي نفسه منه، ومن الحرص أن يبتعد المرء عنها ما أمكن وذلك في سبيل المصلحة العليا للأسرة... كان

---

(5) فرسنجيتوريكس (حوالى 80-40 ق.م) قائد غالي (gaulois) لإحدى القبائل، نجح بتوحيد معظم القبائل والشعوب الغالية لصد هجومات الجنرال الروماني يوليوس قيصر الذي هزمه في معركة أليزيا (52 ق.م) وسجنه ثم أعدمه في روما. يعتبر فرسنجيتوريكس أول من نجح بتوحيد هذه الشعوب كما أنه كان من أبرز القادة والاستراتيجيين العسكريين في زمانه. اعتبره الفرنسيون ممثلًا لهويتهم وحضارتهم القديمة خصوصًا مع تصاعد الصراع الألماني - الفرنسي؛ وتحول لاحقًا إلى أيقونة أسطورية وقومية في فرنسا حتى أنه صار ما بين الأعوام 1870 (بعد هزيمة الفرنسيين على يد الألمان) و1950 في الكتب المدرسية الفرنسية رمزًا لفرنسا وأول قائد فرنسي حقيقي.

(6) عنوان رواية لألفونس دوديه وهي تتحدث عن غزو العادات والأخلاق الباريسية لفرنسا العميقة.

كونفوشـيوس[7] (Confucius) يقـول: إنـه مـن حسـن الأخـلاق أن يسـرق المـرء مـن الدولـة ليطعـم أبـاه العجـوز، ولسـنا بعيديـن مـن أن نشـاطر الفيلسـوف رأيـه، فنحـن فـي فرنسـا نحمـل شـيئًا مـن الاسـتنكار الخفـي لـكل مـن يدفـع الضريبـة أو يسـدد رسـم الجمـرك مـن دون أن يحـاول أن يتخلـص منهـا. إننـا لا نعتبـره شـخصًا سـيئًا وإنمـا نـراه مقصـرًا لـم يبـذل مـا كان فـي وسـعه القيـام بـه. ولكننـا فـي الوقـت عينـه نـرى الدولـة أداة قـوة يمكـن الاسـتيلاء عليهـا: فأعداؤنـا قـد يسـتخدمونها للسـيطرة علينـا، وهـذا أمـر لا يمكـن التسـامح فيـه بالنظـر إلـى طباعنـا. أمـا إذا كان أصدقاؤنـا هـم الذيـن سيسـتولون عليهـا، فإننـا سنسـتفيد معهـم. ومـن هنـا كانـت تلـك الحماسـة الحزبيـة التـي تجعـل حياتنـا العامـة مختلفـة جـد الاختـلاف عـن مثيلاتهـا فـي إنكلتـرا وسويسـرا، حيـث تعتبـر الدولـة ببسـاطة تعبيـرًا عـن الجماعـة. وهنـا يظهـر التناقـض بيـن الكاثوليكـي والبروتسـتانتي، لأن بنياننـا الاجتماعـي ظـل كاثوليكيًـا فـي السياسـة كمـا فـي الديـن.

ونحـن مدينـون للاتينييـن أيضًـا بقدرتنـا فـي التفكيـر والتعبيـر، وقـدرة الفرنسـي علـى التحليـل تجـل عـن الوصـف. حتـى إن أقـل واحـد شـأنًا بيننـا، رجـل الشـارع مثـلًا، يتمتـع بقـدرة خارقـة علـى التعميـم، وبموهبـة التمييـز فـي أي مشـكلة، لاسـتخلاص المبـدأ الأسـاس والتعـرف إلـى النتائـج التـي يمكـن أن تنتـج عنهـا. وفـي أي ظـرف يواجهـه سـيعرف الناخـب - بغريزتـه الصادقـة - أيـن هـو الاتجـاه المناسـب: إلـى اليميـن أم إلـى اليسـار؛ وهـو سـيدرك مسـبقًا بعقلـه المنطقـي المحـب للتقديـر الاسـتقرائي مـا هـي نهايـة الطريـق: الرجعيـة أم الثـورة. وبمثـل هـذه الخطـوط الفاصلـة تتميـز الأحـزاب فـي فرنسـا، حيـث يكـون المبـدأ فـوق التطبيـق العملـي ممـا يثيـر دهشـة الرجـل الأجنبـي الـذي تعـود أن يضحـي بالمبـدأ وهـو صاحـب العقـل السـليم الـذي يغلـب عنـده حـب الحيـاة أولًا. ولعـل هـذا الموقـف المتناقـض يرجـع إلـى وضـوح شـديد فـي التفكيـر عندنـا، الأمـر الـذي يدفعنـا إلـى اسـتعراض المشـكلات بطريقـة واضحـة ذكيـة، ممـا قـد يجعـل الحلـول متفجـرة، بـدلًا مـن أن

(7) كونفوشيوس (551-497 ق.م) معلّم وفيلسوف وسياسي صيني صاحب مدرسة ركّزت على تعليم المسؤولية الأخلاقية للفرد وللحكومات والاستقامة في العلاقات الاجتماعية مقرونة بالقسط والميزان وبالدقة والصرامة.

يساعد على تسهيلها. فسهولة التعبير لدينا تبدو هنا كحبائل نصبت لنا. وإذا قارنا أنفسنا - من هذه الوجهة - بالألمان الذين تقيدهم لغتهم فلا يستطيعون إخراج ما بداخلهم، فإننا سنعجب لمقدار الصفاء والوضوح الذي ينجح الفكر الفرنسي أن يتواصل بواسطته مع غيره. ونحن في هذا نندرج مع سكان البحر المتوسط أكثر مما نندرج مع أهل الشمال، ولكن مع ذلك ففي نقطة وسط بين الاثنين؛ لأنه إذا كان الاعتدال وعدم التأنق في لغتنا قد حال بيننا وبين «الغنائية» الفصيحة على الطريقة الإسبانية، فإن كلاسيكيتنا تضطرنا فكريًا إلى البناء من حيث يرفض الإنكليزي ذلك بعناد. وفي هذا المجال، فإن المدرسة الثانوية «الليسيه» تطبع كل الفرنسيين بدمغة لا تمحى.

وبعد... فقد تحدثنا كثيرًا عما نحن مدينون به للاتينيين، ولكننا لم نتطرق ما فيه الكفاية إلى الخصال التي أخذناها عن الكلتيين. وإني لست بعيدًا من أن أرى في هذا الميراث الكلتي العنصر الجوهري لتراثنا الاجتماعي والعاطفي. وهنا يتجه الفكر توًا إلى الغموض، إلى شعر التراث البروتاني (bretons) (نسبة إلى مقاطعة Bretagne الفرنسية)، وإلى السحر الرومنطيقي للفولكور الغالي (gaulois). ولكننا ورثنا عن الكلتيين أيضًا حس المنفعة والميل الشديد إلى الادخار، والجدية في إدارة ميزانية الأسرة، والتعلق بالأرض. وينظر الأجنبي إلى الفرنسي باعتباره رجلًا لامعًا وخفيفًا، غير قادر على التحدث جديًا في أمر من الأمور. ويا لخطل هذه النظرة! وعندما نتصل بجالياتنا الفرنسية عبر المحيطات، في أميركا اللاتينية مثلًا، نرى أن مواطنينا الذين يشغلون مراكز مهمة في تلك البلاد مدينون بهذا لتلك الصفات القوية الجادة التي ورثوها عن أجدادهم الفلاحين أو الجبليين، ولو أن بعضهم يعتبرها خسيسة. وترى الإنكليزي في مثل هذا الوسط أكثر ادعاء وأناقة، ولكنه أقل استقرارًا وثباتًا، وترى الفرنسي من أصل ريفي في تلك البلدان أقل أناقة، محتفظًا بمظهره الريفي القروي الذي يعكس طبعه الخشن، ولكنه فلاح يلبس جزمة ممتلئة صلبة. ولا يعرفنا كثيرون بهذا الطابع الذي يناقض سمعتنا بأننا غير مستقرين. ولكن، هل ما هو أشد صلابة من منطقة السهول الوسطى عندنا والتي تكدس لنا النقود؟

ولعلنا ورثنا عن الكلتيين أيضًا ذلك الجانب الفوضوي في فرديتنا. وهذه الفردية إذا لمعت في مجال الفكر أو الفن، فإنها غير مكللة بالنجاح في الميدان الاجتماعي، فهي أم الغيرة التي تعتبر كل تدخل من جانب الجماعة إهانة لها. ومن الفردية أيضًا جاءت السمة الهدامة لذكائنا الذي يشعر براحة في المعارضة أكثر من شعوره بها في التعاون. فاللاتيني - الذي ما زال يتذكر روما القديمة - قادر على فهم المنشآت السياسية الكبرى والإعجاب بها في حال عدم استطاعته تحقيقها. أما الكلتي فهو بصفة خاصة شخص مقاوم... وبقدر ما إننا نرفض، بدافع الطبع أكثر من العقيدة، التدخلات الضرورية من جانب المجتمع، فجل الذي أخشاه أن تكون هذه الصفات هي ما نأخذه من الكلتيين.

هذه النتائج التي ترتبت على الأصل المزدوج (الكلتية واللاتينية)، رائعة في الميدان الفكري، ولكنها تصبح، عند الاقتضاء، مضرّة في ما يتعلق بالسياسة. ويتعرض الفرنسي للوقوع في إفراط مزدوج، سواء أكان ذلك بسبب إخلاصه لمبدئه أم بسبب أنانيته. وتبدو هذه الأثرة أحيانًا في أحط درجاتها، ولكن هناك ما يعوّض عنها عندما نكرس أنفسنا لجنون المبادئ: وقد أوضح روبير دو جوفنيل[8] (Robert de Jouvenel)، ذلك المتابع والناقد الدقيق للسياسة الفرنسية، أن مشروعات القوانين بالنسبة إلى أعضاء البرلمان، أهم بكثير من القوانين، ذلك لأن المبادئ - وليست المصالح - هي التي تحتل المكانة الأولى في مناقشاتها، ونحن نحولها (المبادئ) بالحماسة إلى لون من التعصب الأيديولوجي الذي ننتهي من خلاله إلى المبالغات الحمقاء. والحق أن فرنسا قد عاشت - طيلة أجيال - في ظروف بلد يتمتع بكثير من الامتيازات، بلد لم تكن تبدو فيه وكأنه من الضروري والمنطقي أن تحدث نتائج المبادئ: فكان بإمكان المرء أن يقول إنه ثوري وهو في الوقت نفسه يحيا حياة بورجوازية، وأن يمدح أي مذهب

(8) روبير دو جوفنيل (1882-1924) (Robert de Jouvenel) صحافي فرنسي كان مقربًا من التيار الجمهوري الراديكالي، وهو شقيق رجل السياسة والصحافة هنري دو جوفنيل (1882-1924) المفوض السامي لفرنسا في سورية ولبنان (1923-1925). ارتبط اسم روبير بعد وفاته بتيار المعادين للبرلمانية، وذلك بسبب المقدمة التي وضعها بول موران لكتاب روبير دو جوفنيل جمهورية الرفقاء عام 1934، على الرغم من أنه كان في شبابه مناضلًا يساريًا جمهوريًا وديمقراطيًا.

ديماغوجي من دون أن يكون لذلك أثر في حياته الخاصة. وفي كتاب روبير دو جوفنيل جمهورية الرفقاء (République des camarades) الذي ألفه عشية قيام الحرب العالمية الأولى، قال الكتاب: «فرنسا بلد سعيد، تربته خصبة، والعامل الحرفي فيه ذكي مبدع، والثروة فيه مجزأة. والسياسة فيه رأي الأفراد وذوقهم، ولكنها ليست شرط حياتهم».

لقد تغيرت الظروف تمامًا وبقي علينا أن نعلم إن كان الفرنسي في الأحوال الحاضرة، يدرك أن المبادئ عندما نطبقها يمكن أن يكون لها أثر في المصلحة الخاصة لكل فرد؟ إن الانفصال الذي تحدثنا عنه في ما سبق بين المبدأ وتطبيقه لم يعد مقبولًا اليوم كما كان بالأمس. فالفرنسي الذي يصوت بصفته مذهبيًا متعنتًا مع اليسار هو - غالبًا - الفرنسي نفسه الذي ينزلق إلى الأنانية المطلقة عند الدفاع عن مصالحه. وهذا الشيوعي المالك - وما أكثر الملاك الشيوعيين لدينا - على أتم استعداد للدفاع بكل ما يملك من قوى عن ملكيته، بل إنه قد يجد من الخطأ الفاحش أن يفرض عليه نظام المزارع الجماعية «الكولخوز». وكل أولئك الذين يصوتون بإيمان وحماسة عاطفيين في جانب التأميم نراهم على الرغم من هذا لا يثقون في الدولة، ونراهم أمام المسائل التي يعتبرونها خطيرة، يعتمدون على أنفسهم. وهم يجيدون التخلص من المآزق التي يقعون فيها. وهم يشبهون في ذلك - إلى حد ما - الصينيين. وقد وجد بول موران (Paul Morand) تشابهًا غريبًا بيننا وبينهم مثل الولع بالاقتصاد، وفن المحافظة على الأشياء مدة طويلة بترميمها أولًا بأول، والمهارة في الطهي، والحذر، والأدب الموروث عن أجيال سابقة، وكراهية الأجانب المتأصلة، غير أنها مقت سلبي، والمحافظة التي تهب عليها العواصف الاجتماعية من وقت إلى آخر، وغياب الروح العامة، والحيوية عند الشيوخ الذين تجاوزوا سن الأمراض. فهل يمكن الاستخلاص بأن ثمة تشابهًا كبيرًا بين جميع الحضارات القديمة[9]؟

بناءً على ذلك، فإن الفرنسي عندما يلجأ إلى السلطة العامة، يجد نفسه تواقًا إلى اعتبارها بقرة حلوبًا، يريد أن يحصل منها على الحد الأقصى، وليست

(9) Paul Morand, Hiver Caraïbe (Paris: Flammarion, 1926).

منشأة هو شريك متضامن فيها. فتراه عندئذ ينشد الامتياز والرعاية والتزكية، أكثر مما ينشد المصلحة العامة. وكلنا يعلم كيف يحيا عضو البرلمان والمكانة التي يؤديها في حياته العملية بصفته نائبًا للأعمال التي لا يستطيع ناخبه أن يقوم بها في دائرة نشاطه. ويعتقد صاحب الدخل أن صندوق الحكومة المالي لا رصيد له، وأن الصناعة المؤممة يمكن أن تدور إلى الأبد بخسارة. ولا بد من تربية صعبة ليدرك أنه في النهاية ليس كما يعتقد صاحبَ (حاملَ) سند، وإنما هو مساهم في شركة كبرى هي: فرنسا ذاتها.

وفي انتظار ذلك، فإنه مع وجود مواهب عظيمة في فرنسا، ومع الكرم في بذلها والإخلاص فيه، فإنه من المعيب أن تكون الحياة العامة غير فاعلة على نقيض فاعلية الفرد، وثمه فكاهة لا تخلو من الصواب: فرنسي واحد يعني شخصًا ذكيًا... فرنسيان اثنان يعني نقاش... ثلاثة فرنسيين يعني الفوضى. فهل علينا أن نحسد زملاءنا وراء المانش؟ إنكليزي واحد يعني شخصًا غبيًا، إنكليزيان اثنان يعني الرياضة، ثلاثة إنكليز يعني الإمبراطورية البريطانية؟

(5)

وقد يكون من العزاء لأنفسنا أن نتذكر نصيب فرنسا في هذه الحضارة الغربية، إذ هي إحدى دعائمها من دون شك. وإذا كان عليّ أن أبحث في هذه المساهمة التي أفتخر بها كل الفخر، فإنني لن أتردد حين أضع في الاعتبار الأول إيمان الفرنسي الكبير وثقته بذكاء الإنسان أي بالإنسانية ذاتها، فهو يعتقد أن هناك حقيقة إنسانية خالصة تخص جميع الناس، وأن الذكاء يستطيع إدراك هذه الحقيقة، وأن اللغة تستطيع التعبير عنها (في الأقل باللغة الفرنسية). لأن الفرنسي يؤمن أن الفكر لا يوجد، بل لا يولد أصلًا، إلا إذا أمكن التعبير عنه. أما قبل ذلك، فهو شيء افتراضي، أي إنه لا يوجد في الواقع؛ لأنه يعتقد أن «الشكل» ضرورة للوجود الواقعي. وفي هذا ينحصر الفارق الكبير بين الفكر الفرنسي والفكر الألماني. فالفكر الألماني لا يحس بالراحة إلا في «الصيرورة» في «الافتراضي»؛ لأنه يعتقد أنه إذا تحدد أصابه الاقتصار والاختزال، فهو يعتقد أنه عميق طالما كان غامضًا، ويعتبر وضوح الفكر لدينا سطحية. أما نحن فنهدف

إلـى العكـس؛ لأننـا نؤثـر مـن الأمـور أوضحهـا ونعتقـد أننـا نقتـرب مـن الحقيقـة إذا أقتربنـا مـن النـور... فنحـن مثـل اليونانييـن نؤثـر النظـام الفلسـفي المتناغـم علـى الفوضـى والعمـاء، ولا نعتبـر أن مـا ينتمـي إلـى مملكـة الظـلام هـو ملكنـا. وتفـوّق العقليـة الفرنسـية الحقيقـي ينحصـر فعليًـا فـي الإضـاءة علـى المسـائل وفـي تمييـز مـا يسـتحق البقـاء مـن كل مـا تقدمـه لنـا الطبيعـة. ولـم يتأخـر جـان كوكتـو[10] (Jean Cocteau)، هـذا الملاحـظ الماهـر للسـيكولوجيات الحديثـة، فـي التعبيـر عـن هـذه الفكـرة، إذ قـال: «إن ألمانيـا لا تعـرف عسـر الهضـم، إن ألمانيـا الحديثـة تمـوت مـن الرضـا، مـن تبسـيطها المدرسـي للثقافـة الفنيـة. وللجمهـور الألمانـي معـدة قويـة، فهـو يكـدس فيهـا غـذاء غيـر متجانـس، صحيـح أنـه يلتهمـه باحتـرام وأنـاة، ولكنـه لا يهضمـه. وفـي فرنسـا نلقـي بالغـذاء، ولكـن لدينـا بعـض المعـد التـي تختـار وتهضـم أحسـن ممـا يوجـد فـي أي مـكان آخـر».

هـذا الفكـر الفرنسـي - الـذي يعـي ذاتـه - يـرى ضـرورة الاتصـال بغيـره. وقيمـة أداتنـا الخاصـة فـي التعبيـر عظيمـة جـدًا. وربمـا كان هـذا أجمـل مـا سـاهمنا بـه فـي حضـارة الإنسـان. وإن أي فكـرة عاديـة إذا مـرت عبـر مصفـاة العقـل الفرنسـي، اكتسـبت الانتظـام ودقـة الوضـوح، بـل أكثـر مـن ذلـك أصبحـت متداولـة كأنهـا عملـة دوليـة، يسـتطيع كل شـخص اسـتخدامها. وبهـذا أصبـح للفكـر الفرنسـي بُعـدٌ دولـي، وحدثـت مـن ذلـك معجـزة أشـبه مـا تكـون بمعجـزة الخلـق: فبمجـرد أن أنشـأنا الفكـر ووهبنـاه كل مسـتلزمات الحيـاة، لـم يعـد ملـكًا لنـا، بـل اكتسـب حياتـه الخاصـة بوصفـه كائنًـا جديـدًا، بـل علـى الأصـح إننـا بتنـا نشـعر أنـه بتحـرر هـذا الفكـر، فإنـه يصبـح عنـد ذاك ملـكًا للإنسـانية. وإذا كان هـذا الفكـر حقيقيًـا بالنسـبة إلينـا فهـو حقيقـي بالنسـبة إلـى النـاس كافـة. وقـد عابـوا علينـا أحيانًـا مـا سـموه بـالاستعمار الثقافـي وليـس ثمـة شـيء أشـد ظلمًـا مـن هـذا. فنحـن لا نريـد إلا أن نكـون ناشـري الفكـر عالميًـا، لأن «العالميـة» هـي البيئـة الطبيعيـة لعقلنـا.

---

(10) جان كوكتو (1889-1963) (Jean Cocteau) شاعر ورسام ومسرحي فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسية (1955)، اعتبر ممن كان لهم أثر في الفن في القرن العشرين. على الرغم من كل أعماله الأدبية ومواهبه الفنية، فقد ظل دومًا يردد أنه أولًا شاعر وأن كل عمل هو شعر.

ومـن هنـا يكـون - علـى مـا أعتقـد - الحـب الصـادق والعاطفـي الـذي نكنـه للغتنـا، تلـك الأداة الطيبـة المجربـة والفاعلـة... وفـي حيـن أنـك تجـد الإنكليـزي يكتـب فـي «رسـائل إلـى المحـرر» (فـي الصحـف) مكـررًا تعليقاتـه عـن الكتـاب المقـدس أو حكاياتـه عـن حديقـة الحيـوان، فإنـك تجدنـا نحـن ننكـب بلـذة غامـرة علـى المناقشـات عـن اللغـة وقواعدهـا ومشـاكلها. ويُعتبـر «مجمـع اللغـة» بقاموسـه الأميـن علـى هـذا التـراث القومـي. وليـس فـي هـذا مجـرد تزويـق للغـة، بـل المسـألة مسـألة تكامـل ثقافتنـا وأصالتهـا، والتـي قـد تنهـار لـو انهـارت أداة التعبيـر عنهـا. ونحـن نشـعر أنـه يجـب أن تُصـان لغتنـا بالعنايـة نفسـها التـي تُصـان بهـا أداة صاحـب الحرفـة.

هـذه الطريقـة فـي تصـور الفكـرة والتعبيـر عنهـا أدت بفرنسـا إلـى أن تكـون بطلـة حقـوق الإنسـان، لأن فرنسـا تبجّـل بالغريـزة، فـي كل كائـن بشـري، الإنسـان المفكـر. وهـي مـن وجهـة النظـر هـذه تؤمـن بـأن النـاس جميعًـا سواسـية فـي الكرامـة، مهمـا اختلفـت بهـم البـلاد وابتعـدت بهـم الأعـراق وتنوعـت الألـوان. وقـد عبّـر الفيلسـوف باسـكال[11] (Pascal) بقـوة عـن أحـد معتقداتنـا العميقـة بقولـه: «تنحصـر كل كرامتنـا فـي الفكـر». ونحـن إزاء البـلاد التـي تبـدو أنهـا تجعـل الرفاهيـة أو القـوة هدفهـا الأسـمى، وبعـد أن نقـف لهنيهـة نتأمـل عظمـة إنجازاتهـا الماديـة، نشـعر دائمًـا بنـوع مـن الحنيـن، هـو الحنيـن إلـى الفكـر. ففـي نظرنـا، لا حضـارة بالمعنـى الصحيـح إذا لـم يتمتـع البشـر بالإنسـانية. ومـن هنـا كان الفرنسـي فـي كل مـكان يمـر بـه منبهًـا موقظًـا، بـل وثائـرًا، فهـو حتـى حيـن ينـادي بالمذهـب الثـوري لكرامـة الكائـن البشـري، إنمـا يشـجع أيضًـا ثـورة الفكـر قائـلًا للأرقـاء والسـجناء والمحكـوم عليهـم بنظـم الأحـكام المطلقـة: «فلتكـن لكـم الجـرأة علـى الوجـود». وعندمـا يتعـرض الكائـن البشـري للخطـر، وعندمـا تكـون حقـوق الفـرد أو حريـة الفكـر موضـع تهديـد، فـإن النـاس يتجهـون نحـو فرنسـا. وهنـاك دائمًـا فرنسـي يتسـمى باسـم «فولتيـر» أو بـأي اسـم آخـر، يتبنـى حـق الإنسـان المظلـوم، ويدافـع عنـه دفـاع الأبطـال. وليسـت المسـألة

(11) بلَيز باسكال (1623-1662) (Blaise Pascal) عالم رياضيات وفيلسوف ومخترع ولاهوتي فرنسي شهير اخترع أول آلة حاسبة وهو في عمر 18 سنة. انكفأ نحو التأمل الفلسفي واللاهوتي بعد تجربة صوفية دينية وكتب مؤلفاته المعروفة الأفكار (Les Pensées) وبنات الريف (Les Provinciales) التي لم تنشر إلا بعد وفاته عن عمر 39 سنة.

مسألة إحسان أو حب للإحسان وللخير، بل هي شيء آخر، فنحن هنا في قلب الغرب الذي لا يعد غربًا بكامل معانيه من دون فرنسا. وأعرف أنه من الممكن ذكر كثير عن مساهمتنا في تقدم الحضارة الغربية، ولكن يبدو لي أن هناك بيتًا من الشعر للشاعر اللاتيني تيرانس[12] يلخص هذه المساهمة أوفى تلخيص، إذ يقول:

Humani nihil a me alienum puto

I am a human being: I regard nothing of human concern as foreign to my interests.

«إني إنسان وأعتقد أن لا شيء مما يتعلق بالإنسان هو خارج اهتماماتي».

(6)

كيف ننتهي إلى خاتمة من جملة هذه العناصر المتناقضة؟ كان هناك أميركي بصير عرف بلادنا جيدًا ولكنه نفض يديه من الحكم علينا... قال: «أحيانًا، لا أرى لدى الفرنسيين سوى عيوبهم، لا أرى غير روتينهم أو إقليميتهم، وغيرتهم وعجزهم عن العمل الجماعي، ويبدون لي عند ذاك أنهم قوم لا يحتملهم أحد. وفي اليوم التالي لا أرى فيهم إلا محاسن حميدة، للسهولة العجيبة التي يعبّرون فيها عن فكرتهم، ولثقتهم في الكائن البشري، ولذوقهم السليم، وشعورهم الكريم بالتضامن بين الناس قاطبة، وعلى ذلك فإني لا أتصور بحال أن هناك أي شعب - اللهم إلا شعب الإغريق القدامى - بلغ مستوى من الثقافة ومن الحضارة مثل ما بلغه هذا الشعب». وكان رينان يقول: إنه في حالات كثيرة لا تنجلي الحقيقة إلا في تناقض المحاورة. ولم يحاول ألفونس دوديه[13] (Alphonse Daudet) في روايته تارتاران دو تاراسكون أن يجمع في شخصية واحدة كلًا من دون كيشوت وسانشو. ومع هذا فليس

---

(12) تيرانس وباللاتينية تيرنتيوس الأفريقي (Térence Publius Terentius Afer) (159-190 ق.م) شاعر روماني من قرطاجه من أصل بربري.

(13) ألفونس دوديه (1840-1897) (Alphonse Daudet) شاعر وكاتب ومسرحي فرنسي من مواليد نيم (Nîmes) من أسرة كاثوليكية من التجار الأثرياء الذين أفلسوا وانتقلوا إلى ليون، وكان لذلك أبلغ الأثر في حياته جسده في روايته الأولى (1868) Le Petit Chose التي يصف فيها وفاة والده بسبب نكبتهم. انتقل إلى باريس لشغفه بالأدب وبحثه عن مجال للكتابة واختلط بالمجتمع الباريسي، حيث أصيب بالسفلس الذي أقعده. كتابه نوما رومستان يصف حياة ومزاج فرنسيي الجنوب وطابعهم.

بيـن شـعوب أوروبـا غيرنـا نحـن مـن وصـل إلـى هـذه النقطـة التـي لا أسـميها الصهـر أو الدمـج، وإنمـا نـوع مـن التأليـف بيـن المسـاهمات التاريخيـة المختلفـة. فـإن ألفًـا وثمانمئـة سـنة مـن التاريـخ، سـارت فـي تيـار متواصـل، حتـى صنعـت منـا أكثـر البـلاد الغربيـة تطـورًا، لا بـل أكثـر البـلاد نضجًـا وبلوغًـا، كمـا سـبق أن قلنـا. وإذا نظرنـا فـي سـيكولوجية الفرنسـي، قادنـا ذلـك إلـى القـول بـأن عيـوب الفرنسـي هـي النقيـض الـذي لا بديـل عنـه لمحاسـنه، وأن هـذه المحاسـن الاسـتثنائية ليسـت فـي الواقـع إلا اسـتخدامًا لبعـض هـذه العيـوب والتكيـف معهـا وتحويلهـا. وقـد قيـل: إن الطبيعـة قـد وهبتنـا نوعًـا مـن آليـة للتـوازن التـي تقوّمنـا دائمًـا فـي الوقـت المناسـب وتمنعنـا مـن أن نقـع فـي الحفـرة: ففرنسـا الكاثوليكيـة الصادقـة دائمًـا فـي كاثوليكيتهـا هـي أيضًـا بلـد العلمانيـة. وهـذا الشـعب الـذي لا يسـتجيب لنظـام والـذي يصعـب حكمـه، ليـس بشـعب فوضـوي، وإذا مـا جنـح إلـى عـدم النظـام قليـلًا، فإنـه يخشـى فـي النهايـة أن يقـع فـي الفوضـى ويتـردى فـي الاضطـراب. وزيـزان الحصـاد هـذه هـي أيضًـا وغريزيًـا النمـل الأكثـر تجميعًـا وادخـارًا فـي العالـم.

وكل هـذا يشـترك فيـه جميـع الفرنسـيين، وتلـك مـن سـمات أي حضـارة. فـلا تقـاس حضـارة مـن الحضـارات بعـدد قممهـا، وإنمـا تقـدر بمتوسـط ارتفاعهـا، وهـي ليسـت مـن صنـع عظمـاء رجالهـا، ولكنهـا مـن صنـع المسـتوى الأدنـى لعناصرهـا البشـرية، وخصوصًـا مـن صنـع إمكانـات أقـل عنصـر مـن عناصرهـا. ومـن هـذه الوجهـة كان الاندمـاج لدينـا تامًـا تقريبًـا. فسـواء أكنـا «جرمانييـن» أم «كلتييـن» أم «متوسـطيين»، وسـواء أكنـا مـن أصـل شـعبي أم بورجـوازي، فـإن قدراتنـا علـى الإنجـاز والتطـور واحـدة تمامًـا. تمتلـك باريـس بيئـة ثقافيـة فكريـة راقيـة تعطـي الانطبـاع بأنهـا بيئـة للعقـل فريـدة فـي العالـم. غيـر أن الأجنبـي الـذي يعرفنـا، يؤثـر فيـه أكثـر، ذلـك الإدراك السـليم الفطـري، والـذكاء المنفتـح، والطبـع الإنسـاني الباهـر، إذ يصادفهـا لـدى رجـل الشـعب أو لـدى الفـلاح. وثمـة تقاليـد عريقـة دهريـة أتاحـت ونمّـت فـي بلادنـا (التـي بـدت حتـى الآن مميّـزة) فنًّـا للحيـاة، وفـي الآن نفسـه حكمـة قوامهـا القصـد والاعتـدال؛ لأننـا تعلمنـا أن الحيـاة قـد تعطـي كثيـرًا، بيـد أننـا لا نسـتطيع أن نطلـب منهـا كل شـيء. ولربمـا كانـت هـذه هـي الحضـارة الحقـة، الوحيـدة.

الفصل الرابع
«العناد» عند الشعب الإنكليزي

لكي نفهم الشعب الإنكليزي على حقيقته، يجب أن نبدأ بتحديد موقع إنكلترا. قال المؤرخ الفرنسي ميشيليه (Michelet) في مستهل دروسه في الكوليج دو فرانس: «إنكلترا جزيرة. أنتم الآن تعرفون عن تاريخها ما أعرف». والملاحظة التي أبداها هذا المؤرخ العظيم لا تزال مهمة على الرغم من أن الأمر لم يعد يتعلق اليوم بجزيرة بكل معنى الكلمة. بيد أن ما يسترعي نظرنا ليس هو الوضع الجزيري، بل صغر مساحة هذه المملكة المتحدة التي لا تبلغ (إنكلترا واسكتلندا وأيرلندا الشمالية) سوى ثلاثمئة وثلاث عشرة ألف كيلو متر مربع، وتقدر مساحتها بنسبة 42 في المئة من مساحة فرنسا، و2 في المئة من مساحة الأراضي التي تتكون منها الكرة الأرضية، ولكن مع الإمبراطورية (أو بالأحرى الكومنولث كما تدعى الآن) صارت الأراضي الخاضعة للنفوذ البريطاني تشمل أكثر من ربع العالم. إذًا لا تستمد إنكلترا عظمتها من أرضها فحسب، بل إن لهذه العظمة أسسًا ومصادر أخرى.

هناك خمسة وأربعون مليونًا من الأنفس تعيش على هذه الصخرة، وقد مارس هؤلاء الإنكليز عملًا حاسمًا في العالم، وساهموا بنصيب يعادل - أو يفوق - غيرهم في تطور الحضارة الغربية، وهذا الأمر يسترعي النظر ويدفع إلى الإعجاب منذ الوهلة الأولى، ذلك أن بنيان هذه القوة الكبرى قد أقيم على رقعة صغيرة من الأرض. بيد أنه في ذات الوقت الذي نلمس فيه عظمة هذا الإنجاز، نرى فيه الضعف، فلكي تقام مثل هذه الإمبراطورية ولكي يحافظ على بقائها عبر قرون عدة، كان لا بد من وجود مجموعة صفات فريدة حقًا، كما نتوقع.

وليس ثمة موضوع أصعب من السيكولوجية البريطانية، ولم يسترع شعب ما أكثر من هذا الشعب انتباهنا واهتمامنا. فلقد شغف كثير من أعظم وأفضل أدبائنا وكتابنا بدراسة هذا الشعب، أمثال فولتير[1] (Voltaire) وتان[2] (Taine) وبوتمي[3] (Boutmy) وأبل هرمان[4] (Abel Hermant) وفي أيامنا هذه

---

(1) فرنسوا ماري أرويه الملقب بفولتير (1694-1778) (François-Marie Arouet) فيلسوف فرنسي طبع القرن الثامن عشر بفكره وتحرره وكانت له مكانة مرموقة في الذاكرة الجمعية الفرنسية والعالمية. وهو من فلاسفة عصر الأنوار الأساسيين وزعيم حزب الفلاسفة. ارتبط اسمه بالكفاح ضد التعصب الديني الذي سماه الشائن (l'Infâme) ودعا إلى التسامح وحرية التفكير والتعبير وكان معاديًا بشدة لكهنوت الكنيسة ومؤمنًا بإله خارج الأديان المعروفة. ومن سياسته الدعوة إلى ملكية معتدلة ليبرالية متنورة يؤدي فيها الفلاسفة الدور الرئيس. وهو مثال المثقف الملتزم بقضايا الحقيقة والعدالة استخدم سمعته للدفاع عن ضحايا عدم التسامح الديني والعسف. وإلى ذلك كله فقد تنوعت أعماله الفلسفية والفكرية والفنية والأدبية والمسرحية والروائية حتى طارت شهرته بوصفه أهم كاتب فرنسي في القرن الثامن عشر. ولعل أهم إنجازاته هو القاموس الفلسفي المحمول (Dictionnaire philosophique portatif)، الرسائل الفلسفية (Lettres philosophiques)، رسالة في التسامح (Traité sur la tolérance) مسائل حول الموسوعة (Questions sur l'Encyclopédie).

(2) هيبوليت تان (1828-1893) (Hippolyte Adolphe Taine) فيلسوف ومؤرخ فرنسي عاش يتيمًا في ملجأ باريسي، ولكنه تفوق في الدراسة ونال شهادتي بكالوريا علمية وفلسفية وجائزة التفوق في الامتحانات الرسمية العامة، والأول على دفعته في الدخول إلى قسم الآداب في معهد المعلمين العالي الذي يعد أساتذة التعليم الثانوي الرسمي. تبنى تان الأفكار الوضعية والعلموية التي شاعت في زمنه ونال الدكتوراه عن قصص لافونتين. عرف عنه اهتمامه بالأدب والشعر والفن ناهيك بالفلسفة والتاريخ حيث نشر مقالات فلسفية وتاريخية في أهم المجلات في عصره. وأبرز مؤلفاته تاريخ الأدب الإنكليزي (Histoire de la littérature anglaise) في خمسة مجلدات. أثرت هزيمة فرنسا عام 1870 في معنوياته وكذلك انتفاضة كومونة باريس فانكفأ يكتب وأصدر خلال سنوات (1875-1893) مؤلفه المعلم في مجلدات عدة تاريخ أصول فرنسا المعاصرة (Histoire des origines de la France contemporaine).

(3) إميل بوتمي (1835-1906) (Émile Boutmy) كاتب وسياسي فرنسي من المساهمين الأساسيين في تأسيس علم السياسة. درس القانون والحقوق ونال الدكتوراه وصار أستاذًا للقانون العام ولتاريخ الحضارات المقارن في المدرسة الخاصة للمهندسين (École spéciale d'architecture). وبسبب ما لاقاه من جهل الناس بالمسائل السياسية خلال الحرب الفرنسية-البروسية وانتفاضة الكومونة أسس مع رينيه ستورم (René Stourm) المدرسة الحرة للعلوم السياسية (l'École libre des sciences politiques) المشهورة اليوم باسم (Sciences Po). ومن أهم مؤلفاته تطور الدستور والمجتمع السياسي في إنكلترا (Le Développement de la constitution et de la société politique en Angleterre).

(4) أبل هرمان (1862-1950) (Abel Hermant) كاتب ومسرحي فرنسي دخل الأول على دفعته في معهد المعلمين العالي قسم الآداب وتفرغ للأدب والشعر. تخصص في الدراسة الساخرة لعادات

أندريه موروا[5] (André Maurois). ومع ذلك فما من شيء في تاريخنا ولا في مزاجنا ييسر لنا تفهم هؤلاء الجيران القريبين منا والبعيدين منا في آن... وإنني حين أعبر ممر كاليه وأهبط في لندن، أشعر بأني قد هبطت عالمًا آخر. فإذا ما تعودت على هذا الجو الإنكليزي شعرت أني لم أعد أفهم بلدي. لم أستطع - ولو مرة واحدة - أن أفهم وجهة النظر البريطانية والفرنسية معًا، وقد نجحت أحيانًا في فهم الاثنتين، الواحدة إثر الأخرى. ولم أعرف شعبين أكثر غموضًا أحدهما تجاه الآخر من هذين الشعبين؛ وهذه القناة (channel)، حيث نلمح من مدينة دوفر، شواطئ فرنسا، هي من الناحية المعنوية عميقة وواسعة عمق وسعة محيط كامل.

(1)

لكي نتبين العوامل والظروف التي كونت الشعب الإنكليزي، يجدر أن نميز في هذا المقام: الوراثة والبيئة واللحظة بحسب تعبيرات تان (Taine).

إنكلترا جزيرة بلا ريب، ولكنها قريبة جدًا من أوروبا، وهذا القرب هو الذي حدد تكوينها العرقي من سلالات بشرية تتابعت عليها. فقد جلبت الغزوات إلى العرق الأصلي «الأيبيري» وهو عنصر سابق للكلتيين، جلبت له من داخل أوروبا - عناصر الكلت والرومانيين والسكسونيين والنورمانديين.

وتقاليد الزمن الجميل وعرف الشهرة بسبب ذلك. خاض مبارزة مسلحة مع الدوق دوساغان الذي اعتبر أن هرمان أهانه في إحدى مسرحياته. دخل الأكاديمية الفرنسية عام 1927 وشارك في الكتابة بأبرز صحف تلك الأيام. تعاون مع الألمان خلال احتلالهم لفرنسا وحكم عليه بالسجن في 15 ديسمبر 1945 بتهمة التعاون مع الاحتلال وطرد من الأكاديمية. حصل على عفو وخرج من السجن عام 1948 وحاول تبرير موقفه خلال الحرب في كتابه الدفتر الثالث عشر: أحلام وذكريات فيلسوف منفي (1949) (Le Treizième Cahier: rêveries et souvenirs d'un philosophe proscrit).

(5) أندريه موروا (1885-1967) (André Maurois) واسمه الحقيقي إميل سلومون فيلهلم هرزوغ (Émile Salomon Wilhelm Herzog) روائي وقاص وكاتب سير فرنسي من أسرة يهودية امتهنت الصناعة تتلمذ في روان على الفيلسوف آلان (Alain) وترك المصلحة العائلية ليتفرغ للأدب. خدم في الجيش وكان مترجمًا للقوات البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. نشر روايات عدة عن أيام الحرب، ولكنه اشتهر أكثر بالسير التي كتبها عن حياة كتاب كبار مثل فيكتور هوغو وبلزاك وجورج صاند ودزرائيلي وألكسندر فليمنغ والجنرال ليوتي.

ولكـن يجـدر ألا ننسـى أن آخـر هـذه الغـزوات يرجـع إلـى أكثـر مـن ألف سـنة، وتنقسـم هـذه الغـزوات إلـى أربع غـزوات بشـرية.

الغـزوة الأولـى كانـت غـزوة الكلـت مـن القـرن السـادس قبـل الميـلاد حتـى عصر قيصـر. وتشـمل «البروتانييـن» (نسـبة إلـى سـكان مقاطعـة بروتانيـا (Bretagne) فـي شـمال فرنسـا) والغايـل (Gaél)، وقـد أدخـل هـذان العرقـان شـعبًا ولغـة وحضـارة فـي البـلاد. ثـم أعقـب ذلـك الغـزوة الرومانيـة مـن عـام 55 قبـل الميـلاد إلـى عـام 410 بعـد الميـلاد، ولـم تكـن هـذه الغـزوة، إلا احتـلالًا عسـكريًا علـى مسـتوى صغيـر جلـب معـه نوعًـا مـن التنظيـم الإداري. وفـي الشـمال، لـم يحصـل أن غـزا أحـد أرض الغايـل فـي اسـكتلندا. أمـا الجنـوب، فقـد عـرف النظـام الرومانـي، ونسـتطيع أن نقـرر أنـه مـا زال متأثـرًا بـه. وتأتـي بعـد ذلـك الغـزوة الجرمانيـة فـي مـا بيـن القرنيـن الخامـس والحـادي عشـر، وهـي غـزوة دفعـت بالكلـت نحـو الغـرب فاحتـل السكسـون والاسـكندنافيون الشـاطئ الشـرقي علـى بحـر الشـمال مـن فرنسـا، ثـم تعمقـوا فـي الداخـل واسـتقروا فـي البلـد. وسـيكوّنون العنصـر المتغلـب فـي الشـعب البريطانـي والـذي سـيترك أعظـم الأثـر فيـه كمًـا وكيفًـا. فالإنكليـزي اليـوم مـا زال فـي جوهـره أنكلوسكسـونيًا. وأخيـرًا تأتـي فـي المرتبـة الرابعـة الغـزوة النورمانديـة فـي عـام 1066 - وهـي - إلـى حـد مـا - صـورة للغـزوة الرومانيـة، إذ هـي عبـارة عـن: احتـلال عسـكري وسـيطرة سياسـية لجماعـة مـن أرسـتقراطية الأرض خلفـت المحتليـن السـابقين. وقـد جلـب النورمانديـون معهـم اللغـة الفرنسـية ونظامًـا للحكـم وحضـارة إن لـم تكـن رومانيـة خالصـة، فـإن لهـا فـي الأقـل طابـع الحضـارة الرومانيـة، لأن هـؤلاء الاسـكندنافيين المؤجليـن - الذيـن كانـوا بالأمـس مـن البرابـرة - قـد تهذبـوا بإقامتهـم قرنيـن فـي فرنسـا.

ولنسـأل أنفسـنا مـاذا أخـذت إنكلتـرا مـن هـذه الغـزوات المتعاقبـة. اثنتـان منهـا كانتـا غزوتـان ضخمتـان جلبتـا معهمـا خصوصًـا عـددًا كبيـرًا مـن النـاس: الكلـت والأنكلوسكسـون؛ أمـا الغزوتـان الأخريـان فكانتـا عسـكريتين فحسـب، وجلبتـا معهمـا خصوصًـا حكامًـا: الرومانييـن والنورمانديين. ونلاحـظ أن هـذه الغـزوات الأربـع لـم تندمـج أو يختلـط بعضهـا ببعضهـا الآخـر، وإنمـا تعاقبـت إحداهمـا إثـر

الأخـرى، أو تلازمـت الواحـدة مـع الأخـرى، أو دفعـت إحداهمـا الثانيـة، ولكنهـا لـم تنصهـر قـط، وكأن الأمـر عبـارة عـن طبقـات جيولوجيـة مـا زالـت ظاهـرة، وبفضلهـا لا يـزال الكلتـي حتـى اليـوم يتميـز بوضـوح مـن السكسـوني.

والفكـرة التـي يحملهـا الإنكليـز عـن أنفسـهم تتوقـف علـى هـذا التكويـن التاريخـي الـذي مـا زلنـا نلمسـه بوضـوح فـي التكويـن الاجتماعـي الحاضر لهـذا الشـعب؛ طالمـا أنه يوجـد دائمًـا غـزاة ومغلوبـون، وسـادة وتابعـون. لقـد خفّـت مـن غيـر شـك التمايـزات الواضحـة، ولكنهـا مـا زالـت موجـودة، وعندمـا ننظـر فـي سـيكولوجية الشـعب البريطانـي فـلا بـد أن نحـدد: هـل نحـن أمـام كلتييـن أم سكسـونيين أم نورمانديـيـن.

الكلتـي الـذي يُعتبـر غريـب الأطـوار لا بـل متقلبًـا نوعًـا مـا، يلمـع أكثـر بوصفـه فـردًا، فلنتذكـر مثـلًا: برنـارد شـو، أو لويـد جـورج. أمـا الرجـل السكسـوني - العمـود الفقـري لإنكلتـرا - فيبـدو علـى العكـس أكثـر الإنكليـز قوميـة وأصالـة: إنـه هـو جـون بـول[6] (Jhon Bull) حامـلاً ذلـك الجانـب الجرمانـي للخلُـق البريطانـي الـذي لا بـد أن يلفـت النظـر. أمـا عـن النورمانـدي هـذا الاسـكندنافي المؤجـل والمتحـول إلـى رومانـدي، فإنـه - بـلا جـدال - أعـرق الأعـراق وأكثرهـا أرسـتقراطية وأناقـة. ومـن المستحسـن فـي إنكلتـرا أن يسـمى الشـخص هاركـورت (Harcourt) أو كورتنـي (Courtney) أو تالبـوت[7] (Talbot). وقـد كان زمـن أدار فيـه شـؤون إنكلتـرا السكسـونيون والنورمانديـون، ولكـن المـد الديمقراطـي نشـر الكلتيـة حديثًـا فـي إنكلتـرا: فهـل كان هـذا فـي مصلحتهـا، لأن المسـألة لا تتوقـف علـى لمعـان الذهـن فحسـب؟

وإذا حاولنـا أن نلخـص التعليـق السـابق، فإننـا نصـل إلـى هـذه الخاتمـة، وهـي أن المصيـر البريطانـي تحـدده العزلـة الناتجـة عـن الطبيعـة الجزيريـة. غيـر أن هـذه العزلـة لـم تكـن بحيـث حمـت الجزيـرة مـن كل الغـزوات؛ ولكـن بحـر الشـمال وممـر

(6) شخصية خيالية ترمز إلى البريطاني العادي عمومًا والإنكليزي خصوصًا.

(7) أسماء عائلات نورماندية من أصل فرنسي قديم دخلت إلى بريطانيا بعد الغزو النورماندي لها عام 1066.

كاليه حفظاها من الغزوات طيلة تسعة قرون. وفي الحقيقة أنه منذ عام 1066 أي منذ معركة هاستنغز لم يحدث أي اتصال عنصري بين الشعب الإنكليزي وأوروبا. ويمكننا أن نسجل - من دون شك - استيطان بعض اللاجئين الفرنسيين من البروتستانت في القرن السابع عشر، ثم في القرن التاسع عشر التسلل الخفي إلى حي المال لعناصر ألمانية أو يهودية، ولكن تلك الهجرات لا تعدو في مجموعها هجرات فردية، بحيث إن إنكلترا اليوم يصعب عليها أن تعتبر نفسها بلدًا أوروبيًا حقًا.

وهناك وجه آخر لهذا التكوين وهو الفتوة الإثنية لهذا الشعب، ونحن الفرنسيين - بوصفنا لاتينيين أو من سكان البحر المتوسط - قد خلفنا وراءنا ماضيًا يرجع إلى أكثر من ألفي سنة، أما الإنكليزي فلا يستطيع مجاراتنا في هذا الميدان، ونتيجة لهذا فهو أقرب إلى الفطرة، وأقرب أيضًا إلى البربرية الأولى منا. وهو يستمد من هذا تلقائية ونضارة لا نعرفهما نحن، كما ويستمد من ذلك أيضًا صبيانية (ولدنة) لا نستطيع - نحن الفرنسيين - أن نألفها. وحين كنت أعمل مترجمًا في الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى، أدهشني كثيرًا ما في أخلاق ضباطي، وخصوصًا الجنرالات منهم، من طفولية. ففي حين كنت أقرأ - كباقي زملائي الفرنسيين - مؤلفات فلسفية أو تاريخية - كان الجنرال يطالع الروايات البوليسية. وفي حين كنت أشغل أوقات فراغي في المطالعة أو المحادثة، كنت أراه ينصرف إلى مداعبة كلبه إلى ما لا نهاية، إذا لم يكن يلعب بالكرة مع مرؤوسيه، وهذا الولع بالكرات هو كما ذكرت ماري بوردن[8] (Mary Borden) خاصية بريطانية صرفة؛ فهي تقول: «اللعب بالكرة على اختلاف

---

(8) ماري بوردن (1886-1968) (Mary Borden) من أوائل الروائيين الأنكلوأميركيين ولدت لأسرة ثرية في شيكاغو. خلال الحرب العالمية الأولى تبرعت ببناء مستشفى ميداني من أموالها الخاصة في بريطانيا حيث كانت تعيش، واشتغلت هي نفسها فيها ممرضة... تزوجت الجنرال سبيرز 1918. برعت في كتابة القصص القصيرة. في بداية الحرب العالمية الثانية أسست مستشفى ميدانيًا نقالًا في فرنسا إلا أنها اضطرت إلى المغادرة بعد الاحتلال الألماني. جرى دمج الوحدة الطبية النقالة بجيش فرنسا الحرة في الشرق الأوسط، حيث رافقت ماري بوردن قواته حتى أفريقيا الشمالية ثم إيطاليا ففرنسا. نشرت رواية عن تلك التجربة نالت شهرة عالمية عنوانها، رحلة في ممر مظلم (Journey Down a Blind Alley)، وهي تتطرق فيها إلى خيبة أملها من قدرة الفرنسيين على بناء مقاومة فعالة ضد الألمان.

أنواعها يحفظ الصحة في حالة جيدة دائمًا، وفي الوقت الذي تشعرون فيه أن ليس لديكم عمل، ادفعوا بالكرات، كرات الغولف أو التنس أو البولو. فدفع شيء ما أو ضربه بطريقة متقنة هو شيء من أعظم المتع». ونحن نجد هنا خصلة قومية عميقة تحاكي ما لدى الألماني من متعة السير بنظام عسكري مرصوص تحت قيادة نقيب أو رائد.

وإذا انتقلنا إلى دراسة البيئة الجغرافية لهذا البلد، فإننا سنلاحظ للحال أنه ما من بلد كان فيه للمناخ هذا التأثير الحاسم والجلي في آن. والمناخ هنا هو نموذج المناخ البحري المحيطي النموذجي، الثابت، غير المتقلب، وهو ليس باردًا فحسب إنما هو جليدي، ورطب خصوصًا. وتهب على هذه البلاد رياح غريبة تسودها ثلاثة أرباع العام، وتسقط عليها الأمطار دائمًا وتتخللها فترات صحو قد تحيلها النسمات النقية للمحيط الأطلسي إلى فترات رائعة. وفي مثل هذا المناخ الذي لا يعد مؤلمًا وإن كان لا يخلو من قسوة أحيانًا، لا بد كي نستمر في الحياة، من بذل جهد متواصل. فالاستيقاظ صباحًا يتطلب في إنكلترا طاقة، مثل عملية انطلاق صعبة، وهذا يفسر استيقاظ الإنكليز عادة متأخرين، كما يوضح لنا سر تناولهم إفطارًا مغذيًا مكوّنًا من «البوريدج» (مصنوع من الشوفان الذي يوقظ الخيول) ومن لحم الخنزير والبيض... إلخ، ولعله يمكن تفسير عادة تناول الخمور إلى ذلك أيضًا. كان أبي لا يشرب الخمر، ولكن عندما زرنا معًا مدينة غلاسكو في منتصف شهر تموز/يوليو طلب زجاجة من النبيذ الفرنسي.

لقد ترددت كثيرًا على جامعة أكسفورد، وكان يعتريني العجب وتتملكني الدهشة من بطء طلوع الشمس في هذه البلاد... فما أشد الفرق بينها وبين بلاد البحر المتوسط.

ينتج عن ذلك، أن الشعب الإنكليزي سيء التكيف مع مناخه. من هنا، تجد في سلوكه ردات فعل خاصة جدًا إزاء البيئة الطبيعية. فمن ناحية نرى خمولًا لدى العاديين الذين يواجهونه بالنوم. لكن من جهة أخرى يقاوم الأقوياء الحيويون وتتضاعف طاقتهم بهذه المقاومة ذاتها. فالألعاب الرياضية عامة في إنكلترا،

وهـي فـي الحقيقـة رياضيـة فعـلًا، وهـذا سـر وجودهـا هنـا، فهـي ليسـت هوايـة بقـدر ما هـي ضـرورة، إذ هـي ثمـن محافظـة العـرق علـى بقائـه. وفـي هـذا تجـد البروتسـتانتية الفرصـة لتنميـة إحـدى فضائلهـا الأساسـية ألا وهـي العزيمـة الواعيـة بذاتهـا. وثمـة حِكَـم شـائعة تعبّـر أعظـم تعبيـر عمـا فـي الإصـلاح (البروتسـتانتي) مـن قـوة معنويـة ومـا فـي الإنكليـز مـن عنـاد، ونذكـر مـن تلـك الحكـم هاتيـن الحكمتيـن: «خلقـت الحيـاة لنسـلكها صاعديـن لا هابطيـن»... «خلـق الإنسـان ليسـمو علـى ذاتـه».

ولا يكفـي المنـاخ لمعرفـة إنكلتـرا، بـل يجـب أن نضيـف إلـى هـذا وضعهـا علـى الخريطـة. فهـي عاشـت دائمًـا منفصلـة، إذ كانـت فـي القـرون الوسـطى جزيـرة صغيـرة غريبـة الأطـوار، وإقليمًـا متطرفًـا منعـزلًا مـن أقاليـم أوروبـا، حيـث لا يوجـد بعدها شـيء، لا غربًـا ولا شـمالًا... وقـد غـدت منـذ القـرن الخامـس عشـر «سمسـارًا» عالميًـا فـي التجـارة، مـن اللحظـة التـي أصبـح فيهـا المحيـط الأطلسـي، بعـد الاكتشـافات الكبـرى، همـزة وصـل تربـط بيـن القـارات. وحـدث مـن ذلـك الحيـن تناقـض بيـن جزيريتهـا التقليديـة وهـذه الدوليـة التجاريـة التـي صـارت طابـع البـلاد ومصيرهـا الحقيقـي. وهـذا التناقـض هـو التعبيـر الخالـص عـن الشـخصية البريطانيـة؛ لأنـه إذا كانـت إنكلتـرا - بحسـب طبعهـا - قـد ظلـت أكثـر البلـدان «جزيريـة» فـي العالـم، فـإن مصالحهـا واتصالاتهـا وعلاقاتهـا العالميـة قـد اضطرتهـا إلـى أن تعيـش مـن التبـادل التجـاري أي مـن الاتصـال الدولـي. وفـي الحقيقـة فإننـا نجـد فـي نفـس كل إنكليـزي هـذا التناقـض.

(2)

وإذا مـا تحدثنـا عـن الخُلـق الإنكليـزي، فـإن أول سـؤال يتبـادر إلـى أذهاننـا هـو عـن طبيعـة الـذكاء البريطانـي. وتبـدي فرنسـا فـي هـذا الموضـوع رأييـن متعارضيـن. فبعـض الفرنسـيين - ونحـن نسـتذكر هنـا كتـاب ديموليـن[9] (Demolins) - قـد أكـدوا

(9) إدمون ديمولين (1852-1907) مثقف فرنسي اجتماعي معاد للثورة ومن دعاة الحرفية التعاونية (إيجاد مؤسسات حرفية نقابية لها سلطات اقتصادية واجتماعية وسياسية). كان من تلامذة لو بلاي (Le Play) ومديرًا لمجلة العلم الاجتماعي (La Science sociale). قام برحلة إلى بريطانيا 1897 ونشر عند عودته إلى فرنسا كتابه الشهير سر تفوق الأنكلوسكسون (A quoi tient la supériorité des Anglo-saxons).

بحماسة «تفوق الأنكلوسكسون» وكنت طوال فترة شبابي أسمع آيات المديح المتكررة والحماسية، والتي كانت تضايقني تقريبًا وكأنها تقريع، عن طريقة عيش البريطانيين، العملية والنشطة، والتي كانوا يعارضونها مع ذوقنا البالي والعقيم للأدب. وكان لا بد - في ذلك العصر في الأقل - من الاعتراف صراحة بنجاح هؤلاء الجيران السعداء والفعّالين، ولكن الوسائل التي كان يجري مدحها أمامنا لم تكن تتفق مع تربيتنا الكلاسيكية، فكان لا بد بالضرورة من حدوث ردة فعل. فكانت الموضة يومها الادعاء بأن الإنكليز ليسوا أذكياء. واشتهرت بيننا عبارة حمقاء تقول: «وماذا يهم أن أكون غبيًا؟... يكفي أن لي أناقة إنكليزية!». وإذا سمحت لنفسي بمناقشة هذه العبارة الوقحة، فذلك لأن الإنكليز أنفسهم يشعرون بسرور غريب في الادعاء بأنهم «أغبياء». والحال أن الكولونيل الشهير برامبل[10] (Bramble) يقول شيئًا مشابهًا غير أن المترجم، محاوره، يبدي فهمه الصحيح للأمر حين يجيبه: «ما هذا التأنق؟». وإذا كان أصدقاؤنا في ما وراء المانش أغبياء حقًا كما يلذ لهم أن يصفوا أنفسهم، فلا بد أن تكون هذه الغباوة ذات طبيعة خاصة؛ لأنه ليس هناك أي تواضع في هذا الاعتراف الذي يتحفوننا به. وقد عرفت السير تشارلز ديلك[11] (Sir Charles Dilke) وهو واحد من أذكى البريطانيين الذين عرفتهم وأكثرهم لمعانًا، وقد سمع أحد محدثيه يسأله: «ما هي يا سيدي فكرتك العامة؟»، فقاطعه على الفور سير ديلك بطريقة متكلفة وبلهجة يشوبها شيء من التهكم: «سيدي، أنا رجل إنكليزي، وبهذه الصفة فإنه ليست لدي آراء عامة». ويجب أن نعترف أنه لكي يفخر المرء بأنه ليس لديه آراء عامة، فهذا لا بد من أن يتطلب درجة كبيرة من الذكاء.

والحقيقة أن الذكاء الإنكليزي هو من نوع خاص. فالإنكليز يحتقرون ذكاءنا القائم على المنطق. ويحلو لهم دائمًا أن يدعوا أنهم ليسوا من أنصار المنطق، وأنهم متمردون على المذهب العقلي لديكارت العدواني في منطقه،

(10) إشارة إلى رواية أندريه موروا الشهيرة صمت الكولونيل برامبل.

(11) تشارلز ديلك (1843-1911) (Charles Dilke) سياسي بريطاني من الاتجاه الراديكالي، عمل أمينًا عامًا للخارجية ووزيرًا في حكومة غلادستون وكان معارضًا عنيفًا للملكة فيكتوريا. اشتهر بعد عام 1860 بكتاباته الممجدة للإمبريالية البريطانية.

والـذي يحلـل ويتبيّـن ويعيـد البنـاء. وهـم فـي أعماقهـم، لا يـرون أن المشـاكل قابلـة لأن تحـل بطريقـة هندسـية مُرضيـة. أمـا الفرنسـي الحامـل سـيكولوجية الرجـل صاحـب الدخـل الصغيـر - فإنـه يريـد دائمًـا أن يبحـث لـكل شـيء عـن حـل، وبعـد ذلك يسـتريح، ليأخـذ مـا يعـادل تقاعـدًا. أمـا أصدقاؤنـا البريطانيـون، فإنهـم أكثـر حكمـة لأنهـم يعرفـون أن الطبيعـة ليسـت قابلـة لمثـل هـذه الادعـاءات. وفـي رأيهـم إن الحلـول الوحيـدة التـي يمكـن الوصـول إليهـا هـي حلـول مؤقتـة هشـة زائلـة، وتحتـاج إلـى تعديـلات وتصويبـات دائمـة. ففـي زمـن الملاحـة بالشـراع كانـوا يرتبـون السـارية وموضـع السـفينة واتجاههـا بحسـب الريـاح والتيـارات التـي تتغيّـر بشـكل دائـم، فـكان ذلـك تكيفًـا مسـتمرًا. ويتصـف الرجـل الإنكليـزي فـي الحيـاة، وخصوصًـا فـي الحيـاة السياسـة، بتصـرف ربـان السـفينة الشـراعية: فهـو يتطـور فـي جـو عـدم الاسـتقرار بقبولـه هـذه القلقلـة علـى أنهـا حقيقـة لا يمكنـه تبديلهـا، والتـي مـن العبـث الاحتجـاج عليهـا. وليـس الإنكليـز فريديـن فـي هذه النظـرة فقـد آمـن بهـا الصينيـون مـن قبلهـم، ومـن بعدهـم الإيطاليـون أيضًـا. وهـا هـو لوزاتـي[12] الـذي احتـج عليـه أحـد أصدقائـي بالقـول: «ولكـن يـا معالـي الوزيـر ليـس هـذا حـلًا»، فمـا كان منـه إلا أن أجابـه بلهجتـه المتأنقـة التـي تعطـي لكلامـه نكهـة مميـزة للغايـة: «ولكـن يـا صديقـي العزيـز، ليـس ثمـة مـن حلـول أبـدًا».

هـل أعتـرف بأنـي أشـعر بنـوع مـن التعـب عندمـا أجـد نفسـي مضطـرًا إلـى هـذا التوضيـح مـرارًا وتكـرارًا. وأخشـى أن نكـون - نحـن الفرنسـيين - متمسـكين دائمًـا بأمـل إنجـاز شـيء نهائـي: فنحـن نبنـي حواجـز مـن الحجـر تتحـدى الزمـن، ونبـرم معاهـدات مصوغـة صياغـة أصوليـة، ونرفـع ذلـك كلـه فـي وجـه عواصـف التاريـخ الهائجـة. ونحتفـظ بإيماننـا بالـذكاء. فعندمـا نقـول عـن شـخص مـا: «إنـه ذكـي» نعتقـد بأننـا قلنـا كل شـيء. ولكـن يـا أسـفًا! فالفرنسـيون كلهـم أذكيـاء تقريبًـا، ومـع هـذا فإننـا لسـنا أفضـل حـالًا. أمـا الإنكليـزي فهـو يحتـرس - بـلا حيـاء - مـن ذوي الـذكاء اللامـع. إنـه يعجـب بهـم ولا شـك، ولكنـه إعجـاب مـن يسـاوره القلـق وعـدم الارتيـاح

(12) لويجي لوزاتي (1841-1927) (Luigi Luzzatti) من رجال القانون والسياسة والاقتصاد في البندقية ثم روما. كان وزيرًا للمالية في أربع حكومات ثم رئيسًا لمجلس الوزراء، وهو أول رئيس وزراء يهودي في إيطاليا.

على نقوده حين يجد نفسه بالقرب من مشعوذ ماهر. وهو ينظر إلى رجل الفكر على أنه بهلوان، ويعتبر أن في «الفكرية» شيئًا من مرض لا يدري كنهه. وإنه ليضع أمام الصفات اللامعة، صفات متينة «خيرًا منها ألف مرة»، بحسب العبارة التقليدية، وهي صفات توحي في الأقل بالثقة، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حين يُفضل القادة المضجرين نوعًا ما، ويقول عنهم: إنهم مأمونو الجانب (safe)، في حين أن تدبيرًا صامتًا يُبعد مِن الحكم مَن يمتازون بالفصاحة الزائدة أو من يتمتعون بمواهب بارزة. ولنقرأ تأييدًا لهذا الرأي في كتاب البارزون في عهد فيكتوريا، بقلم ليتون ستراتشي[13] (Lytton Strachey)، الصورة التي باتت كلاسيكية لدوق ديفونشير لورد هارتنغتون[14] (Lord Hartington) الذي أرادت الملكة فيكتوريا أن تمنحه مقاليد السلطة مؤثرة إياه على غلادستون. ولنذكر أنه لو لم تقع الحربان العالميتان لما وصل رجال مثل لويد جورج[15] (Lyod George) أو ونستون تشرشل إلى رئاسة الحكومة. ومنذ سنوات دعيت لإلقاء محاضرة في كلية إيتون فسألت من دعوني: «كيف يجب أن أتحدث إلى الشباب»؟ فأجابوني بقولهم: «لا تكن لامعًا»، وهي إجابة لا تحتاج إلى تعليق.

---

(13) جيل ليتون ستراتشي (1880-1932) (Giles Lytton Strachey) كاتب وناقد بريطاني ومن مؤسسي جماعة بلومبسبوري (Bloomsbury Group) وصاحب كتاب البارزون في عهد فيكتوريا (Eminent Victorians). ولكنه اشتهر أكثر لإقامته نوعًا جديدًا من كتابة السير الذاتية يجمع العمق السيكولوجي والعاطفي إلى عدم التوقير وخفة الدم وقد نالت السيرة الذاتية للملكة فيكتوريا جوائز عدة.

(14) وليام كافنديش، ماركيز هارتنغتون ودوق ديفونشير العاشر (1917-1944) (William John Robert «Billy» Cavendish, Marquess of Hartington)، سياسي بريطاني من حزب المحافظين، وزوج كاثلين كينيدي شقيقة الرئيس الأميركي جون كينيدي، وكانت كاثوليكية وهو أنغليكاني فرفضت العائلتان زواجهما. توفي بعد أربعة أشهر فقط من زواجه برصاص قناص في بلجيكا خلال الحرب العالمية الثانية حيث كان ضابطًا في الجيش البريطاني.

(15) دايفد لويد جورج (1863-1945) (David Lloyd George, 1st Earl Lloyd-George of Dwyfor) سياسي بريطاني ليبرالي ورجل دولة أدخل إصلاحات عديدة أدت إلى إقامة ما عرف باسم دولة الرفاه. كان وزير دولة لشؤون الاقتصاد والمالية ومديرًا للخزينة. وأشهر أدواره أن كان رئيسًا للوزراء في حكومة الائتلاف الوطني التي قامت لمواجهة الحرب (1916-1922)، وأدى الدور الرئيس في مؤتمر السلام بباريس 1919 الذي أعاد تنظيم أوروبا بعد الحرب وهزيمة ألمانيا. كان له أبلغ الأثر في الحياة السياسية والعامة في بريطانيا القرن العشرين، خصوصًا وأنه استعد للحرب بإدخال أنظمة الرعاية الاجتماعية والرفاهية في بريطانيا. وكذلك كونه قائدًا كسب الحرب ثم أعاد توحيد أوروبا.

تلـك آراء يصعـب علـى الفرنسـيين وهـم أتبـاع ديـكارت أن يستسـيغوها؛ فهـم مـا زالـوا يؤمنـون بالعقـل وقدرتـه، أمـا الإنكليـزي فإنـه يعلـن بطيبـة خاطـر إفـلاس العقـل، وهـو يفعـل هـذا بشـيء مـن السـخرية الواثقـة بنفسـها، والتـي أعتـرف أنهـا تغضبنـي إلـى حـد مـا، ولـو أنـه كان فـي الإنكليـزي شـيء غيـر سـليم لوصفـت تلـك السـخرية بالسـادية. وربمـا كان علينـا أن نعتقـد بـأن مـا ينكـره الإنكليـزي ليـس هـو الـذكاء ولا العقـل، ولكنـه ينكـر صـورة الـذكاء لدينـا وصـورة العقـل لدينـا. ومـا مـن أحـد عـرض وجهـة النظـر هـذه خيـرًا ممـا فعـل سـير أوسـتن تشـامبرلين[16] (Austen Chamberlain) الـذي يمثـل صفـات بـلاده الحميـدة خيـر تمثيـل، حيـن قـال فـي خطـاب لـه فـي مجلـس العمـوم فـي الرابـع والعشـرين مـن آذار/مـارس 1925: «إننـي أحـذر كثيـرًا مـن المنطـق حيـن يطبـق علـى السياسـة، وتاريـخ إنكلتـرا جميعـه يبـرر قولـي هـذا، فلمـاذا جـرى تطورنـا بالسـلام وليـس بالعنـف علـى نقيـض شـعوب كثيـرة غيرنـا؟ ولمـاذا لـم نعـان فـي بلادنـا مـن الثـورات أو ردات الفعـل المفاجئـة مثـل مـا

---

(16) أوستن تشامبرلين (1863-1937) (Sir Joseph Austen Chamberlain) رجل دولة بريطاني حائز جائزة نوبل للسلام. والده كان رجل سياسة وصناعي كبير وراديكالي ثم عمدة لبرمنغهام ووجهًا رئيسًا في الحركة الليبرالية والاتحادية في نهاية القرن التاسع عشر. يبدو أن والده خطط لدخوله السياسة منذ صغره فأرسله إلى فرنسا للدراسة في معهد باريس للدراسات السياسية، وذلك في أول عهد الجمهورية الثالثة؛ ثم سافر إلى برلين ونهل من الثقافة السياسية للقوة العظمى الأوروبية الأخرى، ولكنه في رسائله إلى أسرته كان يتحدث عن تفضيله لفرنسا التي أعجب بشعبها وبثقافتها. وخلال دراسته في برلين بدأت تساوره الشكوك حول القومية الألمانية المتطرفة ودرس طباع الألمان فكتب عن الشوفينية البروسية التي تتسم بضيق الأفق والتفاخر وعدم التسامح. انتخب بعد عودته نائبًا عن حزب والده «الحزب الليبرالي الاتحادي». وواصل سياسة والده والمحافظة على إرثه وسمعته حتى عُيّن سكرتيرًا ماليًا لوزارة الخزينة 1902، ثم وزيرًا للاتصالات في حكومة المحافظ أرثر بلفور الذي كان والده معارضًا له بشدة. وبعد وفاة والده صار أهم شخصية من الاتحاديين الليبراليين مع كونه في الوقت نفسه أبرز المرشحين المحافظين (اندمج الحزبان في ما بعد 1912). وخلال الحرب ساهم في الضغط على المحافظين للمشاركة في حكومة ائتلاف وطني وصار وزير دولة للهند وقاد حملة دعم عملية غزو العراق لزيادة الهيبة الإنكليزية أمام احتمال قيام ثورة إسلامية في الهند تدعمها ألمانيا. تنقل بعد الحرب في مناصب حكومية ورسمية عدة، وكان قد أصبح زعيمًا لحزب المحافظين، وكان الزعيم المحافظ الوحيد الذي لم يستلم رئاسة الوزراء خلال القرن العشرين. وأهم إنجازاته أنه حين أصبح وزيرًا للخارجية (1924-1929) ساهم في تأمين انعقاد معاهدة لوكارنو (Locarno Pact) (1925) التي جمعته مع وزير الخارجية الألماني غوستاف سترسمان (Gustav Stresemann) ووزير الخارجية الفرنسي أريستيد برايان (Aristide Briand) ليواصل بعدها الدعوة إلى المصالحة الألمانية الفرنسية التي كانت برأيه ستحمي أوروبا.

عانتـه بـلاد أكثـر تمتعًـا منـا بـروح العقـل المنطقـي، علـى الرغـم مـن التغييـرات الكبيـرة التــي حصلــت عندنــا خــلال القــرون الثلاثــة الأخيــرة؟ ســبب ذلــك هــو أن الغريــزة والتجربـة علَّمتانـا بالدرجـة ذاتهـا أن الطبيعـة الإنسـانية ليسـت منطقيـة، وأنـه ليـس مـن الحكمـة أن نتعامـل مـع المؤسسـات السياسـية كمـا نتعامـل مـع أدوات المنطـق، وأنـه علـى العكـس مـن ذلـك عندمـا نمسـك عـن دفـع الآراء إلـى نتائجهـا المتطرفـة فإننـا نجد طريـق التطـور السـلمي والإصلاحـات الحقـة».

هـذا الغيـاب المتعمـد للمنهـج، هـو منهـج فـي حـد ذاتـه. يقـول الإنكليـز بفخـر: «سـأخوض غمـار هـذا الأمـر» (I'll muddle through)، وهـو لا يعنـي أبـدًا مـا يقولـه الفرنسـي: «سـأعرف كيـف أتخلـص مـن المـأزق» (Je me debrouillerai)؛ وإنمـا معنـاه «سـأخوض فـي الأمـر بقـوة... وبهـذا سأسـتطيع إيجـاد مخـرج». إن النجـاح الدائـم الـذي أحـرزوه طيلـة قـرون قـد جعلهـم يعتقـدون أنهـم ينجحـون بمحاسـنهم وعيوبهـم علـى حـد سـواء، ومـن هنـا فهـم يرضـون بـألا يصلحـوا أنفسـهم. لقـد ظهـر نجـاح نظامهـم طالمـا كان البلـد ثريًـا وكان يسـتطيع احتمـال الأخطـاء. أمـا الآن وقـد ضـاق الهامـش، أفـلا يجـب أن يفكـروا بطريقـة أدق وأعمـق؟

أي درس يمكـن لنـا أن نسـتخلصه مـن هـذا فـي علاقاتنـا مـع أصدقائنـا الإنكليـز لـو أننـا نظرنـا إلـى الأمـر علـى أنهـم يفكـرون جميعًـا بطريقـة السـير أوسـتن تشـامبرلين فحسـب. إننـا حينمـا نريـد مقارعتهـم الحجـة بالحجـة ونبغـي إقناعهـم بأسـانيد لا تقبـل المناقشـة، نشـعر أن ليـس ثمـة أمامنـا أحـد، ونحـس أننـا نصطـدم بنـوع مـن الجـدار الأصـم؛ ذلـك لأنهـم يقفـون فـي المناقشـة علـى أرض أخـرى، وبالتحديـد أكثـر، علـى مسـتوى آخـر. وأيًـا كانـت طبيعـة الحجـج والأسـانيد، فإنهـا لـن تزحزحهـم مـن هـذا الموقـف. أوضـح لـي شـخص بريطانـي مهـم، سـبق أن تفـاوض كثيـرًا مـع الفرنسـيين فـي المؤتمـرات الدوليـة، خطـة دفاعـه إزاء الفرنسـيين، قـال: «يحـدث دائمًـا، وغالبًـا بسـرعة كبيـرة، أن يقـول لـي ممثـل فرنسـا: وأخيـرًا يـا سـيدي، ألا توافـق علـى أن 2+2=4؟ فأجيبـه: كلا! وعندئـذ تبـدأ المناقشـة المثمـرة بيننـا فحسـب».

وبنـاءً علـى ذلـك، فإنـه ينبغـي لنـا حيـن نتفـاوض مـع الإنكليـز ألا نسـاوم معهـم

فـي أي حـال مـن الأحـوال. فهـم سيشـبّهوننا عنـد ذاك بتجـار غشاشـين[17] (mercantis) فقـدوا كل معاييـر الحكـم المنطقـي علـى محدثيهـم. والتعامـل الصحيـح معهـم هـو أن تحـدد موقفـك مـن أي مشـكلة وأن تتمسـك بـه مـن دون أن تكـون هنـاك حتـى حاجـة لإبـداء السـبب. فهـذه الصلابـة سـتجعلنا أكثـر قبـولًا وسـنحصل بهـذا علـى مـا نريـد أكثـر ممـا لـو كنـا نحاجـج منطقيًـا. ولا أسـتطيع أخيـرًا سـوى إبـداء الإعجـاب بهـذه الصخـرة التـي ترفـض أن تتزحـزح. أن يقـول الإنكليـزي عـن نفسـه إنـه غبـي! فكـم هـذا مريـح، وأنـا أقـول هـذا بغيـرة دنيئـة، إذ هـو يتحـرر مـن المنطـق ويسـير بسـهولة، لا بـل بـلا وعـي، فـي المتناقـض! كان لـورد كـورزون[18] (Lord Curzon) النائـب الملكـي السـابق فـي الهنـد يقـول فـي اسـتعلاء: «نحـن نحكـم بشـخصيتنا» والحـق أنـه بفضـل قـوة الخلـق والطبـع، غالبًـا مـا يكـون للعنـاد البريطانـي الكلمـة الأخيـرة.

وهـا نحـن نعـود مجـددًا إلـى النقطـة الأسـاس، أي إلـى القـوة الأخلاقيـة المعنويـة. وهنـا يبـدو الإنكليـزي مطبوعًـا بطابـع تكوينـه البروتسـتانتي، أي إنـه مـن الناحيـة الأخلاقيـة (ولا أقـول ذلـك عـن الناحيـة الفكريـة) فـرد بذاتـه. والديـن والسـلوك فـي نظـره مسـألتان شـخصيتان خصوصيتـان لا تسـتدعيان بالضـرورة وسـاطة إكليـروس، بالمعنـى الرومانـي للكلمـة. وهـو يعتبـر نفسـه مسـؤولًا شـخصيًا عـن أعمالـه وسـلوكه. والاهتمـام بالغفـران أمـر غريـب عليـه، لأنـه يعتقـد أنـه عليـه أن يتصالـح مـع ذاتـه، ومـع ضميـره. وهـذا الشـعور الصامـت بالواجـب هـو أحـد الخصـال المميـزة للخُلـق البريطانـي: فالإنكليـزي الـذي يحسـن عملـه، لا يطلـب تشـجيعًا ولا ثنـاء مـن رؤسـائه. وقـد يعتبـر تدخلهـم - حتـى ولـو كان لا غبـار عليـه - نوعًـا مـن التطفـل فـي مجـال هـو مـن اختصاصـه فحسـب. «لقـد كان علـي أن أقـوم

(17) تسمية شاعت لوصف تجار المشرق الذين يقومون بكل الألاعيب والاحتيالات من أجل تحصيل المال.

(18) الماركيز كورزون هو جورج ناتانيال كورزون (1859-1925) (George Nathaniel Curzon, Marquess Curzon of Kedleston) كان لوردًا (1898-1911) ثم إيرلًا (Earl) (1911-1921)، رجل دولة بريطاني محافظ. كان نائب ملك الهند ووزيرًا للخارجية ثم مرشحًا لرئاسة الوزراء، أدى الدور الأهم في مشروع تقسيم البنغال 1905 الذي أدى إلى أزمة كبيرة للإمبراطورية البريطانية في الهند، وفي رسم خط كورزون في أوروبا الشرقية. اشتهر بصراعاته وخلافاته مع الجميع، وكان معتدًا بنفسه مغرورًا لا يجامل، مما زاد في عداواته.

بأمر ما. وقد أديته وليس هناك شيء أكثر من ذلك، فهي مسألة تتعلق بشرفي، والمدائح التي قد توجهها إلي لن تضاعف من ارتياحي الخاص بأني أديت ما كان علي أن أؤديه». وليس هذا من قبيل الإحساس بالكرامة الذاتية، ولكنه صورة قومية - صورة خاصة جدًا - من مشاعر الشرف.

يجب أن نضيف هنا أن مما ييسر السبيل لهذا الضمير في العمل كون الإنكليزي مطيعًا رغبته وبسهولة. وإنه يحب أن يندمج في نظام يرسم فيه عملًا معينًا له وليس في هذا أي ذلة أو أي شعور بالتبعية، ولكنه الفخر بتأدية واجب يكون مقبولًا منه ولا يتضمن أي تضحية في كرامته. وثمة شيء من أعظم ما حققه الشعب البريطاني في حياته ألا وهو «النظام في/ضمن الحرية» وهذه الخصلة هي من وحي البروتستانتية طبعًا، ومع ذلك فإن إنكلترا لم تقطع صلتها تمامًا بالكاثوليكية؛ ذلك لأنها حين انفصلت عن روما في الديانة فقد أعلنت أنها ستظل كاثوليكية بالمعنى الواسع للكلمة. فالأنغليكاني بحكم الطبع والتراث (وكل إنسان غير امتثالي) يحب المراسم والطقوس، وبالتالي فهو يشعر بانجذاب حقيقي لاحتفالات الكنيسة الكاثوليكية، وهذا هو سر الاتجاهات الكاثوليكية في الكنيسة العليا الإنكليزية. وقد يظن بعضهم أن الكنيسة الإنكليزية إن سارت إلى نهاية منطقها، فإنها ستعود إلى الحظيرة البابوية؟ كلا، لأن البابا يبدو - في نظر هذه الجزيرة - كأنه حاكم أجنبي؛ بل وأَشر من ذلك: حاكم إيطالي. وبصفته جزيريًا حقيقيًا، يريد الإنكليزي أن يكون كاثوليكيًا - بالمعنى العام للكلمة - ولكنه يرفض قبول حكم سلطة غير قومية ولو في المسائل الروحية.

وها نحن أولاء نرجع - مرة أخرى - إلى فكرة «الجزيرية» التي تعبِّر بعمق عن رغبة كل إنكليزي في التحررين الداخلي والخارجي. فالإنكليزي هو «الليبرالي» (التحرري) بحق، إنه لا يفرض نفسه، ولكن يريد أن يُترك هادئًا مطمئنًا. يجب أن تحترم حياته الخاصة، وليس لكائن من كان أن يتدخل فيها. ومع ذلك، فإن هذه (الليبرالية) (التحررية) مصطبغة بلون من اللامبالاة والأثرة، وقد يكون في هذا أحسن ضمان للحفاظ عليها: سيحترمون حريتك إذًا، ولكن

ربمـا كان هـذا أيضًـا لأنهـم لا يبالـون بـك كثيـرًا؛ ولـكل أمـرئ حياتـه الخاصـة. وفـي هـذا شـيء مـن قلـة الإنسـانية. ويمكننـا أن نقـول عـن هـذا الشـعب الممتلـئ بالإحسـان والخيـر، إنـه أقـل إنسـانية مـن شـعبنا نحـن. الشـعب الإنكليـزي لا يشـعر بوحـدة غيـره مـن البشـر وتضامنهـم. يعتقـد بعضهـم أنـه شـعب متغطـرس (يـزدري غيـره) - ولسـت متأكـدًا مـن ذلـك - ومـع هـذا فإنـي أشـعر بحـرج حيـن أرسـم حـدًا بيـن هـذا الاحتـرام لحريـة الآخـر عنـد الإنكليـزي، وانعـدام اهتمامـه - الـذي يوشـك أن يكـون احتقـارًا - لـكل مـا يـراه الآخـر أو يفعلـه فـي الحيـاة. وفـي الأسـاطير صـورة عـن إنكليـزي يقـول: «يبـدأ وجـود الزنـوج عنـد كاليـه». ولعلـه كان يريـد بـلا شـك أن يمـزح، ولكنـي أعتقـد مـع هـذا أن المسـألة ليسـت كلهـا مزحًـا. وليـس الإنكليـزي شـخصيًا بالرجـل المتكبـر، لكـن المواطـن البريطانـي متكبـر قوميًـا: فهـو يعتقـد أنـه مـن جوهـر آخـر غيـر جوهـر «النـاس» الآخريـن الذيـن يشـكلون بقيـة بنـي الإنسـان. وعندمـا نقـول لـه إنـك شـعب اللـه، فإنـه لا يكـون بعيـدًا مـن تصديـق ذلـك.

مـن هـذه الرغبـة فـي البقـاء متميزيـن، ينشـأ تحـرز صلـب مـن كل مـا هـو ليـس إنكلتـرا، ومـن بيـن الأجانـب التحـرز مـن اللاتيـن خصوصًـا. فالإنكليـزي يعجـب بالفرنسـي لذكائـه وإحساسـه المرهـف بالفـن والفكـر، ولكنـه لا يثـق بالفرنسـي أخلاقيًـا. كمـا أننـا نسـتطيع أن نـرى، وخصوصًـا عنـد أهـل الجزيـرة البلدييـن الخـام (وهـم كثـر بعـد ذلـك)، ممـن لـم يغـادروا جزيرتهـم حتـى الآن، نوعًـا مـن الابتعـاد أو الانطـواء حيـن يتطلـب الأمـر التعـاون معنـا. وعندمـا يقـررون التعـاون معنـا، فـإن ذلـك يكـون علـى طريقـة التواطـؤ بيـن طرفيـن. وقـد اسـتمعت بهـذه المناسـبة إلـى قصـة امـرأة إنكليزيـة دعيـت إلـى الإدلاء بشـهادة فـي قضيـة جنائيـة، وطلـب منهـا أن تدلـي بأقوالها عـن كل مـا تعرفه عـن سـلوك المتهمـة. وقـد بادرهـا القاضـي بهـذا السـؤال: «هـل سـمعت مـا يثبـت القـول بـأن هـذه المتهمـة سـيئة السـلوك؟ فأجابـت «كلا»؛ ثـم بعـد تـردد قصيـر قالـت: يجـب أن أقـر أنهـا تلقـت تربيتهـا فـي باريـس». وهـذه لـم تكـن ملاحظـة طيبـة مـن جانـب السـيدة بالطبـع!

وهـذا الإنكليـزي الـذي يأخـذ الأمـور علـى محمـل شـخصي فـي كل مـا يتعلـق بالمسـؤولية الأخلاقيـة، ليـس مـع ذلـك فـردًا يحمـل جميـع صـور الفرديـة، فهـو علـى

أي حـال ليـس فـردًا بالمعنـى اللاتينـي الـذي ينطـوي علـى اسـتقلال الـروح النقديـة، وادعـاء كل فـرد أنـه يكـوّن لنفسـه رأيًـا خاصًـا باسـتخدامه عقلـه. ونحـن نشـك كل الشـك فـي أن يكـون الرجـل الإنكليـزي قـادرًا علـى أن يكـوّن لنفسـه رأيًـا عـن حريـة وفـق مـا يمليـه عليـه عقلـه، كالرجـل الفرنسـي. والواقـع أنـه يتبـع - عـن طيـب خاطـر - الـرأي الـذي يشـير بـه عليـه زعمـاؤه ورؤسـاؤه. وعندمـا يتحـدث رئيـس حـزب مـن الأحـزاب إلـى الأعضـاء، فـإن جميـع الأعضـاء لا يشـعرون بـأي مضايقـة فـي اتباعـه. وربمـا يكـون هـذا هـو سـر الانتظـام الجميـل الـذي يصنـع قـوة النظـام البرلمانـي البريطانـي، كمـا أنـه قـد يكـون أحـد مصـادر تلـك النزعـة المواطنيـة المدنيـة، وذلـك الإخلاص للشـأن العـام، والتـي يجـب علـى كل فـرد بمقتضاهـا أن يقـدّر حتميـة اندماجـه فـي المجتمـع واشـتراكه فـي الحيـاة الاجتماعيـة مـع عـدم التخلـي عمـا تتصـف بـه طبيعتـه الفرديـة مـن اعتـداد بالنفـس.

هـذه الحقيقـة تفسـر لنـا كيـف أن الإنكليـزي يكـون ذا فاعليـة عندمـا يندمـج فـي بنيـان أي منظمـة تعمـل بشـكل جيـد، ولكنـه يضيـع تائهًـا إذا فـرض عليـه أن يتصـرف بوسـائله الخاصـة تجـاه موقـف مـا، أي أن «يتخلـص مـن المـأزق» بحسـب عبارتنـا الأثيـرة. وليـس هنـاك مـن أحـد غيـر الرجـل اللاتينـي، سـاكن البحـر المتوسـط، مـن يسـمو قـدرًا ويتعالـى منزلـة سـاعة الأزمـات. ففـي حيـن أن باسـبارتو[19] (Passe-partout) هـو علـى النقيـض مـن فيليـاس فـوغ[20]، إلا أنهمـا ينجحـان فـي مهمتهمـا، كل علـى طريقتـه وبالوسـائل الخاصـة بـه والتـي تنسـجم مـع شـخصيته. ومـن هـذا يتضـح لنـا مفهومـان للحيـاة الاجتماعيـة وطريقتـان لمواجهـة العمـل والمسـؤولية والفاعليـة. إننـا نسـتطيع أن نحصـل علـى كل شـيء مـن الرجـل الإنكليـزي، مـن طريـق شـعوره نحـو تأديـة الواجـب. كمـا نظفـر بـكل مـا نرجـو مـن الرجـل اللاتينـي، مـن طريـق اعتـداده بنفسـه. وقـد قيـل كثيـرًا عـن أن الشـماليين يتفوقـون علـى الاثنيـن معًـا: وأنـا لا أعتقـد بصحـة هـذا فـي جميـع الحـالات.

---

(19) جان باسبارتو هو شخصية في رواية جول فرن الشهيرة حول العالم في ثمانين يومًا ومعنى اسمه يشبه اسم علي الزيبق أي الرجل الذي يتسلل وينزلق في أي مكان. وكان في رواية جول فرن خادمًا للإنكليزي فيلياس فوغ.

(20) فيلياس فوغ هو البطل الرئيس في رواية جول فرن ويمثل شخصية الإنكليزي التقليدي.

(3)

لقد ساهمت بريطانيا بنصيب وافر ومميز في تقدم الحضارة الغربية، وبالتساوي في الأقل مع مساهمتنا في ذلك، وإن كانت مختلفة، حتى أننا لندهش - لأول وهلة - من وضعنا في هذا المقام ضمن العائلة الأوروبية نفسها.

على أننا نجد أن الرجل الإنكليزي هو من بين جميع الشعوب المتمدنة، أقرب الناس إلى الطبيعة الفطرية وذلك تبعًا لحساسيته ولمسالكه. أما الفرنسي فإنه - من طريق محاولاته المتعددة في تعريف هذه الطبيعة وتحليلها وتصنيفها - يخاطر غالبًا بتشويهها وإعطائها معنى هي أبعد ما تكون عنه. وعندما يزعم الأميركي أنه يتغلب على طبيعته بوسائل اصطناعية، فإنه يتجاهل تمامًا بعض قوانين النضج الأساسية، وهذا التجاهل قد يتسبب بزوال حضارته. أما جون بول (John Bull) (يمثل شخصية الرجل الإنكليزي عامة)، فإنه يتمتع بمعنى الطبيعة، وبقوة الشعور بقوانينها. فنراه يتطور ويستخدم ويفكر ويعمل بالانسجام التام معها، كما لو أنه جزء منها، ومن دون أن يتجاهل في الوقت نفسه أن قانون الحياة يشتمل كذلك على عدم الكمال؛ فموقفه هو موقف التكيف، أي التواضع.

ومن هنا تنبع طريقة خاصة بالبريطانيين في النظر إلى الأمور، وحين يقول الفيلسوف بيكون[21] (Bacon) إنه لا يمكننا التحكم بالطبيعة إلا بإطاعة قوانينها (Naturae non nisi parendo imperatur) فهو إنكليزي حقًا. فإخوانه في الوطن وكل تلاميذه، بقدر ما أننا إخوان وتلاميذ ديكارت، لم يشمخوا بأنوفهم على الطبيعة أو الأشياء. ولكنني لن أقول أيضًا إن الإنكليز قوم مختلفون: فقد يكون من المناسب أن نقول ببساطة إنهم قوم طبيعيون، وهذه الخصلة تنطبق عليهم تمام الانطباق، لا سيّما وأنهم يعدون في صف أولئك الذين تغلب عليهم سلامة النية أكثر من الخداع والغدر، لأنه إذا وجد أن إنكلترا قد مارست الخداع والغدر[22]

---

(21) فرنسيس بيكون (Francis Bacon) (1561-1626) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنكليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية من طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب».

(22) آه يا ألبيون الغدارة (Perfidious Albion) هي عبارة تحقيرية بحق الإنكليز خصوصًا في العلاقات الدولية والدبلوماسية، وهي تشير في الأصل إلى أعمال خيانة ومكر وخداع وغدر بالتحالفات

(Perfide Albion)، فلا بد أن يكون هذا قد حصل، كما سنرى لاحقًا، في ظروف خاصة جدًا ودفاعًا بشكل من الأشكال عن كيانها ووجودها (وهذا لا يمنع من أن يكون قد حصل غدر).

هنا نلتقي بسمة الشباب كما سبق أن التقينا بسمة الجزيرية: فالإنكليزي يظل من بعض نواحي وجوده شابًا لا يتعدى سنه الخامسة عشرة. فهو شاب على طريقة الحيوانات الصغيرة، ومن هنا سلامة طويته الساحرة، والبساطة التي لا مثيل لها في معاملاته اليومية، فتبدو أعيننا الفاحصة المدققة بالقياس إليها وقحة (كلبية (cynique)) في النهاية. كما أننا سنجد بعد ذلك في صداقته للحيوانات الشكل المثالي لتعبيره عن شبابه الدائم، لا بل لتحليق إلى أعلى المطارح؛ وأنا أعتقد أنه يفضّل الحيوان على الإنسان. قرأت منذ سنوات عدة في صحيفة التايمز، لو سمحتم لي، هذا الخطاب الموجه إلى رئيس التحرير: «سيدي، لقد لاحظت في حديقتي أمس، حضور فَرَاشتين، ويعني هذا ظهورها قبل أسبوعين مما هو معتاد في هذا الفصل من السنة». من هذا نرى كيف أن صحيفة إنكليزية تعد الوسيلة الإعلامية الأكبر للمدينة، تسمح لنفسها أن تنشر في إحدى صفحاتها هكذا رسالة. وقد سبق لي أن أشرت إلى هذا في محاضرة لي في إنكلترا، وفي اليوم التالي عرض علي أحد الذين استمعوا إلى محاضرتي خطابًا آخر نشر حديثًا في صحيفة التايمز كذلك، وقد جاء فيه: «سيدي، في أسبوع سلامة المرور، وقعت حادثة يهم القراء أن يقفوا على تفاصيلها. فعندما كنت في طريقي إلى جامعة أكسفورد هذا المساء رأيت كلبًا يعبر الطريق على مهل أمام سيارتي. فأبطأت سيري منبهًا إياه بزمور من السيارة. فتوقف الكلب عن المسير، ثم هز ذيله ورجع إلى الوراء. وفي الوقت الذي جاوزت فيه مكانه، رأيته على الرصيف ينظر نحوي معبرًا عن شكره وامتنانه بحركة لطيفة من

قام بها حكام بريطانيا في سعيهم إلى تحقيق مصالحهم الخاصة وتطبيق سياستهم الواقعية (realpolitik). وكلمة برفيديوس اللاتينية تعني الحنث في اليمين أو في الوعود، وكلمة ألبيون هي الاسم الإغريقي القديم لبريطانيا. ولهذه العبارة التحقيرية تاريخ طويل خصوصًا في فرنسا وآخر التجارب الفرنسية مع بريطانيا الغدارة كانت بالنسبة إليهم أيام الثورة حين أيد البريطانيون الثورة ثم انقلبوا ضدها بعد إعدام الملك لويس السادس عشر فتحالفت بريطانيا مع الملكيات الأوروبية ضد الثوار الذين اعتبروا ذلك غدرًا وخيانة.

ذيلـه». وصاحـب هـذه الرسـالة كان واحـدًا مـن الشـخصيات المهمـة جـدًا فـي جامعـة أكسـفورد. ويتضمـن الكتـاب الأبيـض الـذي نشـرته وزارة الخارجيـة البريطانيـة بعـد القطيعـة مع هتلـر لمحـة مشـابهة ذات معنـى عظيـم، كونهـا وردت فـي وثيقـة رسـمية. ذلـك أن سـفير إنكلتـرا فـي برليـن أبـرق إلـى وزيـر خارجيتـه يخبـره أنـه نظّـم عمليـة ترحيـل موظفـي السـفارة بأمـان وسـلامة إلـى الوطـن، وهـم ثلاثـة عشـر رجـلًا وخمـس نسـوة وكلبيـن (هكـذا فـي النـص الأصلـي للبرقيـة). فهـل الأمـر مجـرد مـزاح وفكاهـة؟ وهـل هـذه المعلومـة مـن طبيعـة تهـم وزارة الخارجيـة البريطانيـة؟ نحـن لا نعـرف ذلـك، بيـد أن مـن المؤكـد أن شـعبًا يتحـدث بهـذا الأسـلوب عـن أخوتنـا الأدنـى منـا فـي مرتبـة الكائنـات الحيـة، لا يمكـن أن يكـون ماكـرًا أو خبيثًـا.

هـذه الاسـتقامة، وهـذه البسـاطة وهـذه الثقـة هـي فـي أسـاس الحلـول التـي تقدمهـا الحيـاة الإنكليزيـة. وهـي تفسّـر كذلـك مـن دون شـك، كل الأصالـة والتميـز فـي العلـوم والآداب البريطانيـة. وفيمـا أعتقـد، ليـس هنـاك مـن أحـد يدانـي البريطانييـن فـي ملاحظـة الطبيعـة، فهـم قـوم يحسـنون النظـر قبـل الاسـتنتاج، ومـن دون أن يـروا لزامًـا عليهـم أن يصلـوا إلـى نتيجـة بالضـرورة، ذلـك أنهـم حكمـاء؛ وفضـلًا عـن ذلـك فإنهـم يعشـقون مثالاتهـم أكثـر ممـا يحبـون أنفسـهم، بحيـث لا يضيرهـم أن تـذوب شـخصيتهم فـي سـبيل ذلـك. وهـم لا يقتصـرون فـي حبهـم علـى الحيوانـات التـي يراقبونهـا بـروح تفيـض بالرغبـة العاطفيـة، بـل إن حبهـم يتعـدى هـذا إلـى الأشـجار والأحجـار، وكل هـذه الطبيعـة المعدنيـة التـي نقـول عنهـا إن لا حيـاة فيهـا وهـي فـي نظـر شـعرائهم ليسـت كذلـك بالتأكيـد. وأدبهـم يحمـل طابعًـا مشـابهًا لهـذا، خصوصًـا عندمـا يكـون الهـدف دراسـة السـيكولوجيا: فهـم ينظـرون إلـى النـاس فـي أنـاة، ودقـة، ونيـة صافيـة؛ كمـا لـو كانـوا يدرسـون التاريـخ الطبيعـي ومـن دون أن تكـون لديهـم - علـى الطريقـة الفرنسـية - أفـكار مسـبقة عـن بنـاء روايـة مثـل مسـرحية كلاسـيكية. وقـد جمعـوا بذلـك ثـروة كبيـرة مـن الشـواهد وكأنهـا دار محفوظـات لحضـارة، حيـث يسـمح الكاتـب لنفسـه بـأن يسـاهم فيهـا مـن طريـق الدعابـة أو النقـد، ولكنـه لا ينفـك دائمًـا يقـاوم غوايـة تصحيـح مـا خلقتـه الطبيعـة قبـل أن يولـد هـو.

لكـن المسـاهمة البريطانيـة، وخصوصًـا فـي الأعمـال الماليـة والسياسـية، لا

تنفصل قطعًا عن تطور حضارتنا نفسه. فهم لم يخترعوا نظام الاقتراض المالي قبلنا، لكنهم مارسوه بطريقة لم يسبقهم إليها شعب آخر. فقد تصوروه على أنه استجابة للثقة التي يستحقها الرجل الأمين الذي يوثق في كلامه أكثر مما يوثق في توقيعاته. هذه الثقة المتبادلة بين أناس يعيشون معًا في جزيرة واحدة هي - من دون شك - الرباط الاجتماعي الذي يدهش له الأجنبي. ذلك أن عدم الثقة لا وجود له في ما بينهم - على عكس ما يحدث في أي بلد آخر، حيث يتطلب الأمر نوعًا من ضمان عدم الغش أو الخداع، لإقامة التوازن بين الأفراد والجماعات ولتحل الثقة في ما بينهم. وأعتقد أن إنكلترا هي البلد الوحيد في العالم الذي يسجل أمتعة المسافر داخل البلاد من دون إيصال، ولم أسمع قط أن هذه الطريقة أعطت نتائج سيئة.

إن كلمة «الجنتلمان» التي يوصف بها الرجل الإنكليزي قائمة على هذا المبدأ: «مبدأ الثقة» فهي ترادف في لغتنا كلمة الرجل الأمين النزيه المستقيم (Honnête Homme) حين نسقطها على الميدان الاجتماعي والدنيوي. ولكن هناك بعض الظلال من الفروق: حيث يكون هناك تشديد أقل على «آداب العقل والفكر» وتشديد أكثر على «آداب السلوك والعادات»، إضافة إلى تطلب أخلاقي على مستوى عال: «الجنتلمان» في هذه البلاد الموصوفة بالامتثالية، هو الرجل الذي يعرف كيف يتصرف في العالم كما يعرف كيف ينتقي ملابسه، في الوقت والظرف المناسبين، والذي يستطيع أن يبقى تحت مستوى درجة الكمال التي قد تجعله يؤخذ مأخذ الرجل الذي اتخذها مهنةً له (انظروا إلى قول جورج برومل[23] (Georges Brummell): «اهتم واعتن بشكلك ولكن لا تتطرف في ذلك» (Care, never extreme care)... ولكن «الجنتلمان» هو كذلك من يعرف كيف يحافظ على كرامته المعنوية والأخلاقية لا تشوبها شائبة، ما يجعلنا بالتالي

---

(23) جورج برايان برومل (George Bryan Brummell) الملقب أيضًا برومل الجميل (Beau Brummell) (1778-1840) مثال الغندرة والتأنق في بريطانيا. لم يكن غنيًا ولا جميلًا ولا نبيل المحتد، ولكنه حظي بإعجاب كل المجتمع اللندني. وهو الذي أدخل لباس الرجل العصري حين صمم وأقام لبس البذلة ذات اللون الغامق مع السروال الطويل الساقين والمستقيم مع ربطة العنق... إلخ. ثم كانت له مساهمات كثيرة في تطوير الموضة وآداب السلوك المهذب والأناقة والكياسة... إلخ.

نثق بـه ونعتمـد عليـه. ولا أظـن أن إنكلتـرا قـد انتهـت إلـى مفهـوم أعظـم نبـلًا، وأكثـر وطنيـة أساسًـا، مـن هـذا المفهـوم. فهـل لـي أن أفصـح عـن أننـي أضيـق ذرعًـا أحيانًـا بالجنتلمـان بسـبب تحديداتـه الظاهـرة للعيـان، خصوصًـا وأن النـاس يقبلونهـا بحبـور بالغ. ولكـن حيـن نـرى كثيـرًا مـن الفظيـن علـى المسـتوى الدولـي، ويعلـم اللـه كـم هـم كثيـرون مـن هـذه الفئـة، فإننـا نرجـع إلـى الجنتلمـان كمـا يرجـع المـرء إلـى مرفـأ أمـان أخلاقـي لا مثيـل لـه.

وأخيـرًا، وفـي مجـال السياسـة، ودائمًـا للأسـباب نفسـها، فقـد وضعـت إنكلتـرا حلـولًا لمشـكلات كثيـرة، لـم تسـتطع كل البلـدان الأخـرى حلهـا. فهـي علمتنـا، بـل برهنـت لنـا فعـلًا علـى أن الحريـة والسـلطة ليسـتا فكرتيـن متناقضتيـن، وأن الإنسـان يسـتطيع أن يطيـع قوانيـن بـلاده مـن دون أن ينـال هـذا مـن كرامتـه، وأن الحريـة لا تعنـي أبـدًا الفوضـى وانعـدام النظـام، كمـا أن السـلطة لا تعنـي الاسـتبداد. وهـذا (كمـا سـبق أن لفتنـا الانتبـاه إليـه) تفسـير لمفهـوم كالفـن (Calvin) للمجتمـع الـذي لا يربطـه مـع مـا نسـميه السـلطة الحاكمـة إلا روابـط قليلـة، بالمعنـى الـذي كانـت عليـه الإمبريـوم الرومانيـة[24] (Imperium). وليسـت الحكومـة سـلطة مفارقـة، تفـرض أوامرهـا علـى رعايـا مـن فـوق، لكنهـا ببسـاطة تعبيـر عـن المصلحـة المشـتركة، ونـوع مـن النيابة/التفويـض عـن الجماعـة التـي عليهـا أن تديـر شـؤونها بنفسـها ولنفسـها، تمامًـا مثـل فـرد أو مجموعـة مـن الأفـراد، وبذلـك لا تنطـوي إدارة الشـؤون العامـة

(24) الإمبريوم (Imperium) هو اصطلاح من اللغة اللاتينية، يعني تقريبًا «سلطة القيادة» أو «الحاكمية». في روما القديمة، كان يتم تمييز أنواع السلطة والنفوذ المختلفة بمصطلحاتٍ مختلفة، وبالتالي فقد كانت وظيفة مصطلح الإمبريوم التعبير عن سيادة الدولة على الأفراد. يشير الإمبريوم بالدرجة الأولى إلى استعمال فردٍ للسطات المفوَّضة إليه بدرجة أو بأخرى، وكان يُطلَق على الأشخاص الذين يُمنَحون سلطات الإمبريوم هذه اسم الحكام. كان الحكام بعض أعلى وأهم المسؤولين في الحكومة الرومانية، ورتبهم الرسميَّة في روما كانت الإيديل والبريتور والرقيب والقنصل وقائد الفرسان والدكتاتور. وفي المجتمع الروماني، كان الإمبريوم مصطلحًا يدلُّ على السلطة القانونية. فالرجل الذي يحظى بالإمبريوم (والمُسمَّى «إمبراتور») كانت لديه بالواقع سلطة مطلقة يمكنه استعمالها في حدود كونه حاكمًا أو حاكمًا ثانويًا. كان يمتاز بحق النقض، وفي الآن ذاته كان يمكن أن ينقضه أي حاكم أو حاكم ثانوي بسلطة مساوية له، مثل قنصل زميلٍ له، أو بالأحرى، كان يحقُّ لمن يمتلكون إمبريوم مساويًا له أن ينقضوا قراراته.

علـى نـوع مـن السـرية أو الخطـورة أو الخسـارة. أمـا عندنـا - نحـن الفرنسـيين - فـإن إدارة الأمـور، ليسـت توكيـلًا مـن المحكوميـن للحاكميـن، بـل هـي فـي أسـاس معنـى الدولـة، أي داعـي المصلحـة العليـا.

ومنطـق الدولـة هـذا (داعـي المصلحـة العليـا) موجـود أيضًـا هنـا (عنـد الإنكليـز)، ولكـن فـي السياسـة الخارجيـة، حيـث يدعـو الداعـي إلـى المحافظـة علـى المصلحـة القوميـة العامـة. وبصفتهـم مـن التلاميـذ البعيديـن ولكـن الحقيقييـن لكالفـن، فـإن الإنكليـز يعتبـرون عـن إيمـان صحيـح أن قوانيـن الأخـلاق، يجـب أن تمتـد إلـى السياسـة. ومـع ذلـك، فـإن هـذا الشـعب يحـب الحيـاة، وقوانيـن الحيـاة لا تتفـق للأسـف دائمًـا مـع هكـذا مثاليـة. وقـد وجـد لوثـر (Luther) حـلًا واقعيًـا لهـذه المشـكلة[25]؛ لكـن الإنكليـز كانـوا أقـل شـجاعة مـن «لوثـر» وقـد اكتفـوا بالأخـذ بمـا سـماه كازاميـان[26] (Cazamian) التفويـض الضمنـي: فرجـل الدولـة البريطانـي يحـاول فـي ممارسـته للسياسـة أن يحتـرم قوانيـن الأخـلاق، بيـد أنـه إذا لـم تسـعفه هـذه القوانيـن أثنـاء ممارسـته لحـل مشـكلة سياسـية، وتعـارض هـذا الحـل مـع سـلامة

(25) مارتن لوثر (1483-1546) (Luther Martin) راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا بعد اعتراضه على صكوك الغفران. نشر في عام 1517 رسالته الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة تتعلق أغلبها بلاهوت التحرير وسلطة البابا في الحل من «العقاب الزمني للخطيئة»؛ رفضه التراجع عن نقاطه الخمس والتسعين بناءً على طلب البابا ليون العاشر عام 1520 وطلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة ممثلة بالإمبراطور شارل الخامس أدى به إلى النفي والحرم الكنسي وإدانته مع كتاباته بوصفها مهرطقة كنسيًا وخارجة عن القوانين المرعيّة في الإمبراطوريّة. أبرز مقومات فكر لوثر اللاهوتي هي أنّ الحصول على الخلاص أو غفران الخطايا هو هديّة مجانيّة ونعمة الله من خلال الإيمان بيسوع المسيح مخلصًا، وبالتالي ليس من شروط نيل الغفران القيام بأي عمل تكفيري أو صالح؛ وثانيًا رفض «السلطة التعليمية» في الكنيسة الكاثوليكية والتي تنيط بالبابا القول الفصل في ما يتعلق بتفسير الكتاب المقدس معتبرًا أنّ لكل امرئ الحق في التفسير؛ وثالثًا أنّ الكتاب هو المصدر الوحيد للمعرفة المختصة بأمور الإيمان؛ وعارض رابعًا سلطة الكهنوت الخاص باعتبار أن جميع المسيحيين يتمتعون بدرجة الكهنوت المقدسة، وخامسًا سمح للقسيس بالزواج. وعلى الرغم من أن جميع البروتستانت في العالم يمكن ردهم إلى أفكار لوثر، إلا أن المتحلقين حول تراثه يطلق عليهم اسم الكنيسة اللوثرية.

(26) لويس فرنسوا كازاميان (1877-1965) (Louis François Cazamian) أكاديمي وناقد أدبي فرنسي. له مؤلفات عدة بالفرنسية والإنكليزية تتناول الأدب الإنكليزي، أشهرها كتابه: تاريخ الأدب الإنكليزي (A History of English Literature)، الرواية الاجتماعية في إنكلترا (Le Roman Social en Angleterre)، وتطور المزاح الإنكليزي (The Development of English Humor)... إلخ.

الشعب، فإن التفويض الضمني يسمح له بخرق قوانين الأخلاق من دون مبالاة، وسيلقي عليه معطف نوح[27]، من دون أدنى كلمة، ستارًا من النسيان. هذا نفاق، بلا شك، ولكن هل تفضلون الكلبية (الوقاحة التهكمية) البسماركية؟

(4)

وقد صار العالم في القرن التاسع عشر أكثر قابلية للعيش بفضل النظام الإنكليزي الذي جدد شبابه التبادل الحر في التجارة. وقد نشأت من طريق هذا النظام علاقات اقتصادية ثابتة ومتكاملة بين مختلف القارات. وحين كنا نغادر شواطئنا قبل عام 1914، فقد كان هذا من أجل أن ندخل في الحال في جمهورية (مركنتيلية) تجارية دولية تعمل تحت الرعاية البريطانية، وحيث كانت الوسائل البريطانية هي السائدة. وكانت النتيجة أن استفاد جميع الأجانب على قدم المساواة مع البريطانيين، من هذه اللعبة المنصفة (fair play)، كما استفاد البيض عمومًا من «السلم البريطاني» هذا؛ بشرط واحد وهو ألا يرفضوا النظم المعمول بها في إنكلترا. وبذلك أصبحت إنكلترا تلقي على العالم دروسًا في الحرية، ولكن... لم يفهم العالم معناها، مع الأسف. والحال أن القرن العشرين متخلف عن القرن التاسع عشر في هذا المجال، ولما تعب الإنكليز من أن يلعبوا لعبة الحكماء العقلاء لوحدهم، قفلوا راجعين إلى حظيرة المبادئ نفسها التي تنادي بالحماية وبالاقتصاد الموجه الذي كان تركهم إياه سبب عظمتهم التليدة. ومع ذلك فقد ظلوا مخلصين كل الإخلاص لمبدأ حرية الفرد في المجتمع، وأعداء ألداء بطبعهم ومزاجهم، لكل أشكال الاضطهاد والاستبداد. ولم تنجح الحرب ذاتها في أن تثنيهم عن تقليد عاشوه قرونًا طوالًا فظلوا مؤمنين بأن الحرية منبع حيوي للثروة والقوة.

ويبدو أن جميع الاتجاهات العميقة في هذا القرن تسير - مع الأسف - في اتجاه آخر، ومع ذلك فإننا نشعر في أعماق أنفسنا أنه كلما ابتعدت بنا الخطى

(27) عبارة تعود إلى التوراة في قصة النبي نوح وتعني تغطية شيء مخجل عن أعين الغير، أو هي طريقة خجولة لتخبئة قصة مزعجة أو التقليل من قيمتها وأهميتها.

عـن رسـم «المثاليـة الإنكليزيـة» بعـدت الشـقة بيننـا وبيـن الحضـارة. واليـوم، وقـد جـرى تجـاوز النظـام البريطانـي، فإنـه يقـف موقفًـا دفاعيًـا. وفـي موقـف الدفـاع هـذا اضطـرت إنكلتـرا إلـى الأخـذ ببعـض التدابيـر وحتـى ببعـض المذاهـب التـي تتعـارض مـع تقاليدهـا الحـرة كل التعـارض. ففـي ظـل الظـروف الجديـدة تمامًـا المتشـكلة مـع الإنتـاج الصناعـي ونظـام التبـادل التجـاري وسـلوك الولايـات المتحـدة فـي عالـم مسـاواتي، كيـف سـتكيف إنكلتـرا نفسـها، بـل كيـف تسـتطيع أن تكيـف نفسـها؟ لقـد نجـح الرجـل الإنكليـزي فـي القـرن التاسـع عشـر بفضـل مميـزات فـذة خاصـة بـه. وقـد تهيـأت لـه سـبل النجـاح كذلـك نظـرًا إلـى أنـه كان يسـتفيد - فـي أوسـع نطـاق وأبعـد مـدى - مـن شـبه احتـكار للفحـم والصناعـة فـي زمـن الآلـة البخاريـة؛ ومـن كونـه كان يركـز أيضًـا عملـه علـى أسـاس مـن ثـروة حصلهـا كانـت ضخمـة فـي ذلـك العصـر: وكان يعتقـد أنـه يعمـل فـي ظـروف مـن المنافسـة الخالصـة، ولكـن هـذا الأمـر كان هـو «الطابـع الدولـي» المميـز فـي ذلـك العصـر... فمبـدأ: «شُـقْ طريقـك» كان يكفـي لنجـاح الرجـل الإنكليـزي فـي إطـار هـذه الشـروط. والآن أضحـى الوقـت لديـه أكثـر ضيقًـا مـن ذي قبـل، ولـم تعـد وسـائله الأولـى تلائـم الوضـع الجديـد: إذ يجـب عليهـا فـي إطـار منافسـة أصبحـت تجـري علـى أرض مكشـوفة، أن تتغلـب بتفوقهـا العظيـم فـي التقنيـة كمـا مـن طريـق عمـل أكثـر قـوة وزخمًـا أيضًـا.

وبغيـة تفسـير مقـدار النجـاح الباهـر الـذي بلغـه هـذا النظـام، علينـا أن نضيـف هنـا إلـى مـا سـبق بأنـه مـع كل الديمقراطيـة الحقيقيـة فـي مؤسسـاته إلا أنـه ظـل حتـى وقـت قريـب أرسـتقراطيًا بحسـب مـا جـرى عليـه العـرف ودرجـت عليـه التقاليـد فـي هـذه البـلاد. فالناخـب كان سـيد نفسـه، ولكنـه كان يختـار فـي أغلـب الأحيـان أن يمنـح السـلطة لممثلـي طبقـة النبـلاء وأصحـاب الثـروة ولممثلـي التقاليـد القديمـة، بحيـث إن تلـك الديمقراطيـة كانـت تشـتغل تمامًـا مثـل الأرسـتقراطية. ولـم تسـتطع الحـرب العالميـة الأولـى أن تغيـر كثيـرًا مـن هـذا الوضـع. بيـد أن الحـرب العالميـة الثانيـة قـد أشـعلت ثـورة حقيقيـة: فقـد أصبـح الشـعب متسـاويًا وهـو صـار يعتقـد بأنـه طالمـا سـاعد فـي النصـر فقـد صـار لـه الحـق بالتالـي فـي المسـاهمة بنهضـة البـلاد والمشـاركة بـكل فوائدهـا. ولـم يعـد الحـال كمـا كان عليـه فـي القديـم، حيـث لـم يكـن يصـل إلـى مقاليـد السـلطة وتسـلم زمـام الحكـم فـي البـلاد غيـر تلاميـذ الكليـات

الأرستقراطية، بل إن هناك رجالًا خرجوا من بين صفوف الشعب وأصبحوا قادة في الاتحادات التجارية وموظفين قدماء في الوزارات. إذًا، فالتغيير الذي حدث هو تغيير كامل، وكل المسألة تتلخص تاليًا في أن نرى إن كان هؤلاء القادة الجدد ستؤطرهم النخبة الأرستقراطية القديمة، وهل سيتثقفون عليها وسينصهرون فيها، مثل الوصوليين الصناعيين في القرن التاسع عشر الذين اندمجوا في طبقة النبلاء الإقطاعيين القديمة.

وعلى الرغم من أننا قد طرحنا هذا السؤال، فإننا لا نستطيع أن نجيب عنه حتى الآن. وكل ما نعلمه هو أن إنكلترا قد عرفت - بحسب تعبير التوراة - بأنها تصب النبيذ الطازج في أوان قديمة!

الفصل الخامس
«الانضباط النظامي» عند الشعب الألماني

تعتبر ألمانيا - أردنا أم لم نرد - قطعة رئيسة مهمة في المجموع الأوروبي، طبعت تطوره المعاصر أكثر من أي بلد آخر. وهي - أي ألمانيا - قارية أساسًا ولها مع أوروبا الشرقية صلة لا نملكها نحن (فرنسا)، خصوصًا وأنها مشبعة كثيرًا بالعناصر السلافية كما لاحظنا قبل قليل. إنها أوروبية خالصة، فهل يسوغ لنا ذلك أن نقول عنها إنها غربية قلبًا وقالبًا؟

إن أي دراسة لألمانيا هي دائمًا في غاية الصعوبة، وعلى الرغم من مظهر القوة الذي تبدو عليه إلا أنها بحق بلد التردد والصيرورة الدائمين، وهي بلد سلبي، بمعنى الاستعداد الدائب لتقبل أي تحوّل أو تبدّل جديدين. وفي صميم الأمر، فإنها على الرغم من عشقها للنظام والانتظام إلا أنها بلد ثوري. وقد جرى تضخيم هذه الصفات بفضل تاريخ ألمانيا الحديث نتيجة لتقلبات أدت إلى كارثة شبيهة بالزلزال الذي أودى نهائيًا بملامح البيئة السابقة. فما الذي يبقى من ألمانيا القديمة في النظام الحاضر الذي لا ندري أي اسم نطلقه عليه، إذ هو ليس ببناء سياسي تام، ولا بكيان إقليمي أو اقتصادي صناعي أو مديني، كما أنه ليس مجموعة مترابطة من العلاقات الخارجية. فما بقي هو الشعب الألماني نفسه الذي دفعت به المحن القاسية نحو هاوية سحيقة، إلا أنه ظل على الدوام حاضرًا بقوة وبأعداد كبيرة.

(1)

ما يصدمنا بداية هو أن الأرض الألمانية تفتقر إلى شخصية جغرافية. ففي ضوء هذا المظهر نقول إنه لا توجد «بلاد» ألمانية، إذ إن الإطار الجغرافي ينقصها، والحدود الطبيعية المتعارف عليها ليست ظاهرة، فلا ندري من أين تبدأ ولا إلى أين تنتهي؟ وبالمقابل، فإن هناك شعبًا ألمانيًا لا يعرف نفسه، ولا يريد في مثل هكذا ظروف أن يتعرف بنفسه إلى حدود ما. إن وحدة هذا الشعب لا تكمن في الرباط الذي يشده إلى أرض ما - كما هو الحال في فرنسا - بل في وعيه أو في الأقل في إرادته في أن يشكل عرقًا متماسكًا له لغته وثقافته وإحساسه بوحدته. إن غريزته الثابتة في أن يفيض عن حدوده، جعلت منه خطرًا دائمًا على جيرانه. ومن هنا نشأت قضية لم تحل حتى الآن في أوروبا طالما أنه يوجد في قلب القارة «ألمانيا» إما «غازية» وإما «مغزوة»، وهي مرنة وعدوانية في الآن نفسه، ولكن لا يمكن من دونها، بأي حال، إقامة أي بناء سياسي أوروبي دائم.

تُقسم ألمانيا إلى ثلاثة أقسام طبيعية تحددها الجيولوجيا، والمناخ، وذلك العنصر اللطيف الذي هو الانحراف الجغرافي نحو الشرق. فهناك ألمانيا الراين، وألمانيا الجبلية المعقدة جغرافيًا في الوسط والجنوب، وأخيرًا ألمانيا السهول الشاسعة الثلجية في الشمال وفي الشرق. القسم الأول من ألمانيا له صبغة أوسترازية (نسبة إلى أوسترازيا) (Austrasie)، في حين يغلب على القسم الثاني الصبغة النمساوية والسويسرية، أما القسم الثالث والأخير، فهو يقترب من الصبغة الروسية. والحال أن التقسيم الأساس يقع معظمه بين غرب ألمانيا وشرقها أكثر مما بين شمالها وجنوبها كما هو شائع. والخط الكبير الفاصل بين اتجاهات متعارضة متباينة والذي يفصل في الحقيقة بين حضارات مختلفة تمام الاختلاف بعضها عن بعض، لا يمثله نهر الماين[1] (Main) على ما هو معروف،

(1) ماين نهر في ألمانيا طوله 524 كم، واحد من أهم روافد نهر الراين. يمر خلال ولايات بافاريا وبادن - فورتمبيرغ وهسن.

وإنمـا نهـر الإلـب[2] (Elbe). لـذا، فإننـا نشـاهد ونحـن علـى انحدارنـا فـي أرض ألمانيـا وفـي ظـل نظـام الرايـخ، أن ألمانيـا تتشـكل مـن محوريـن: محـور الرايـن (مـع ألمانيـا الجنوبيـة) الـذي هـو أساسًـا مـن أوروبـا الوسـطى مـع مؤثـرات غربيـة قويـة، والمحـور البرلينـي (أو السـهول الشاسـعة) وهـو ينتمـي إلـى أوروبـا الشـرقية أكثـر مـن انتمائـه إلـى أوروبـا الوسـطى الحقيقيـة، مـع خضوعـه لمؤثـرات شـرقية قويـة تسـللت بمكـر، ليـس مـن الشـرق البحـري المشـرقي أو المتوسـطي وإنمـا مـن الشـرق البـري السـلافي أو الروسـي... وأعتقـد أننـا نقـف هنـا عنـد نقطـة مطلـة ستسـمح لنـا أن نحسـن فهـم السـيكولوجية الألمانيـة بصـورة أفضـل.

وادي الريـن هـو بالنسـبة إلينـا نحـن الفرنسـيين بيئتنـا الحاضنـة، حيـث لا نشـعر بالغربـة. فـي مدينـة كولونيـا، وفـي إقليـم البالاتينـات (Palatinat)، وفـي سلسـلة جبـال الغابـة السـوداء، لا تختلـف الطبيعـة أدنـى اختـلاف عنهـا فـي بلادنـا: فنحـن أمـام أنـواع الأشـجار نفسـها، والألـوان نفسـها، والمنـاخ نفسـه أيضًـا، علـى الرغـم مـن كونـه أكثـر قاريـة (منـاخ قـاري بـري (continental)). وبهـذا الجـو، فـإن «ألمانيـا الرايـن» التـي تنتمـي بصلـة قربـى قويـة إلـى الألـزاس وإلـى سويسـرا وإلـى النمسـا، تنتمـي أيضًـا بوجـه مـن وجـوه صلـة القربـى إلـى كثيـر مـن أقاليـم فرنسـا الشـرقية مثـل: اللوريـن وفرانـش كونتـي، لا بـل حتـى البورغونـي وإلـى حـد مـا السـافوا. وبـدءًا مـن منطقـة الأوكسـير (Auxerre) نـرى الهـواء يتلـون بلـون خفـر يجعلنـا نفهـم أننـا غادرنـا البـلاد الأطلسـية/البحرية واتجهنـا نحـو قطعـة جديـدة مـن القارة/البريـة. فهنـا فـي الحقيقـة توجـد أوروبـا وسـطى جـارة وشـقيقة لأوروبـا الغربيـة يمـر محورهـا بسويسـرا والرايـن، ولكـن شـخصيتها إلـى الشـرق حتـى مدينـة فيينـا وإلـى الغـرب حتـى داخـل حدودنـا، كمـا أن بعـض آثـار لهـا تصـل حتـى إلـى إقليـم لومبارديـا. فالحـدود السياسـية لا تمنـع وجـود وحـدة حضاريـة هنـا بيننـا وبيـن الألمـان، تتجـاوز الحـدود، ولكننـي كنـت أشـعر بحقيقتهـا طيلـة طفولتـي فـي إقليـم الألـزاس الـذي ولـدت فيـه. وتثيـر كلمـة أوروبـا الوسـطى، مقترنـة بمنطقـة زمنيـة، مناخًـا جغرافيًـا واجتماعيًـا، وطريقـة

(2) نهر إلب من أهم أنهار أوروبا الوسطى، ينبع من جبال الكارابات في جمهورية التشيك ويخترق التشيك وألمانيا قبل أن يصب قرب مدينة هامبورغ في بحر الشمال بطول كلي يبلغ 1094 كم.

عيش وإحساس وتفكير، خاصة بها، إن فهمنا معناها العميق الخصوصي نكون فهمنا ألمانيا الغربية.

ألمانيا الراين هي تبعًا لحضارتها التقليدية، إحدى المناطق الأكثر أوروبية والأكثر صميمية في القارة. كما أنها، مضافًا إليها ألمانيا الجنوبية، جزء كامل متكامل من الحضارة الغربية، إذ تعبر عنها ومثلها مثل فرنسا أو إنكلترا أو إيطاليا. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن التأثير الروماني يبدو هنا عاملًا حاسمًا، فقد ترك تأثيره ليس على الشاطئ الأيسر من الراين والشاطئ الأيمن من الدانوب فحسب، وهما حدود الإمبراطورية الرومانية، بل وعلى منطقة الاحتلال العسكري بين الراين والدانوب التي يطلق عليها اسم «الحقول الجرمانية»[3]، وقد تركت روما في كل مكان سيطرت فيه آثارًا لا تمحى: فلم تعد العائلة ولا الملكية ولا الحكومة ولا الفرد، ما كانوا عليه في أماكن أبعد، أي عند الشعوب التي لم تعش قط في ظل نظام «السلم الروماني» (pax romana). ونحن نلمس هذا في وادي الراين وفي ورتمبرغ وفي بلاد بادن[4]، على عكس الحال في أقاليم بروسيا الشرقية. وضمن هذه الحدود نفسها تقريبًا، جلبت الثورة الفرنسية طابعًا «غربيًا»، وإننا لنجد في هذا الطابع حتى اليوم تصورًا للديمقراطية جدًّ قريب من مفهومنا لها، وتصورًا للفرد وللملكية، هي بحق ومن وجوه عدة، غربية. فأي ألماني من الغرب - وخاصة من الجنوب الغربي - يفهم فرنسا والروح الفرنسية أكثر من أي سكسوني أو بروسي. وإذا ما حاولت توضيح ما يميز أوسترازيا هذه، يبدو لي أنه في تنظيم متفوق للراحة المادية، في ما يسميه الألمان الحضارة (civilisation) بمقابل الثقافة (culture)، والمقصود هنا الحضارة المادية: ذلك أنه قبل الكارثة الراهنة (يقصد الحرب العالمية الثانية)، كانت الحضارة المادية، أعني التجهيزات الاجتماعية والتنظيم المدني والتقدم،

(3) الحقول الرومانية وكانت تسمى باللاتينية Agri decumates هي القسم الجنوبي الغربي الأقصى من جرمانيا بين الراين والماين والدانوب. هي تطابق اليوم منطقة Baden-Wurttemberg.

(4) بلاد بادن (Baden) منطقة تاريخية وجغرافية في الجنوب الغربي من ألمانيا تشكل جزءًا مما يسمى Baden-Wurttemberg التي يحدها شمالًا الهس (Hesse) وشرقًا الورتمبرغ (Wurttemberg) وغربًا الألزاس وجنوبًا سويسرا.

أكثـر تطـورًا عندهـم ممـا كانـت عليـه فـي فرنسـا أو إنكلتـرا. وكان المـرء يشـعر مـع هـذه الحضـارة بالسـعادة وهنـاء البـال، وبالحـرارة فـي حياتـه الخاصـة المبنيـة علـى الراحـة الماديـة العائليـة فحسـب؛ وذلـك كلـه كانـت ألمانيـا تعطيـه اسـمًا لا يمكـن ترجمتـه نظـرًا إلـى أنـه غيـر موجـود فعليًـا عندنـا: السـكينة[5] (gemütlichkeit). وتعـرف فرنسـا أكثـر مـن ألمانيـا أدب الـروح وصفـاء الحيـاة الاجتماعيـة وإشـراق جنباتهـا، بيـد أننـا كنـا نجـد قديمًـا صـوب الشـرق (وفـي سويسـرا حتـى اليـوم) مسـتوى عاليًـا للحضـارة الماديـة الجماعيـة التـي سـبق أن حققتهـا أوروبـا القديمـة.

علـى خـلاف ذلـك، فـإن بيئـة ألمانيـا الشـرقية التـي تبـدأ حدودهـا مـن نهـر إلـب، أو مـن غابـات توتوبرغـر فالـد (Teutoburger Wald) التـي فقـد فيهـا القائـد الرومانـي فـاروس (Varus) قواتـه العسـكرية. وفـي طريـق باريـس - برليـن الـذي يمـر بكولونيـا والروهـر، يعبـر طريـق السـكة الحديـد أبـواب وسـتفاليا التـي جمّلهـا الرايـخ بتمثاليـن تذكارييـن للإمبراطور فيلهلـم الأول وبسـمارك... ويدخـل المسـافر عبر هـذا الطريق مباشـرة في سـهل ذي تكوين ثلجـي شاسـع، يمتـد دفعـة واحـدة حتـى روسـيا وسـيبيريا، وهـذه البـلاد التـي تبـدأ هنا لم يكـن للرومـان أن يسـيطروا عليهـا قـط. ونحـن نتـرك عنـد هـذه النقطـة الغـرب الأوروبـي المألـوف لدينـا، لندخـل منطقـة جديـدة، ولا يبعـد أن أقـول بأنهـا قـارة جديـدة، تلـك هـي منطقـة أوروبـا الوسـطى بـلا شـك، بيـد أن الإنسـان يشـعر بأننـا تجاوزنـا درجـة واحـدة فـي العـرض نحـو آسـيا بغاباتهـا وأشـجارها الكثـة المتكاثفـة، وهـذه المنطقـة عبـارة عـن سـهول شاسـعة متشـابهة، مسـطحة، حزينـة، وفقيـرة، يشـبه الرمـل فيهـا لـون رمـاد الحريق علـى غـرار أحـراج التنّـوب عندنـا (نـوع صنوبريـات) مـا يجعلنـا أحيانًـا نقـارن بينهـا وبيـن أراضينـا البائـرة، لـولا أن السـماء هنـا تظـل بـاردة وكئيبـة. وبعـد الأشـجار الكثيفـة ذات المسـاحات الواسـعة مـن إقليـم الرايـن؛ نلتقـي بالفـراغ والسـكون فـي بقعـة مـن الأرض لم يفلـح عمـل الحضـارة فـي أنسـنة طبيعتهـا، فـلا يـزال فيهـا شـيء مـن التوحـش الـذي تولع

(5) الـ gemütlichkeit سمة مميزة لجو إنساني عطوف بحرارة ما يعطي انطباعًا بالهناء والراحة. وهي ترادف الاعتدال والأمان والسكينة وعدم الانشغال بالهموم. إنها الهدوء بعد العاصفة. وهي تتناقض تمامًا مع التوتر والخلافات والهموم التي يحملها الإنسان. كما تتناقض أيضًا مع العمل الشاق. لعل أفضل ترجمة لها هي راحة البال أو السكينة.

بـه الرومنطيقيـة الألمانيـة، يقـرّب الإنسـان مـن القـوى البدائيـة، مـا يجعلنـا نسـتدعي، لغرابـة الشـبه، بعـض سـهول مماثلـة فـي أميـركا الشـمالية. والحـق أن انتصارنـا علـى الطبيعـة يبـدو هنـا انتصـارًا سـطحيًا كمـا هـو الحـال فـي القـارات الأخـرى، وواجبنـا أن نتابـع هـذا الانتصـار كل يـوم وكأننـا فـي عمليـة كفـاح. فـي أوروبـا الغربيـة لا يسـاورنا أبـدًا هـذا الشـك فـي انتصـار الإنسـان علـى الطبيعـة، بـل لعـل ذلـك مـا يميـز أوروبـا أكثـر. ومـن المفيـد أن نذكـر هنـا علـى سـبيل المثـال أن فرنسـا قـد تحولـت حتـى فـي طبيعتهـا الماديـة بفضـل العمـل الدائـب (الألفـي) للإنسـان، بحيـث صـارت إلـى مـا يشـبه الحديقـة. وتصنـف ألمانيـا الشـمالية الغربيـة ضمـن صنـف آخـر مختلـف، فهـي مـن الناحيـة الجغرافيـة ليسـت سـوى تخـم مـن تخـوم الغـرب.

مـع ذلـك، فـإن الغـرب هنـا، فـي ألمانيـا الشـمالية الغربيـة، هـو علـى طبيعتـه وروحـه الحقيقيـة - أو فـي الأقـل - كان كذلـك حتـى مـا قبـل مؤتمـر يالطـا والسـتار الحديـد. وهـو كان ينهـض بيـن الحيـن والآخـر فـي شـكل مـدن فخمـة وحديثـة إلـى حـد رهيـب، تبـدو وكأنهـا قـد أقيمـت وأعـدت مـن الفـراغ المحيـط: تكاثـر عظيـم ومنظّـم في الأبنيـة الشـاهقة ذات النسـق الواحـد وعلـى صـف واحـد، وهـي تذكرنـا بالنبـت المتسـارع والقـوي للمـدن الأميركيـة، مـع شـيء مـن دقـة وصرامـة نظـام التوجيـه البروسـي، الواعـي والحـازم. وفـي برليـن خاصـة - التـي تنتصـب أنقاضهـا العظيمـة التأثيـر فـي صمـت كثبان الرمـل والبحيـرات والغابـات - نلمـس أفضـل مـن أي مـكان آخـر، مغـزى إبـداع وخلـق ليـس فطريًـا عفويًـا، إذ هـو يمثـل توكيـدًا للغـرب فـي أراضٍ ليسـت غربيـة جغرافيًـا، وهـذا يوضـح بـلا شـك أحـد أسـباب الاختلافـات الأساسـية بيـن ألمانيـا البروسـية وفرنسـا. ونحـن الفرنسـيين لا نعـرف إلـى أي حـد نحـن متحضـرون وأريـد بذلـك أن أقـول: إلـى أي مـدى فقدنـا الاتصـال بالطبيعـة البدائيـة كـي نصيـر قبـل أي شـيء آخـر، متكيفيـن مع كل الظـروف؟ والحـال أن الألمـان حافظـوا علـى هـذا الاتصـال وهـو يمـارس علـى تفكيرهـم نفـوذًا ومكانـة كبيريـن. علـى بضـع كيلومتـرات مـن برليـن يتبقـى هنـاك غابـات هـي أشـبه بغابـات روسـيا مـن غاباتنـا، والمحيـط اللامحـدود مـن سـهول الشـرق لا يبعـد كثيرًا: ونحـن نشـعر فـي الجـو بقربـه وبحضـوره، كمـا نشـعر فـي أقاليمنـا الفرنسـية الغربيـة بقـرب وحضـور المحيـط الأطلسـي حتـى حيـن يكـون بعيـدًا لا نـراه. ويوحـي هـذا المكان

بحرية التفكير التي تبحث مخيلتنا عنها حيث البحر والفضاء. وقد دأب الألمان على البحث عنها من ناحية الشرق، في لانهائية «الفضاء» الروسي، حيث كان التوسع الاشتراكي القومي (أي النازي) يعتقد أنه سيجد فيه مثابة له. وينبغي ألا نخدع أنفسنا وأن نعترف بأن نقاط الجذب العميقة لألمانيا لم تكن نحو الغرب، بل نحو الشرق. والتعبير الذي كان يثير معنى الحدود في أذهان الأميركيين - ولوقت طويل جدًا - في سيرهم باتجاه المحيط الهادئ (الباسفيكي)، وجد لدى ألمان الأمس معادله في ذلك المحيط من الأراضي البكر التي تبدأ عند أبوابهم، والتي كان برنامجهم أن ينظموها وأن يستغلوها.

حين نتحدث عن ألمانيا يجب أن نضع نصب أعيننا خريطة الفتوحات الرومانية، ولكن هناك خريطة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها - خصوصًا حين نتحدث عن البلاد التي تقع في شرق نهر إلب - تلك هي خريطة تقدم المسيحية. إذ يتضح من تلك الخريطة أن «الفتح المسيحي» قد بلغ خط الراين منذ القرن الخامس، وخط نهر إلب في القرن التاسع. وأما الإقليم الذي يقع بين إلب وروسيا فقد اعتنق المسيحية في ما بين القرنين التاسع والثاني عشر. ولكن بروسيا الشرقية، وبلاد البلطيق لم تدخل المسيحية إلا في ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر. وهذا يجعلنا نقدّر كم أن مسيحية ألمانيا هي حديثة، في شرق نهر إلب وعلى الأخص في شرق «الأودر». وتملك الروح الجرمانية هنا نبعًا من الشباب لا تملكه فرنسا التي بلغتها الرومانية والمسيحية قبل ما يقارب ألفي سنة. ونحن نملك - في ما يتعلق بالماضي التاريخي - ألفين أو ثلاثة آلاف متر ماء تحت سطح البحر، حيث لا تملك بروسيا الشرقية من هذا القدر إلا أربعمئة أو خمسمئة متر. وقد روى لي وكهام ستيد[6] (Wickham Steed) أنه في أثناء حديثه مع اثنين من أهالي كاليفورنيا، طلب منهما أن يحدثاه عن أقدم مناسبة تاريخية يتذكرانها، فأجابوه بعد لَأي أنها تعريفة رئيس الولايات المتحدة ماكينلي (McKinley) (1890). وقد خطر ببالي في محاضرة ألقيتها في برلين في عام 1930، أنه يمكنني ذكر هذا الجواب الموحش، وشبه المفزع بالنسبة إلى

(6) هنري وكهام ستيد (1871-1956) (Henry Wickham Steed) صحافي ومؤرخ بريطاني شهير. كان أول من نبّه الرأي العام للخطر الهتلري.

الأوروبيين، وذلك كمثال نموذجي عما هي أميركا. ولكن حدث أن تقدم إلي أحد وقال لي إنني أخطأت حين توقعت ردة فعل مماثلة لردة فعلي عند جمهور المستمعين. وشرح لي أن الماضي التاريخي لبرلين قصير جدًا نسبيًا، وأن أهل برلين يشعرون لأسباب كثيرة أنهم إلى حد ما مثل أهل كاليفورنيا في هذا المقام.

من وجهة النظر هذه، يبدو طابع الدولة الألمانية لنا في ضوء مختلف، كما يبدو كذلك التأثير الذى مارسته هذه الدولة أو حاولت أن تمارسه في كل من أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية. ففي هذه البلاد ذات العمق البربري والانجذاب الشرقي، كان الدور التاريخي للجرمانية هو أن تزرع فيها النظام الغربي. وقد حققت الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية برنامجًا على هذه الشاكلة في دول البلقان، وفي ظل شروط مريحة ومعقولة إجمالًا. وقد أزاحت ألمانيا من جانبها حدود الغرب إلى الوراء (أي إنها توسعت غربًا)، غير أنها فشلت أخيرًا حين تصورت عملها هذا بأنه نوع من الاستيطان للاستغلال، يديره كوادرها باسم تفوقها الخاص. فالغزو جرى لمصلحة أوروبا ولكن الغزاة الفاتحين لم يفتأوا أن شعروا هم بإغراء هذا الشرق وقد تمت لهم السيطرة عليه.

بقدر ما وجدت أوروبا الوسطى نفسها مدعمة في الشرق كما في الغرب بأقاليم تشاركها مصيرها وأهدافها، قامت بدور المحور الذي يقوم عليه توازن القارة كلها. ولكن المد القادم من آسيا قد غطى من جديد تلك المنطقة التي كان الغرب قد استرجعها، بحيث إن أوروبا الوسطى لم تعد سوى «حدود». وبتغيير تموضعها هذا، فإنها لم تعد تستطيع أن تؤدي، في أوروبا مقلوبة رأسًا على عقب، الدور نفسه الذي أدته في الماضي. غير أن ما يبعث على الدهشة هو أن وضعًا جديدًا جدًا كهذا هو في الآن نفسه مغرق في القدم: فحدود الاحتلال الأنكلوأميركي، كما اتفق عليها في «يالطا»، هي على وجه التقريب، حدود إمبراطورية شارلمان نفسها.

(2)

إن الشعب الألماني هو من أكثر شعوب العالم تحدثًا عن أصل العرق الذي ينتمي إليه، بيد أن هذا الشعب ذا العرق الأصيل لم يتوحد إثنيًا، حيث

يعيــش فــي وطنــه ثلاثــة أعــراق تختلــف تمــام الاختــلاف وهــم: الجرمانيــون، الألبيــون (نســبة إلــى جبــال الألــب) والســلاف (الصقالبــة)[7].

يشــكل العــرق الجرمانــي صميــم الشــعب، لا بــل جوهــره إن جــاز لنــا التعبيــر. فهــذا العــرق ينحــدر مــن جرمانيــي الغــزو الرومانــي: إنهــم الفرنجــة والبورغونديــون والألامــان[8] الذيــن شــكلوا أول حاجــز فــي الغــرب. ثــم جــاء بعدهــم فــي الشــمال والوســط قبائــل السكســونيين والقــوط والفنــدال، ومــن ورائهــم تتابعــت موجــات الســلافيين، ثــم قبائــل الهــون - وغيرهــا مــن القبائــل المنغوليــة - فــي روســيا. وحيــن نرجــع القهقــرى إلــى عشــية الحــرب العالميــة الثانيــة، قبــل عمليــة الامتــزاج الرهيبــة التــي كانــت مــن نتائــج تلــك الحــرب، نجــد أننــا نصــادف فــي اتجاهنــا مــن الغــرب نحــو الشــرق، وفــي الترتيــب نفســه، جرمانييــن وألبييــن وســلافيين وتتــار[9]. وقــد تجمعــت الشــعوب الجرمانيــة الخالصــة في كتل متراصــة متكاثفــة، فــي الشــمال الغربــي علــى الأخــص، مــا بيــن نهــر إلــب وغابــات إقليــم ثورنجــن[10] (Thüringen) وبحــر الشــمال. وفــي هــذه المنطقــة بالــذات يوجد المجــال الحقيقي للعــرق المســمى بالشــمالي، والــذي يشــمل أيضًــا اســكندنافيا، وفــي خــارج أوروبــا الأجــزاء الأنكلوسكســونية مــن إنكلتــرا والولايــات المتحــدة. ولــم تتغيــر الخصــال التــي يتميــز بهــا الجرمانيــون منــذ الغــزو الرومانــي، إذا ما صدقنــا وصف المــؤرخ اللاتيني تاســيت (Tacite) حين

---

(7) السلاف، أو الصّقالبة هم مجموعة عرقية لغوية يتحدثون باللغات السلافية. يستقرون أساسًا في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية. ينقسم السلاف إلى سلاف شرقيين (الروس والأوكرانيين والبيلاروسيين)، سلاف غربيين (البولنديين والسلوفاكيين والتشيكيين) وسلاف جنوبيين (السلوفينيين والكروات والصرب والمقدونيين والبوسنيين والبلغار).

(8) الإفرنج أو الفرنجة أو الفرنكيين هم مجموعة قبائل جرمانية غربية وكانت شكلت ما عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية. دخل الإفرنج مناطق الإمبراطورية الرومانية من خلال ما يعرف الآن بألمانيا واستوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال (حاليًا فرنسا وأجزاء من غرب ألمانيا) مكونين فيها إمارة شبه مستقلة.

(9) التتار (Tartares) مصطلح غربي ملتبس لأنه يضم شعوبًا عدة مثل التتار ومغول أوراسيا ومغول آسيا الوسطى.

(10) الثورنجن (Thüringen) وتسمى رسميًا دولة ثورنجن الحرة، هي مقاطعة في وسط ألمانيا عاصمتها إرفورت (Erfurt) وهي قلب ألمانيا الأخضر نظرًا إلى غناها بالغابات.

يقـول: «الجرمانيـون قـوم مسـتطيلو الجبهـة، طويلـو القامـة، أقويـاء البنيـة، شـقر أو حمـر اللـون، زرق العيـون، وجبلتهـم فاتحـة». وقـد أطلـق الكاتـب الفرنسـي دو غوبينـو (سـبق التعريـف بـه) عقيـدة تفوقهـم، وبذلـك يكـون قـد أيّـد فكـرة الألمـان، ومجمـل الأنكلوسكسـون الواعيـن، عـن قيمتهـم وعـن الـدور العائـد لهـم فـي العالـم. وطبقًـا لهـذه الأطروحـة لـم يعـد سـاكن الشـمال بالضـرورة أكثـر فهمًـا مـن السـلافي أو اللاتينـي، لكنـه يفوقهمـا خُلقًـا وجدية، وبمـا يسـميه الأميركيـون «الشـعور بالقيـادة» أي حسـن الاسـتعداد للرياسـة والسـيطرة. ويعـد الألمانـي نفسـه - فـي إخـلاص يشـوبه شـيء مـن السـذاجة - أنـه مـن عـرق متسـام عـن بقيـة الأعـراق فهـو يقـارن نفسـه فـي فخـر إمـا بالعـرق اللاتينـي المنحـط وإمـا بالسـلافي ذي العـرق الأدنـى، وحيـث يـرى أن زعامتـه عليهمـا هـي أمـر عـادي لا بـل هـي فـي شـكل مـن الأشـكال شـرعية وتأسيسـية.

مـن الألمـان فئـة ثانيـة ليسـت مـن الجرمانييـن بـل مـن الألبييـن، ويوصفـون أحيانًـا بأنهـم مـن الكلـت وهـم يسـكنون إلـى الغـرب مـن (Thuringer Wald)، فـي إقليـم «بافاريـا» ومقاطعـة «ورتمبـرغ» وبـلاد «بـاد» (بالألمانيـة بـادن) وهـم قـوم صغـار الـرؤوس، سـمر البشـرة، وذوو قامـة متوسـطة، وكلمـا اتجهنـا صـوب الجنـوب الشـرقي نجـد قِصَـر القامـة واضحًـا لـدى سـكان هـذه الجهـات، حيـث يقتربـون فـي قصـر القامـة مـن النمسـاويين والسويسـريين وسـكان إقليـم «أوفيرنـي» فـي بلادنـا (Auvergne). وحيـن نتجـول فـي ألمانيـا ننذهـش بشـدة مـن ذلـك العـدد الكبيـر مـن النـاس الذيـن نلتقـي بهـم والذيـن ليسـوا علـى الظاهـر مـن الشـماليين. ولكـن ذلـك لا يجعلهـم لا يشـعرون بالفخـر والاعتـزاز بجرمانيتهـم، ولـو أنـه مـن الوجهـة العنصريـة ليـس هنـاك مـا يسـمح لهـم بذلـك.

هنـاك ملاحظـة جديـرة بالاهتمـام، وهـي أن ألمانيـا فـي الواقـع أكثـر سـلافية ممـا قـد نظـن عـادة. فقـد احتـل السـلاف (الصقالبـة) فـي غزواتهـم فـي مـا بيـن عامـي 400 و700 بعـد الميـلاد ألمانيـا الشـرقية كلهـا ووصلـوا حتـى نهـر إلـب، وبذلـك وجـدت الأراضـي الحاليـة لبروسـيا الوسـطى والشـرقية و«سـيليزيا» و«سـاكس» وجـدت نفسـها مختلطـة بالـدم السـلافي، مـع «البـوروس» «بورسـيا الشـرقية» والليـك (بولنـدا) والفانـد (شـرق برليـن) والسـوراب (سـاكس). ولـم يحـدث إعـادة فتـح

هـذه البـلاد غيـر الجرمانيـة علـى يـد الجرمـان قبـل القـرون الوسـطى، وكان الفرسـان التوتونييـن عناصـر تنفيـذ هـذا الاسـتعمار ذي الأسـلوب الراقـي، وذلـك مـن خـلال إقامتهم للمراقـي (marches). وقـد أصبـح «البـوروس» الذيـن اعتنقـوا المسـيحية بعـد الوثنيـة هـم البروسـيين. وقـد تحدثنـا آنفًـا عـن روح هـذه السياسـة وطابعهـا: فألمانيـا قـد تغيـرت الآن فـي حقيقـة مظهرهـا نفسـه، كمـا لـو أن ذلـك جـرى بتأثيـر طابـع قـوي. وحيـن كنـا نعبـر بالأمـس حـدود هـذه المنطقـة - لأن تيـارًا مضـادًا هـو فـي طريقـه لمحـو هـذه الآثـار الزمنيـة - التـي تطالـب الإدارة البروسـية باسـتردادها، كنـا نشـعر بأننـا قـد انتقلنـا بخطـوات قليلـة مـن قـرن إلـى قـرن ومـن حضـارة إلـى أخـرى: هنـا عنـد هـذه النقطـة ينتهـي الغـرب، وكان بالإمـكان وضـع علامـة ترسـم حـدود هـذا الخـط الـذى أُنشـئ بواسـطة الرومانييـن علـى طـول حـدود إمبراطوريتهـم (limes). ومـع ذلـك، فـإن الوجـود السـلافي فـي هـذه البـلاد ظـل أمـرًا خفيًـا باطنًـا، وحتـى الغـزاة أنفسـهم لـم يشـعروا بتسـلله إلـى داخلهـم فـي «سـيليزيا» و«بروسـيا» وصـولًا إلـى «سـاكس». ونحـن نكتشـف هـذا الوجـود مـن خـلال الكلمـات الكثيـرة التـي تنتهـي بـلاحقة إتـز (itz) أو إتـزا (itza) وفـي أسـماء العلـم حاملـة اللاحقـة «Ow». كمـا أن سـيكولوجية الشـعب نفسـها تأثـرت بهـذا الوجـود. فيـا لتلـك المرونـة الهاربـة أحيانًـا خلـف جلافـة ابـن برليـن، وكـم هـي القربـى كبيـرة بيـن لهجـة البروسـي حيـن يتحـدث الفرنسـية ولهجـة البولوني أو الروسـي! وكـم مـن التـردد خلـف سـتار مـن الصلابـة المخادعـة. ونحـن نشـعر أن ألمانيـا الشـرقية هـذه مـا هـي إلا عبـارة عـن بنيـان فوقـي جرمانـي قائـم علـى عمـد قويـة تخفـي تحتهـا مسـتنقعًا صقلبيًـا.

ولا يـكاد يخـرج التأثيـر الشـرقي فـي هـذه المنطقـة عمـا ذكرنـا آنفًـا، إذ إن علينـا أن نتحـدث أيضًـا عـن اليهـود علـى الرغـم مـن هـذا السـيل العـارم مـن الاضطهـاد الهتلـري. ونسـتطيع أن نميـز هنـا بسـهولة بيـن حركتيـن: الأولـى حركـة اليهـود الذيـن «تغربـوا» (صـاروا غربييـن) فـي القـرن التاسـع عشـر: يهـود «فرانكفـورت» خصوصًـا وهـم رجـال مـال مـن أعلـى الطبقـات، اندمجـوا فـي الاقتصـاد الأوروبـي؛ ويهـود برليـن أيضًـا الذيـن قبلـوا فـي الحلقـات الرسـمية للإمبراطوريـة وهـم الذيـن تكاثـر عددهـم بعـد عـام 1871. وقـد رمـز إلـى تكاثـر عـدد اليهـود بإطـلاق البرلينييـن فـي عـام 1895علـى شـارع المنظـر الجميـل (Bellevue Strasse) اسـم «شـارع ليفـي

الجميـل» (Bel Levy Strasse)، ولا يفوتنـا أن ننـوه بالـدور الكبيـر الـذى أداه اليهـود فـي العمليـات الماليـة فـي ظـل حكـم بسـمارك. مـن جهـة أخـرى، فقـد انتشـرت موجـة جديـدة مـن اليهـود فـي ألمانيـا عامـة وفـي برليـن خاصـة، وذلـك نتيجـة للحـرب العالمية الأولـى. وقـد كان هـذا الجمـع مـن اليهـود أشـبه بقـوم مـن الغريبيـن (exotiques) الذيـن كانـوا أقـل احتـكاكًا بالغـرب هـذه المـرة، وكانـوا يشـبهون إلـى حـد كبيـر الغـزو اليهـودي النيويوركـي.

غيـر أن مـا كان مثيـرًا للاهتمـام هنـا هـو أن نشـاط هـؤلاء الجـدد الذيـن كانـوا أصحـاب سـطوة فـي ظـل جمهوريـة فايمـار[11] (Weimar)، لـم يقتصـر علـى الجانـب المالـي كمـا فـي السـابق، بـل صرنـا نجـد هـذا النشـاط إلـى حـد مـا عنـد تقاطـع الطـرق مـا بيـن المـال والعقـل. فقـد صـاروا يمتلكـون عـددًا وفيـرًا مـن دور السـينما والمسـارح والصحـف والمتاحـف، وحتـى مهنـة الطـب. وبفضـل هـذا التدخـل التلميحـي الـذي يتـدرج مـن أطروحـة الفـن الطليعـي إلـى الإعلانـات الماليـة، فإلـى الدعايـة للشـيوعية، فـإن حضـورًا خفيًـا حاذقًـا للسـوفيات صـار ملموسًـا نوعًـا مـا فـي العاصمـة الألمانيـة التـي كانـت بعـض ملامحهـا غيـر الغربيـة، والروسـية الخفيـة، تبـرز بغرابـة. وكان بعضهـم يقـارن برليـن بنيويـورك قبـل الحـرب، وهـذه المقارنـة ليسـت خاطئـة مـن حيـث الظاهـر، ولكـن يبـدو أن الأمـر كان بالأحـرى السـير خطـوة مرحليـة نحـو روسـيا البلشـفية. وكان الأمـر ليكـون أكثـر صدقيـة حيـن نتحـدث عـن إحـدى العواصـم - المصافـي مثـل برسـلاو فـي بولنـدا، وهـي الآن مدمـرة تمامًـا، وقـد كانـت بالنسـبة إلـى اليهـود مرحلـة تدريبيـة للتكيـف مـع الحيـاة الألمانيـة. وهـذه العاصمـة الغربيـة جـدًا وبشـكل عدوانـي فـي إطارهـا الخارجـي، كانـت تخفـي فـي نفسـها بـذورًا خداعـة مـن الشـرق بسـبب وجـود اليهـود فيهـا علـى الأغلـب.

---

(11) جمهورية فايمار (Weimar Republik) هو الاسم الذي أعطاه المؤرخون للنظام السياسي الذي أقيم عام 1918 في ألمانيا واستمر حتى 1933. نشأت هذه الجمهورية بعد ثورة 1918 التي أعقبت انكشاف هزيمة ألمانيا في الحرب الأولى. صوت البرلمان الجديد المسمى الجمعية الوطنية التأسيسية على دستور الجمهورية في 31 تموز/يوليو 1919 في مدينة فايمار التي أعطت اسمها بالتالي لكامل الحقبة التاريخية التي استمرت فيها الجمهورية في حين استمرت الدولة تحمل اسم الرايخ الألماني كما كان الأمر في ظل الإمبراطورية.

جلبت كل هذه الظروف مجتمعة الاضطهاد المعروف الذي حدث في ألمانيا: فالتربة الألمانية والتربة اليهودية كانتا مهيأتين لوقوع مثل هذا الاضطهاد الذي ليس له نظير، ومع ذلك فليس في إمكان المرء - حتى في يومنا هذا - أن يتجاهل أثر الخميرة اليهودية في تكوين ألمانيا. وقد أشار بسمارك إلى هذا الأمر، ليس من أجل التأسف عليه فحسب، حيث يقول: «لقد جلب اليهود في امتزاجهم مع بعض الأعراق الألمانية شيئًا من فوران الرغوة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نحتقره». ولا يقوى الفرنسي من الناحية الغريزية على فهم اليهودي لأنه تنقصه القدرة على اكتساب مودته والظفر بمحبته عند الاتصال به، ولذلك فإنه غالبًا ما يخطئ حين يعتبر بعض الخصال اليهودية الصرفة على أنها جرمانية. والواقع أن اليهودي الألماني ليس تمامًا مثل أي ألماني غير يهودي حتى لو تكيف واندمج وصار فوق مستوى الألماني الجرماني نفسه، ذلك أنه لا يتخلى عن الشعور والتفكير والتعبير بروحه اليهودية الأصلية: فأسلوبه وطريقة تعبيره وصياغة جمله، وطريقة تحليله العقلي ومناقشته القضايا والبرهنة عليها، تختلف تمامًا مع وضوح في الفكرة وضوحًا تامًا عالميًا لا هوية قومية لها ما يجعلها أكثر قربًا من أفهامنا (نلمس هذا على سبيل المثال في مؤلفات هاينرش هاينه[12] (Henri Heine)، وإميل لودفيغ (Emil Ludwig))[13]. والحال أن العنصر

(12) هاينرش هاينه (1797- 1856) (Christian Johann Heinrich Heine) شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير ويعد من أهم الشعراء الألمان الرومنطيقيين. ولد في مدينة دوسلدورف في ألمانيا من عائلة يهودية كانت تمارس التجارة. بعد تلقيه تدريبًا في مهنة التجارة في مدينة فرانكفورت، درس هاينه القانون في مدينة بون ومدينة غوتينغن ثم في مدينة برلين. وفي سنة 1825 نال درجة الدكتوراه في القانون، وكان قبل ذلك قد اعتنق المذهب البروتستاني. وفي عام 1831 غادر الشاعر هاينه ألمانيا بسب الأوضاع السياسية السائدة آنذاك. واستقر في باريس حيث اشتغل مراسلًا صحفيًا لجريدة Augsburger Allgemeinen Zeitung. خالط هاينه فيكتور هوغو وأونوريه دو بلزاك وصادق كارل ماركس. وابتداءً من سنة 1835 جرى منع تداول كتاباته داخل ألمانيا. لحن فرانز شوبرت وروبرت شومان ويوهانس براهمس معظم قصائد هاينه وأغانيه.

(13) إميل لودفيغ (1881-1948) (Emil Ludwig) اسمه في الأصل إميل كوهن (Emil Cohn) كاتب ألماني ولد في بريسلاو (Breslau) وهي توجد اليوم في بولندا، من أسرة يهودية... تخصص في كتابة السيرة الذاتية لعدد كبير من القادة السياسيين والشخصيات التاريخية وبعض المفكرين. كتب المسرحيات والرواية، وعمل أيضًا صحفيًا خصوصًا خلال الحرب مراسلًا أجنبيًا ما بين برلين وفيينا واسطنبول. أجرى مقابلات تاريخية مع موسوليني ومصطفى كمال أتاتورك ولينين وستالين وكتب سير نابليون وغوته وبسمارك وستالين وحتى سيرة السيد المسيح.

الإسـرائيلي نمـا إلـى حـد أصبـح فيـه جـزءًا لا يتجـزء مـن «التركيبـة» الجرمانيـة، بحيـث غـدا مـن المقبـول أن لا نضيـع فـي الأمـر. وعلـى ذلـك فقـد صـار «مركـز جاذبيـة» سـيكولوجية الشـعب الألمانـي، فـي ظـل كل مـن الإمبراطوريـة وجمهوريـة فايمـار علـى السـواء، موزعًـا بيـن الشـرق والغـرب. والحـق أن وجـود ألمانيتـان اليـوم بأعراقهمـا المتشـابكة المتداخلـة لا يغيـر مـن وضـع المسـألة المذكـورة هنـا.

تتمخـض عـن هـذه الملاحظـات ذات الطابـع الإثنـي نتيجتـان مهمتـان: النتيجـة الأولـى هـي أهميـة العـرق فـي تصـوّر الأمـة لنفسـها. فبالنسـبة إلينـا - نحـن الفرنسـيين - الأمـة هـي حضـارة علـى أرض محـددة وليـس أي أرض غيرهـا. أمـا ألمانيـا فتصورهـا لنفسـها يقـوم علـى كونهـا عرقًـا أكثـر ممـا هـي أرض وحـدود. فالمصيـر الجرمانـي هـو مصيـر الجرمانييـن، علـى عكسـنا نحـن، إذ لا نتخيـل أنفسـنا نقـول إن مصيـر فرنسـا هـو مصيـر اللاتينييـن أو الكلـت أو الفرنكييـن. إذًا هـا هنـا شـيء مـن السـلطان فـي هـذه الإرادة التـي يحملهـا عـرق للسـيطرة ولتنظيـم أعـراق أخـرى يعتبرهـا أدنـى منـه عرقيًـا. والشـعور بالمسـاواة بيـن الأعـراق البشـرية المختلفـة - وهـو شـعور طبيعـي فـي نظـر الفرنسـيين - يظـل غريبًـا علـى الـروح الجرمانيـة. ولعـل هـذه هـي العقبـة الأكثـر خطـورة التـي وقفـت فـي وجـه اسـتتباب السـلام الدائـم فـي أوروبـا، وخصوصًـا فـي أوروبـا الشـرقية: فلـو كان الجرمانـي اعتبـر السـلافي متكافئًـا معـه فـي سـلك الدرجـات العرقيـة للقـارة، لاتخـذت المشـكلة فـي أوروبـا وجهًـا آخـر.

النتيجـة الثانيـة، هـي أن الألمانـي الـذي ليـس بالغربـي تمامًـا وليـس بالشـمالي تمامًـا، لديـه القـدرة علـى الاتصـال والتعامـل مـع روسـيا لا نملكهـا نحـن علـى أي مسـتوى. فهـو تاريخيًـا علـى تمـاس مـع العالـم الروسـي، حتـى مـع وجـود بولنـدا بصفتهـا منطقـة فاصلـة بينهمـا، وهـو لذلـك قريـب ماديًـا مـن الجـو الروسـي؛ فهـذا الجـو ليـس بغريـب عليـه حتـى لـو أنـه كان علـى الـدوام يشـعر بالخـوف مـن هـذا الجـار البربـري. هكـذا يمكـن تفسـير التأثيـر الألمانـي فـي بطرسـبورغ أيـام حكـم القياصـرة، وفـي موسـكو مـن بعدهـم. وقـد كان مـن نتيجـة هـذا الاحتـكاك الطويـل المـدى أن أصبـح الألمانـي علـى معرفـة جيـدة بكيفيـة التعامـل مـع شـرقيي أوروبـا هـؤلاء أو غربيـي آسـيا أولئـك، خصوصًـا وأنهـم كانـوا يتعاملـون معـه طبيعيًـا، لأنـه كان مناسـبًا، ليـس بصفتـه تقنيًـا فحسـب، وإنمـا كونـه وسـيط أعمـال وعميـلًا وموظفًـا كذلـك. وقـد

كان لـدى حكومـة القياصـرة العديـد مـن كبـار الضبـاط والسـفراء والـوزراء الذيـن كانـوا أساسًـا ألمانييـن بـكل بسـاطة. وحيـن تحـدث بسـمارك فـي مذكراتـه عـن أيـام سـفارته فـي روسـيا، ذكـر كيـف أن هـؤلاء الـروس (الألمـان) - أعضـاء السـفارة - كانـوا أكثـر فاعلية مـن غيرهـم. أنـا أعـرف أن الـروس والألمـان لا يحبـون بعضهـم بعضًـا (ولا يوجـد سـبب كـي يحبـوا بعضهـم بعضًـا) ومـع ذلـك فقـد كان هنـاك دائمًـا بيـن البلديـن تواطـؤ غامـض ناتـج، إلـى حـد مثيـر للقلـق، عـن نـوع مـن القرابـة البعيـدة.

لكـن كيـف منيـت ألمانيـا بهـذا الفشـل الذريـع مـع كل مـا تملـك مـن ثـروة كبيـرة فـي عناصرهـا الإثنيـة؟ إن انصهـار هـذه العناصـر بعضهـا فـي بعـض أو بالأحـرى اندماجهـا الطيّـب، لـم يحصـل فعليًـا، وكان كل واحـد مـن هـذه الأعـراق يعمـل بحسـب مـا يـرى أو بالأحـرى مـا يهـوى، فأصبـح بذلـك عامـلًا مـن عوامـل بـث الفوضـى والدمـار. وقـد نشـأ عـن لقـاء التواصـل اللاتينـي مـع الجديـة الجرمانيـة ظهـور قـوة خارقـة فـي التحليـل عنـد الألمـان. وقـد أدى العنصـر البروسـي دورًا كبيـرًا فـي تكويـن القـدرة العظيمـة علـى التنظيم لـدى هـذا الشـعب، كمـا غـرس فيهـم العنصـر الصقلبـي نوعًـا مـن التصـوف، ولكـن أيضًـا غيـاب الاتـزان والاعتـدال، بحيـث إن كل هـذا النسـق مـات فـي النهايـة. وكان كل عنصـر مـن هـذه العناصـر، الرائـع بحـد ذاتـه، يخـرج مـن حيـث لا نحتسـب، وبالتالـي فلـم يكـن هنـاك تآلـف صحيـح وإنمـا تجـاور متفجـر.

(3)

كلنـا يعـرف مسـرحية بيرانديلـو[14] (Pirandello) المعنونـة سـت شـخصيات تبحـث عـن مؤلـف؛ هـذه الشـخصيات موجـودة افتراضيًـا، غيـر أنـه ينقصهـا الشـكل

---

(14) لويجي بيرانديلو (1867-1936) (Luigi Pirandello) روائي ومسرحي إيطالي ألّف مئات القصص القصيرة وحوالى 40 مسرحية، معظمها مقالب هزلية ضمن المسرح العبثي. في عام 1925 عينه موسوليني مديرًا فنيًا ومالكًا لمسرح الفن في روما (Teatro d'Arte di Roma). وصف نفسه بالقول: «أنا فاشي لأنني إيطالي». دعم موسوليني له جعله يدور العالم من لندن إلى باريس إلى فيينا وبودابست وبراغ إلى ألمانيا إلى الأرجنتين فالبرازيل... وبسبب خلافاته مع زعماء فاشيين معروفين انسحب من الحزب عام 1927 ممزقًا بطاقته. نال جائزة نوبل للآداب 1934. أيد ضم إيطاليا للحبشة وأعطى جائزة نوبل التي نالها للحكومة الفاشية كي تقوم بتذويبها لمصلحة حملة الجيش الإيطالي في الحبشة. كان آخر إيطالي ينال جائزة نوبل حتى عام 1997. وبيرانديلو هو صاحب نظرية خيانة الممثل للنص التي تركها لاحقًا لمصلحة نظرية تماهي الممثل مع شخصية الدور الذي يؤديه.

الذي يقوم عليه الوجود الحقيقي، والذي لا يستطيع منحها إياه غير تدخل خارجي فحسب. وهذه هي حالة الروح الألمانية الغنية بطاقاتها وإمكاناتها والتي لا تتطلب غير التعبير عن نفسها، وإن كانت مع ذلك جادة دائمًا في البحث عن شكل لا تجده إلا في الخارج؛ أي في عجزها عن أن تستمد شكلها هذا من داخل نفسها. وفي حين يُعبّر الفرنسي عن نفسه بشكل شبه كامل من خلال حضارته، نجد أن ألمانيا وفي سلسلة من التحولات التي لا تتكشف أي واحدة منها في النهاية عن أن لها خاصية البقاء، تظل على الدوام في حالة تغيّر. بعضهم سيقول إنها حالة مَرَضية، لكنني أعتقد أن الألمانيين يشعرون - في العمق - بميل خفي نحو هذا التردد في البت في الأمور مما يدع لهم أبواب المستقبل مفتوحة - كما يعتقدون - حتى لو كانوا في هوة سحيقة.

لكل من الشعب الفرنسي والشعب الألماني تصوّران فلسفيان ومزاجان خاصان يفصلان تمامًا بينهما، من حيث إن الأول يمثل وجهة النظر الستاتيكية (الثابتة)، والثاني يمثل وجهة النظر الدينامية (المتغيّرة). فالثابت عند الفرنسي هو الأمر المتحقق، المنتهي، في حين يرى الألماني في المتحقق والمنتهي ما هو كامل: ولعل هذا الشيء كامل، ولكنه حينذاك لا يعود قابلًا للتحول في نظره، وبالتالي فهو ميت، من دون نفع. في حين أن الدينامي على العكس من ذلك يمثل بالنسبة إليه جوهر الحياة نفسها، التي هي حركة: فهو تيار جارف لا يعرف له اتجاه ولكنه يجرفك معه ويجعلك تتواصل مع قوته بنوع من نشوة السكر الصوفية. ونحن نعارض بقولنا إن هذا التغيّر المستمر يظل إلى الأبد افتراضيًا. ولا يمكن حل سوء التفاهم هذا والمتعلق بالمعنى المزدوج المتناقض للكلمات نفسها، إذ إنه يتعلق بتصورين متعارضين لمعنى الكينونة و(الوجود).

التصور الألماني للفرد يختلف عن تصورنا نحن الفرنسيين. فنحن نعترف أن الألماني يحيا حياة روحية جادة وعميقة وإن كانت مضطربة وكامنة جيدًا في أغوار نفسه، بحيث إنه لا يستطيع التعبير عنها. والمقصود بهذه الحياة الروحية «تَقْوى» مركّزة، متحررة من كل تضامن مع الحركة والنشاط (التي تتركها للسياسة)، وهي شعور شبه صوفي يميل بقوة إلى الحلولية ووحدة

الوجـود، وبالاتصـال الحميـم مـع الطبيعـة ومـع القـوى الأوليـة للهـواء والأرض. ويعجـز التحليـل والكلمـات عــن التعبيــر للخــارج عــن حالــة نفســية مشــابهة كهــذه، فــإذا مــا أراد الألمانــي أن يعبــر عــن حالتــه النفسـية هــذه فإنمـا يكـون ذلـك مـن طريـق وســائل أخــرى غيــر التحــدث عنهــا بالــكلام، كالموســيقى والغنــاء مثــلًا، أو بالهيجــان الجماعــي والضبابــي لحماســة يمكــن وصفهــا بأنهــا ديونيســية، وأحيانًــا أخــرى يكــون ذلــك حتــى مــن خــلال الصيحــات واللعنــات، وهــذا كلــه يفســر التأثيــر العجيــب علــى نفــوس المســتمعين الــذي حملتــه بلاغــة الخطــب الهتلريــة التــي كانــت غالبًــا غيــر مفهومــة وإنمــا تحمــل ســحرًا قويًــا. ويعتبــر النثــر الألمانــي - بوصفــه وســيلة للتعبيــر - أداة متواضعــة: فهــي ثقيلــة، مشوّشــة، تــدور بصعوبــة حــول الموضــوع الرئيــس. ولكــن الشــعر الألمانــي رائــع عظيــم وإن كان يصعــب ترجمتــه إلــى لغــات أخــرى، وهــو يخاطــب مباشــرة الكينونــة بذاتهــا. إذا كان لزامًــا علــى الفرنســي أن يبحــث فــي تجربتــه الشــخصية عــن حــالات نفســية تشــبه تلــك التــي عنــد الألمانــي، فإنــه قــد لا يجدهــا إلا فــي فتــرة طفولتــه الأولــى، قبــل أن يفعــل العقــل فعلــه فــي بنــاء ذلــك الوعــي القاســي الجــاف.

نحــن لا نــرى هــذه الحالــة النفســية لــدى الألمانــي إلا فــي القليــل النــادر - وفــي كل مــا نســتطيع أن نــراه مــن نفســية الألمانــي، فــإن مــا يثيــر دهشــتنا هــو خلــوه مــن الشــخصية وفــراغ نفســه بمعنــى مــا. وقــد كتــب جــاك ريفييــر[15] (Jacques Rivière) يقــول: «لندرســهم مــن أول نشــأتهم قبــل أن تصبــح الإرادة الحديــد التــي اكتســبوها جــزءًا مــن حياتهــم، إنهــم نكــرات، لا يرغبــون بــأي شــيء ولا ينتظــرون أي شــيء ولا يدّعــون أي شــيء!»[16] ومــن هنــا كانــت تلــك النتيجــة التــي جعلتهــم قــوة افتراضيــة، مفتوحــة علــى شــتى الإمكانــات، وبالتالــي متوفــرة، وأساسًــا مرنــة. ولذلــك، فــإن أي حكومــة تســتطيع أن تصنــع مــا تشــاء مــن هــذا الكائــن الــذي لا يقــاوم. ويوجــد هاهنــا بالنســبة إلــى الدولــة، وإلــى أولئــك الذيــن يمســكون بمقاليــد الحكــم فيهــا، إغــراء

(15) جاك ريفيير (1886-1925) (Jacques Rivière) رجل آداب وفكر فرنسي أسس المجلة الفرنسية الجديدة (La Nouvelle Revue Française) (1919-1925).

(16) Jacques Rivière, L'Allemand. Souvenirs et réflexions d'un prisonnier de guerre (Paris: Gallimard, 1918).

رهيـب، يضاعـف مـن أثـره أن الألمانـي إذا كان لا يعـرف مـاذا يريـد، فإنـه يريـده بقـوة مـن حيـن يريدهـا شـخص آخـر لـه. ويقـول جـاك ريفييـر أيضًـا: «إن الإرادة تحـل محـل كل شـيء عنـده ونحـن نجدهـا فـي كل مـكان، وهـي تمـلأ حتـى الشـر الـذي يجـري علـى يديـه، وقـد تكـون هـي الخاصيـة الوحيـدة التـي ترشـده وتلهمـه فـي حياتـه». وفـي كل مـرة تنطلـق فيهـا مثـل هـذه الإرادة، فإنهـا تجمـح ولا يعـرف لهـا حـدود، إذ تخدمهـا الوسـيلة الأكثـر فاعليـة. والفريـد هنـا أن الصفـات التـي تفاخـر بهـا ألمانيـا هـي صفـات التلميـذ الجيـد: ففـي مقابـل الفرنسـي «الخفيـف» يتفاخـر الألمـان بالدقـة والمثابـرة (fleissig) أي بإنجـاز الأعمـال حتـى النهايـة والتمـام. وقـد يتملكنـا فـي بعـض الأحيـان الشـعور بـأن حـب العمـل، والعمـل البسـيط، والعمـل للعمـل، فيـه شـيء مـن المـرض، وأنهـم يلجـأون إليـه لمـلء فـراغ خِلقـي وراثـي أكثـر مـن الرغبـة فـي الإنتـاج. وعندمـا تسـيطر الطريقـة والمنهـج علـى روح جرمانيـة، فإنهـا تسـتحوذ عليهـا بالكامـل، فيصيـر الألمانـي حينهـا مخلصًـا لهدفـه، موضوعيًـا فـي عملـه بالكامـل، لدرجـة أنـه إذا أطلـق لـه العنـان مـرة، فإنـه يمضـي فـي طريقـه لا يلـوي علـى شـيء غيـر معتمـد إلا علـى طريقته الخاصـة، وبهـذا يصبـح نوعًـا مـا وكأنـه هـو نفسـه العمـل الـذي يجـدُّ فـي متابعتـه، متحـررًا مـن كل حكـم مسـبق، ومـن كل قيـد أخلاقـي، ويكـون منطقيًـا مـع نفسـه فـي ذلـك إلـى حـد الشراسـة والتوحـش. وهـذا يفسـر لنـا لمـاذا يبـدو رجـلًا ثوريًـا فـي بعـض أعمالـه، وإذا عددنـاه رجـلًا محافظًـا، فإننـا نخطـئ تمامًـا فـي فهـم طبعـه الحقيقـي. فهـو فـي كل مـا يقـوم بـه مثـال الرجـل الطليعـي بحـق المسـتعد لدمـج كل الانقلابـات وكل نوبـات الجنـون الشـاذة فـي إطـار مـن النظـام: أكان ذلـك حيـن يدعـو إلـى التكعيبيـة فـي الرسـم، أو حيـن يدافـع عـن الإجهـاض، أو ينظـم الـولادات الموجّهـة، أو حيـن يعيـد تنظيـم الدولـة أو يهتـم بترتيـب الانحرافـات الجنسـية وفـق التسلسـل الأبجـدي.

مـع ذلـك فإنـي أضـع «الموضوعيـة» فـي المقـام الأول مـن صفـات الرجـل الألمانـي، وقـد كتـب إلـي يومًـا مفكـر ألزاسـي (نسـبة إلـى مقاطعـة الألـزاس) نافـذ البصيـرة وعلـى درايـة تامـة بأوروبـا الوسـطى، فـي رسـالة خاصـة، تفسـيرًا للموضوعيـة الجرمانيـة (sachlichkeit) حيـث يقـول: «إن مفتـاح هـذا فـي كلمـة واحـدة ذات قـوة

سـحرية هــي: الاقتصـاد (wirtschaft). وإذا كان الكاتـب الفرنسـي: شـارل مـورّاس[17] (Charles Maurras) يقـول: «السياسـة أولًا»، فإننـي أقـول بالنسـبة إلـى الألمانـي: «الاقتصـاد أولًا». ففـي السياسـة الداخليـة كان الحـل الموفـق لقضاياهـا فـي عـام 1934 هـو حـل فـون شـلايخر (Von Shleicher) أي التعـاون المباشـر بيـن الزعمـاء والنقابـات. ولكـي نفهـم الخُلـق الألمانـي الـذي هـو نصـف فـردي ونصـف جماعـي، يجـب أن نـرى العمـال حيـن يجتمعـون للتشـاور فـي نقاباتهـم ورجـال الأعمـال حيـن يجتمعـون للتشـاور فـي اتحاداتهـم. وإذا كانـت النظـم الاقتصاديـة المناقضـة: كأنظمـة فيلهلـم الثانـي (فتوحـات بطبـل وزمـر) وأنظمـة النازييـن، هـي تشـويه لطبيعـة ألمانيـا، وإذا كانـت ألمانيـا قبلتهـا لا بـل تحمسـت لهـا فـي بعـض الفتـرات، فيجـب ألا نخـدع أنفسـنا بالمظاهـر؛ ذلـك أن ألمانيـا كانـت تعتقـد أنهـا تسـتطيع - عبـر قـوة الجمهـور العـام - الوصـول إلـى «سياسـة الاقتصـاد». ولا أدري كيـف نترجـم هـذه الكلمـة الألمانيـة (wirtschaft)؟ فهـل هـي الاقتصاد؟ كلا لأن هـذه تعنـي مقولـة عقلانيـة! إذ لا يتعلـق الأمـر هنـا بالتملـك علـى الطريقـة اللاتينيـة، ولا بالفائـدة وتكديـس المـال فـي سـندات وريـوع أو بالورثـة علـى الطريقـة الفرنسـية (مـع كل الجهـد المبـذول فـي فرنسـا لهـذا الغـرض) ولا بالاسـتمتاع علـى الطريقـة الفينيسـية (نسـبة إلـى فينيسـيا/البندقية). فلنأخـذ عـوض ذلـك تلـك الكلمـة الألمانيـة الأخـرى (sachlichkeit) وترجمتهـا الحرفيـة: معرفـة الشـيء، الشـيئوية، أو الجوهريـة (مذهـب فلسـفي يقـول بوجـود أشـياء قائمـة بذاتهـا أي جواهـر). إنهـا قرابيـن لا إنسـانية إلـى حـد كبيـر، يقـدم فيهـا الشـخص، الأفـراد كمـا الجماعـات، أضحيـة للأشـياء... هـذا هـو قانونهـم الصـارم والـذي يذهـب بهـم فـي أغلـب الأحيـان إلـى أبعـد ممـا نتصـور فـي القسـاوة والدنـاءة، إذا طلبـت الأشـياء ذلـك!» (انتهـت الرسـالة).

إن مـا ينقـص هـذا المفهـوم هـو روح القسـط والاعتـدال وهـي مـن شـروط الحكـم العقلـي. ومـن الخطـر أن نطلـق العنـان لثـوران هـذا الإنسـان الـذي ليسـت

---

(17) شارل مورّاس (1866-1952) (Charles-Marie-Photius Maurras) مؤلف وروائي وناقد فرنسي كان أحد قادة ومفكري حزب «العمل الفرنسي» (Action Française) وهو حزب ملكي معاد للبرلمانية ومضاد للثورة. وقد أثرّت أفكاره في التيار الكاثوليكي وفي القومية الأصولية. كان منظّرًا سياسيًا وصاحب تأثير ثقافي قوي في مطلع القرن العشرين ممهدًا في بعض نظراته وأفكاره للفاشية. له عشرات المؤلفات.

لديه عاطفة، لأن ثورانه نفسه هو العاطفي فيه، وكثيرًا ما قيل إن الألماني تنقصه الحصافة والذوق. وقد تخرجه دقته (grundlichkeit) عن جادة الطريق فيسقط بسهولة متساوية ما بين الضخم جدًا والصغير جدًا (ما بين الإفراط والتفريط) فينهار توازنه كما ينهار إحساسه العام ناهيك بإحساسه الخلقي. وقد رسم بول موران (Paul Morand) في كتابه ليلة شارلوتنبورغ (Nuit de Charlottenbourg) صورة حية لهذا الجانب من الروح الألمانية، فقال: «للألمانيين ولع شديد بالاستعلام والحاجة إلى التحليل. ولكن معلوماتهم تكون خاطئة لكثرة التفاصيل الزائدة، وتحليلاتهم تكون نتائجها مضطربة على الرغم من دقة وثقة الوسائل، وسبب ذلك هو التوتر كلما اقتربوا من نهاية النفق أولًا، وعمى البصيرة ثانيًا، بحيث إنهم يصلون أمام الحقائق الأولية وهم في حالة سيئة».

هذا العجز عن الاختيار، وهذا الغياب الأساس للضبط الداخلي يشكلان أخطر عيوب الألماني، وقد قال موريس باريّس عن نابليون إنه كان «طريقة منهجية في خدمة شغف عاطفي». وقد نقول مثل هذا القول عن الألماني الذي ظل خارج الإمبراطورية الرومانية فلم يرث مثلنا نحن النظام الكلاسيكي. وقد قال لي رجل سويسري كبير اختلط بالألمان طيلة حياته وهو يصف الألماني: «إنه رجل كفؤ قادر (tüchtig)، داهية مكّار (gerissen) متمرس في الأعمال، غير أنه في نهاية الأمر رجل غبي (aber...dumm)». ولعل هذا ما جعلنا نتساءل كيف أن الدولة الأكثر فاعلية والجيش الأقوى في العالم، قادا في نهاية الأمر هذا البلد إلى الهاوية.

(4)

التقينا في بحثنا هذا حتى الآن على صفات مثيرة للانتباه: الضمير والجدية والمثابرة في العمل. ولكن إذا أخذنا في اعتبارنا التصورات الأخلاقية لألمانيا، فإننا نرجع القهقرى مشدوهين كأننا في مواجهة هاوية. فما يميزهم تمامًا هو نظرة تشاؤمية إلى العالم.

لا أحد هنا استطاع أن يطبع ألمانيا بطابعه مثل لوثر الذي يقول إن قوانين

العالـم سـيئة فـي مصدرهـا، وإن الطبيعـة قـد وقعـت فـي أيـدي الظلـم والشـر. وفـي عالمنـا الأرضـي الـذي تقـام فيـه الدولـة لا يوجـد قانـون غيـر القـوة، ولا يمكـن والحـال كهـذه تطبيـق الإنجيـل كمـا هـو. ويمكـن للقديسـين أن يعيشـوا فـي مـا بينهـم فـي مجتمـع روحـي مطالبيـن بالاسـتقلال الصوفـي للـروح؛ لكـن فـي هـذه الدنيـا علـى الأرض يحكـم الأميـر الـذي أخـذ عـن اللـه حـق اسـتعمال السـيف والتعهـد بالمحافظـة علـى حيـاة الدولـة طبقًـا لقواعـد لا علاقـة لهـا بالأخـلاق، ولكـن أرادت العنايـة الإلهيـة أن تكـون كذلـك. إذاً سـيكون الرجـل المسـيحي خادمًـا للدولـة فـي أمورهـا الزمنيـة مـن دون أن يأمـل فـي تهذيـب أخـلاق مجتمـع خارجـي، جوهـره وكيانـه كلـه يقومـان علـى الشـر. فهـذا التصـوّر الـذي يعتبـر تصـورًا صوفيًـا مـن الناحيـة الدينيـة وكلبيًـا مـن الناحيـة السياسـية، يجعـل مـن الرجـل المؤمـن فردانيـة روحيـة مسـتقلة، ولكـن يحيلـه علـى أن يكـون فـي المدينـة مجـرد إنسـان متواضـع سـلبي.

تعتقـد ألمانيـا إذًا أن السياسـة يجـب ألا تسـير وفـق طريقـة تشـبع رغبـة الواعـظ الأخلاقـي: فهـي لهـا هدفهـا الخـاص ألا وهـو حيـاة الجماعـة. والقـوة - فـي نظرهـا - لا هـي أخلاقيـة، ولا هـي منافيـة للأخـلاق، إنهـا القـوة فحسـب. ويبـدو للعقـل الجرمانـي أن إقحـام الأخـلاق فـي مجـال السياسـة شـيء لا معنـى لـه. وقـد لمسـت مـن خـلال تجاربـي فـي محادثاتـي الخاصـة أيـام فايمـر أن الألمانـي أيًـا كان، لا يعتقـد أن القـوة لـن تتوقـف عـن أن تكـون العامـل الحاسـم فـي تنظيـم الأعمـال الإنسـانية أبـدًا. وهـو يتقبـل هـذا الواقـع مـن دون مناقشـة وببسـاطة. أفليسـت هـذه قاعـدة اللعبـة؟ وهـو يخضـع أمـام الظواهـر الحقيقيـة للقـوة الماديـة، مـا يذكرنـا بخضـوع الشـرقيين؛ وهـذا مـا يمكـن تسـميته باللـون الخـاص بالألمانـي مـن الـ Nitchevo (كلمـة روسـية تعنـي: لا شـيء مهـم، امـض فـي سـبيلك) التـي لا تـدوم علـى كل حـال إلا بقـدر تغلّـب حقيقـة القـوة المعاديـة وفرضهـا نفسـها عليـه. ومـن ذلـك، فـإن المثاليـة الإنسـانية للحـق أو السـلام لا تعـدو بالنسـبة إليـه عـن أن تكـون نفاقًـا أو سـذاجة.

وجهـة النظـر هـذه هـي وجهـة نظـر ألمانيـا ليـس فـي العلاقـات الخارجيـة فحسـب، بـل وفـي السياسـة الداخليـة أيضًـا. وليـس هنـاك أبـدًا فـي مـا وراء الرايـن مفهـوم عـن الفـرد المواطـن الـذي لـه «حقـوق»، علـى مثـال مـا نجـده فـي «تصريحاتنـا»

الكلاسيكية، وحاملًا في ذاته جوهر معنى السيادة، اللهم إلا في بعض أقاليم الجنوب الغربي من ألمانيا التي تأثرت بروح الثورة الفرنسية. وإذا كان هناك من ديمقراطية، وهي قوة لا يمكن أبدًا تجاهلها، فإنها لا تعبّر عن نفسها إلا في مجتمع المدينة أو المجتمع التعاوني على طريقة العصور الوسطى، وتكون هذه الديمقراطية حينذاك تصدر عن تلقائية وعن معنى للحرية الجماعية، ربما يكون أكثر تطورًا مما عندنا. أما عن الدولة، فإنها من جوهر آخر. ويكفيها كي تظل دولة أن تعلن عن نفسها وأن تمارس قوتها. وهذا هو أسلوبها الحقيقي في تبرير نفسها، حين تتطابق مع شعب عديم الشكل يقبلها ويرتضيها أكثر مما يخضع لها؛ أو بالأحرى (وهنا الفارق دقيق) يشعر بالامتنان لخضوعه لها؛ لأنه يحترمها ويجلها، في السراء والضراء. وبأسلوب فلسفي هو دومًا في محله حين نتحدث عن وطن كانط، فإن الدولة مفارِقة متعالية، وهذا لا يعني أنها جماعة كما في الديمقراطيات الأنكلوسكسونية، وإنما نظامًا قوي الأسس متميزًا يعمل من طريق خبراء نحترمهم لكفاءتهم، ويكون عملهم خارج اهتمامات الشعب الذي يكون هو نفسه مقتنعًا بكل ما يقومون به.

إذًا فالألماني سواء أكان فردًا معزولًا أم كان مواطنًا، فإنه لا يحيا سوى حياة مختزلة. وقد يختلف الأمر تمامًا إن هو اندمج في مجموعة. فهذه الشخصية القاصرة، تشعر بالحاجة إلى دعامات، فهو بوصفه فردًا عديم الشكل يحتاج إلى إطار يضبط من خلاله تردده وارتباكه، وهو لن يحقق ذاته إلا ضمن مجموعة شراكة. ففي الاجتماع التشاركي يشعر الفرنسي دائمًا أنه يعطي أكثر مما يأخذ، وهو لذلك شريك سيء. أما الألماني فإنه يأخذ، وهو يشعر أنه يأخذ، أكثر مما يعطي للمجموعة. ولهذا فهو يقبل من المجتمع كل شروطه في استعجال ومع الشكر والامتنان. فلا يضايقه الانضباط النظامي الذي لا غنى عنه في عمل جماعي، بل يبدو له على العكس ضرورة واجبة يقبلها حتى مع شيء من الارتياح. وبالاختصار، لا يحس الألماني بالراحة إلا حين يكون ضمن مجموعة من الناس، فتراه هنا يعمل ويمزح ويتحمس. ولا أجد ما يمثل هذه الروح أفضل تمثيل غير مشهد يوم الأحد الألماني، حيث تجد أن لا أحد يبحث عن اللهو الفردي في الصيف (أكان ذلك في ظل حكم النازية أم في

حكومـة فايمـار)؛ فمنـذ الصبـاح الباكـر تجـد كل النـاس مـن كل الأعمـار، أطفـالًا وشـيبًا وشـبانًا، يسـيرون إلـى الرحلـة كمـا لـو أنهـم مقبلـون علـى غـزوة مـن الغـزوات، وهـم يمشـون بخطـوات اسـتعراضية وأعلامهـم مبسـوطة، فـي حيـن أنهـم منتشـرون علـى هيئـة قوافـل مـن الفرسـان أو فـرق صغـرى أو جماعـات كبـرى، يسـيرون مرحًـا وطربًـا، وأغانيهـم وتشـكيلاتهم مـا هـي إلا تأكيـد قـوة الجمهـور، وهـم بهـذا لا يحتاجـون إلا إلـى نقطـة توجيـه كـي ينطلقـوا. إنـه انطبـاع مقلـق وغامـض وكأنـك أمـام حشـد عشـائري يتحـرك. أمـا فـي الريـف، فهـذه الرحـلات كانـت ولا تـزال وكأنهـا اسـتعراض لقوافـل تسـير فـي الحقـول حاملـة معاولهـا وفؤوسـها علـى أكتافهـا كمـا لـو أنهـا بنـادق؛ وقـد بـدا لـي مـن خـلال هـذا أنـه ليـس فـي ألمانيـا رغبـة جامحـة أكبـر مـن رغبـة الاسـتعراض فـي جماعـات.

وبعـد، فـإن مـن واجبنـا ألا نقلـل مـن قيمـة هـذه الموجـات البشـرية إلـى كونهـا مجـرد ألعـاب رياضيـة أو تدريـب نظامـي للرتبـاء. وثمـة العديـد مـن الفرنسـيين ممـن اشـتركوا فـي هـذه الاسـتعراضات ضمـن الإطـار الرومنطيقـي للغابـات الجرمانيـة، شـعروا أنفسـهم بذلـك الشـعور القـوي والـذي لا يمكـن التعبيـر عنـه، شـعور التحـرر والحماسـة الحلولـي. والطبيعـة الأوليـة البدائيـة، مـا زالـت تحيـط روحيًـا وجسـمانيًا بهـذه الكائنـات الأقـل تطـورًا منـا نحـن، وهـم بهـذا المعنـى برابـرة، كمـا أنهـم يحبـون أن يقولـوا عـن أنفسـهم أنهـم برابـرة!.

طريقــة التعبيــر هــذه، غيــر المناسـبة، والناقصــة، والمتغيــرة دائمًــا، وغيــر الواضحــة أبـدًا، لا توافــق الــروح الفرنسـية. وعلــى الرغــم مــن عنــف وصرامــة قواعدهــا، فـإن ألمانيـا تتـرك فيـك علـى الإجمـال شـعورًا بعـدم الأمـان. أمـا عندنـا، فـإن الاضطـراب هــو فــي الخــارج وهــو يكــون علــى شــكل هُــدُب، زبــد ســطحي، نتعايـش معـه بشـيء مـن المداعبـة. فـي ألمانيـا الاضطـراب أو الفوضـى فـي الداخـل، والانتظـام والانضبـاط لا يمكـن أن يأتيـا إلا مـن الخـارج. لذلـك كنـا نـرى عـن حـق أن مجاورتنـا لهـذا الشـعب الـذي لا يُظهـر أبـدًا خبايـاه العميقـة، هـي مجـاورة غيـر مريحـة. ويـرى حكمـاء موثوقـون أن الصفـة الرئيسـة التـي تميـز الشـعب الألمانـي ممـا عـداه هـي هـذا التـردد الخِلقـي الوراثـي. وقـد كان مـن رأيهـم الـذي يشـاركهم

فيـه المـؤرخ الفرنسـي بيـار فيينـو[18] (Pierre Viénot) فـي كتابـه المعنـون الترددات الألمانية، أن حـرب الثلاثيـن عامًـا، قـد تمثـل الفتـرة التاريخيـة الأكثـر تعبيـرًا عـن حقيقـة الشـعب الألمانـي. وكان مثاليـو بلادنـا، قـد خلبـت لبهـم ألمانيـا 1848 التـي وجدوهـا أكثـر سـحرًا مـن فرنسـا، ولكـن أقـل عضويـة: ألمانيـا الفلسـفة والموسـيقى، ودماثـة الخلـق والطيبـة، إنمـا أيضًـا ألمانيـا الضبابيـة وغيـر ذات القيمـة فـي مردوديـة أعمالهـا. ولكنهـا كانـت تلـك ألمانيـا ذاتهـا التـي سـتتبنى النظـام الإمبراطـوري، حيـن قدمـت لهـا بروسـيا الأسـس والدعامـات الإداريـة والعسـكرية، فانخرطـت فيهـا ألمانيـا بـكل مـا تملـك مـن طاقـات الرغبـة وعـن طواعيـة واختيـار كمـا تأخـذ المـاء شـكل الوعـاء الـذي يحتويهـا. وفـي ظـل هـذا النظـام الـذي عرفـه كثيـرون منـا أيضًـا، كانـت ألمانيـا أشـبه مـا تكـون بفصـل مدرسـي يتحكـم فيـه معلمـوه، أو كمصنـع يرأسـه مديـروه، أو كثكنـة تأتمـر بأمـر صـف ضباطهـا؛ ومعنـى هـذا أن الفاعليـة كانـت كاملـة، والطاعـة ترافـق الأمـر المعطـى كالفعـل المنعكـس، وكالآلـة التـي لا تنفـك عـن الـدوران! وعلـى الرغبـة نفسـها والطواعيـة ذاتهـا، أسـلمت ألمانيـا قيادهـا إلـى هتلـر بعـد جمهوريـة فايمـار التـي لـم تكـن لتحبهـا. وهـي وجـدت فـي الدولـة الشـمولية (التوتاليتاريـة) كل مـا كانـت فـي الحقيقـة ترغـب فيـه، وهـو أن يكـون «طريقـة منهجيـة فـي خدمـة شـغف»، أي ذلـك المزيـج المضطـرب مـن ذروة وجـد صوفـي ومـن تقنيـة فعالـة... بيـد أن الكارثـة مـا تفتـأ تظهـر، باسـتمرار ودوريًا عقـب انتهـاء هـذه التجـارب، ويكـون علـى ألمانيـا أن تكـرر الأمـر مـرة جديـدة!

(5)

والـروح الألمانيـة تعبّـر عـن نفسـها فـي عشـرين كلمـة تقريبًـا، عميقـة ومحملـة بالمعنـى، ولكنهـا كلمـات صعبـة الترجمـة عمومًـا إلـى لغتنـا: وفهـم هـذه الكلمـات علـى حقيقتهـا يعنـي بالنسـبة إلـي فهـم ألمانيـا بحـق. وهـي كلمـات توافـق كلهـا شـيئًا

(18) بيار فيينو (1897-1944) (Pierre Viénot) رجل سياسة ومقاوم فرنسي. شارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية. انضم للحزب الاشتراكي عام 1937 وأسس مجموعة تعمل داخل الحزب كي تدعو إلى مقاومة ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية. له كتاب بعنوان: هل انتهت ألمانيا؟ Is Germany finished? («Incertitudes allemandes»), (London: Faber and Faber, 1931).

يعنـي الجماعيـة، إذ إن الـروح الجرمانيـة تنتمـي إلـى «واقعيـة» القـرون الوسـطى أكثـر مـن انتمائهـا إلـى الاسـمية (أو الاسـمانية: وهـي مذهـب فلسـفي يقـول بـأن المفاهيـم المجـردة أو الكليـات ليـس لهـا وجـود حقيقـي وإنهـا مجـرد أسـماء ليـس غير).والفرنسـي العـادي لا يـرى بوصفـه كائنًـا موجـودًا سـوى الأفـراد، أمـا الجماعـة فليسـت فـي نظـره إلا تصـورًا لا حقيقـة واقعيـة لـه (flatus voci). ولكـن الأمـر هـو علـى العكـس مـن ذلـك فـي بـلاد مـا خلـف الرايـن. ومـن جهـة أخـرى، فإنـه يوجـد معنـى مباشـر للوجـود، وهـو الاتحـاد شـبه المـادي مـع الأشـياء؛ وهـذا بالطبـع يـؤدي إلـى الفكـرة القائلـة بـأن الإحسـاس يغلـب علـى العقـل مـن كل جانـب.

وسنحاول هنا أن نستعيد جوهر هذا المعجم من الكلمات:

المصدر العميق للأشياء	Ur, echt, rein
شعور القوة المرتبط بفكرة الشباب والمرح والقسوة	Sturm und Drang, Kraft, Freude
المعنى التصوفي للتطور	Werden, Entwicklung
الفراغ والغموض وحيرة الروح	Shwindel, tief, chaos, problematich
السادية والذائقة الكارثية	Shadenfreude, Götterdämmerung
رقة العواطف	Heim, Heimlich, gemüt, gemütlich
صفات المثابرة والجدية	Tüchtig, fleissig, ernst, gründlich
الموضوعية وفهم معنى الأشياء في ذاتها	Wirtschaft, sachlich, sachlichkeit
روح الأشياء والتشارك الصوفي	Geist, Seele, Stimmung
الضمير الجماعي (وهذه لا تترجمها كلمة شعب)	Gemeinschaft Volk

ويوجـد فـي رأس المـال القومـي الألمانـي ثـروة لا يسـتهان بهـا: التقنيـة الأكثـر فاعليـة معطوفـة علـى أقـوى حيـاة عاطفيـة، وهـذا المزيـج يتـرك شـعورًا عامًـا بالحيـاة، ولكـن بحيـاة بدائيـة. ومسـاهمة هـذا الشـعب فـي الحضـارة الأوروبيـة هـي باهـرة. ولقـد جمـع كميـة كبيـرة مـن المعلومـات والملاحظـات والتصنيفـات، وأنتـج موسـيقى وشـعرًا وفلسـفة، وهـو كان الرائـد الحقيقـي للعقلنـة الصناعيـة، ولكنـه فعـل كل ذلـك كمـن يجمـع، أي علـى شـاكلة مـن يكتنـز المـال مـن دون أن يكـون قـادرًا علـى أن يعطـي شـكلًا ومضمونًـا لمخلوقاتـه هـذه. ومـن هنـا، فـإن هـذا البربـري

علـى الرغـم مـن فخـره ببربريتـه، هـذا الابـن البعيـد لآسـيا، لا يملـك سلسـلة النسـب الكلاسـيكية التـي تصلنـا باليونـان، وبالتالـي فـلا يمكـن اعتبـاره غربيًـا مئـة فـي المئـة. وهـو لـم يسـتطع أن يؤلـف بيـن متناقضاتـه، كمـا هـو شـأن البالغيـن فـي حضارتهـم، فهـذا الألمانـي العاطفـي هـو فـظ، وقـاس، وفاسـد حتـى، فهـو سـادي ونيرونـي، يطـرب لنـزول المصائـب والكـوارث، ويبكـي علـى الحريـق الـذي أشـعله بنفسـه، ويداعـب الطفـل الـذي قتـل أبويـه لتـوه، وطاعتـه نفسـها تنطبـق علـى عمـل الشـر بالضميـر نفسـه الـذي يكـون لـه حيـن تنطبـق علـى عمـل الخيـر. ولكـي تضـع شـيئًا مـن الترتيـب والنظـام فـي هـذه الفوضـى كان ينبغـي امتـلاك عقـل فولتيـر. طبعًـا كان عندهـم غوتـه الـذي أراد وحـاول التوفيـق بيـن هـذه المتناقضـات، ولكـن الألمـان فضلـوا عليـه كتّابًـا آخريـن تنقصهـم ملكـة القسـط والتـوازن، إنمـا يحملـون لوثـة القوميـة، أمثـال فاغنـر (Wagner) ونيتشـه (Nietszche) ومـن يـدري؟ فلعـل أمثـال هـؤلاء هجنـوا مـن دم صقلبـي. وأخيـرًا، فـإن ألمانيـا بلـد مدمِّـر، مدمِّـر للثـروات ومدمِّـر للعـرق البشـري ومدمِّـر للإمبراطوريـات.

لقـد قمـت بهـذا التحليـل مسـتندًا فـي ذلـك إلـى الماضـي، وليـس هنـاك من سـبيل غيـر ذلـك. وبعـد فهـا نحـن أولاء مـرة أخـرى فـي هـذا البلـد المتغيـر أمـام ولادة جديـدة مـن تحـت أكـوام الخـراب والدمـار (نتيجـة للحـرب العالميـة الثانية).وقد سـبق لنـا أن قلنا إن الألمانـي لا يندهـش إلا قليـلًا أمـام الكـوارث، ولعلـه لا يتألـم مـن ذلـك بقدر مـا يمكن أن نظـن نحـن، وذلـك بفضـل قـدرة اسـتثنائية فريـدة علـى النهـوض والانطلاق مـن الصفر فـي تجـدد يلغي الماضـي وكأنه لـم يكن شـيئًا مذكورًا. «أسـيكون يـا الله طاولة أم طشـت مـاء؟» هكـذا نسـأل أنفسـنا دائمًـا مردديـن مـا قالتـه الحكايـة[19]، مـن دون ادعـاء وجـود جـواب لدينـا. وعلى الرغم مـن أنها تعرضت لكثيـر من الغـزوات المتعاقبة وديسـت أرضها ذهابًـا وجيئـة فـي مختلـف العصـور، واختلـط فيهـا أغرب خليـط مـن الشـعوب والأجناس، وانقسـمت مـا بيـن حـوض شـرقي وحـوض غربـي، فـإن ألمانيـا، الغربيـة فـي الأقـل، تبـدو اليـوم كاثوليكيـة أكثـر ممـا مضـى، وكانـت البروتسـتانتية اللوثريـة (نسـبة إلـى لوثـر)، إلى

(19) هي حكاية من حكايات لافونتين نرى فيها نحاتًا ينحت قطعة من المرمر ويسأل نفسه هذا السؤال.

جانب بروسيا هي التي انهزمت في الحرب... وكانت ألمانيا الشمالية بطبيعة الزهد فيها، وهي البروسية والبروتستانتية في آن، تزهو بجهد النكران هذا في سبيل هدف ما، فهي تعرف كيف تستبدل المدافع بالزبدة وقت الجد. وعلى العكس من ذلك، فإن الكاثوليكية، وهي بالإجمال أقل قومية، تبدو كذلك أقل صرامة، وأقل غضبًا واحتدادًا، وأعظم إنسانية. فألمانيا كانت وستظل تحترم مبدأ الموضوعية أو الـ (Wirtschaft) السالف الذكر، وهذا سيبقى أساسيًا ودائمًا. كما أن صفة الثبات والجدية (gründlich) كانت أولًا طبعًا بروتستانتيًا. ولعل ألمانيا، من تحت الدمار، تفقد شيئًا من تقاليدها في سداد الحكم. والحق أن حيويتها لا تنضب، وهذا الشعب لا يزال هو أكثر شعوب أوروبا سكانًا، في ما عدا روسيا.

أنهي هذه الدراسة الشيقة بنوع من الانطباع القلق... فعبر الراين أي: خارج ألمانيا، لا نرى غير النظام والفاعلية والوصول إلى الهدف... أما في داخل ألمانيا فلا نرى إلا المستنقع والفوضى. ويعتبر الألماني الحقيقة غامضة وأننا نغرق في ليل الظلام حين نسير صوبها. أما بالنسبة إلينا، فإننا نعتقد أن الحقيقة نور على نور. في ألمانيا نشعر بأننا على حافة بحر من المياه السوداء نقول بقلق إنه لا قاع له. وفي ذلك امتياز ألمانيا! ولكن حين نطل على هذه المساحات الواسعة المغلقة يتملكنا الشعور بأننا نطل على هاوية هلاك!

الفصل السادس
الصوفية الروسية

تتسلل نفحات الشرق البعيدة بخفة لتتغلغل حتى ألمانيا، ولكن في روسيا تبقى آسيا حاضرة بقوة، مع أن أوروبا تتقدم، كما يقال، لتصل إلى الأورال.

في روسيا أكثر من أي مكان آخر نجد السيكولوجيا تابعة للجغرافيا. وتمتاز البلاد الروسية بثلاث ميزات: ضخامتها، ورتابة نمطها الواحد، وخلوها من الدفاعات الطبيعية التي تحميها ضد الغزوات، ومع ذلك وفي الآن نفسه: لا نفاذيتها (استحالة النفوذ إليها). والمسافات داخلها كبيرة للغاية: فتبلغ مساحة روسيا الأوروبية خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلومترات المربعة؛ كما تبلغ مساحة كل من روسيا الأوروبية والآسيوية معًا اثنين وعشرين مليونًا من الكيلومترات المربعة، وتبلغ المسافة بين ميناء ليباو (Libau) على بحر البلطيق ومدينة فلاديفستوك ثمانية آلاف كيلومتر، وبذلك تعتبر روسيا من أكبر بلاد العالم. ولا يمكن أن تقارن هذه المساحات الشاسعة بمساحة فرنسا مثلًا؛ ذلك أن مساحة فرنسا التي تبلغ 575000 من الكيلومترات المربعة تقارب 10/1 من مساحة روسيا الأوروبية فقط. وتبلغ المسافة بين باريس وفيينا ألف كيلومتر مربع... فما قيمة هذا أمام الأرقام الخيالية للمساحات الشاسعة في روسيا التي تجعلها أقرب إلى القارات الضخمة خارج أوروبا، مما هي إلى كومات التراب عندنا. وكل تقديراتنا العادية تذوب وتتلاشى في هذا الفضاء الواسع المترامي الأطراف. من الناحية الجغرافية نحن خارج أوروبا حقًا. ورتابة نمط تكوين أجزائها تضاعف من صعوبة تقدير مساحتها أيضًا. فأوروبا هي أساسًا

منقسـمة إلـى أجـزاء متنوعـة ومبعثـرة. أمـا فـي روسـيا فعلـى امتـداد آلاف الكيلومتـرات نجـد البـلاد رتيبـة علـى نمـط واحـد. أو كمـا يقـول الشـاعر: بعـد التلـة البيضـاء، هنـاك تلـة بيضـاء أخـرى»، فروسـيا أرض لا حـدود لهـا. فـراغ مـن ورائـه فـراغ وتشـابه ممـل، مــن دون انقطاعــات، وحيــث لا نجــد أي علامــات مرجعيــة. باختصــار: قــارة بأبعــاد محيط .

ولا تمنـح الطبيعـة أي حمايـة فـي هـذا الفضـاء الشاسـع العديم الشـكل الـذي ليس لـه حـدود أو حواجـز: بحيـث إنـه علـى مـدى التاريـخ وفـي مـا قبـل التاريـخ تعاقبـت الغـزوات علـى سـكان هـذه البـلاد، الواحـدة تلـو الأخـرى، كتلاطـم أمـواج البحـر؛ وقـد خلفـت كل منهـا رواسـب بشـرية كمـا تتخلـف رواسـب الطمـي عـن الفيضانـات؛ ولهـذا كان فـي روسـيا نـوع مـن مخلفـات الإثنيـات البشـرية، رواسـب مـن شـعوب تدافعـت وتراكمـت وتداخلـت بعضهـا فـي بعـض، مـا أحـدث انطباعًـا مسـيطرًا عـن شـدة تعقيـد هـذا الوضـع.

ومــع ذلــك، فــإن وحــدة البــلاد الروســية ليســت موضــع جــدل أو نقــاش: فجغرافيتهــا ومناخهــا وبيئتهــا، تفــرض أنماطًــا خاصــة مــن طرائــق الحيــاة والشــعور والعمـل، نجدهـا مشـتركة بيـن جميـع الـروس. فنحـن أمـام مجموعـة بشـرية مميـزة - فـي الأخـص - بجـو اجتماعـي مشـترك. ولا يملـك الأجانـب إلا أن يشـعروا بقـوة شـخصية هـذا الجـو: فبعـض هـؤلاء الأجانـب لا يتأثـر بذلـك، فـي حيـن يطيـب لبعضهـم الآخـر، وهـم كثيـرون، أن يستسـلموا لسـحره الأكيـد. ومجمـل القـول إنـه علـى الرغـم مـن بعـض الاختلافـات الجغرافيـة أو الإثنيـة، فـإن هنـاك بلـدًا روسـيًا، وشـعبًا روسـيًا، ومسـلكًا روسـيًا، يتضمـن طريقـة خاصـة فـي الحيـاة، كمـا أن لـه وتيرتـه ومناخـه الخـاص، أي مـا يمكـن أن نسـميه: الجـو الروسـي الخالـص.

يتســاءل النــاس أهــي أوروبــا أم آســيا؟ إنهــا علــى الأغلــب شــيء وســط بيــن هاتيـن بمعنـى أنهـا ليسـت بالأوروبيـة الخالصـة ولا بالآسـيوية الصرفـة، ومـن هنـا نفهـم هــذه التعبيــرات غيــر الدقيقــة علــى الإطــلاق مثــل: «أوراســيا» و«القــارة السادســة». وشـيئًا فشـيئًا علـى كل حـال تعـوّد علمـاء الإحصـاء أن يفـردوا لروسـيا صفحـة خاصـة فـي سـجل العالـم، كمـا لـو أنهـا قـارة منفصلـة. أيـن هـي الحـدود عندئـذ؟ أيـن نتـرك

الغـرب وراءنـا كـي ندخـل فـي هـذا العالـم الـذي لـم يعـد أوروبـا تمامًـا وصـار فـي الوقـت نفسـه آسـيا، مـن دون أن يكونهـا بالكامـل؟ أرى - فـي تصـوري - أن أضـع حدودهـا عنـد نهايـة أوروبـا الوسـطى، فـي مـكان مـا فـي السـهل الثلجـي الكبيـر الـذي يمتـد فـوق ألمانيـا الشـرقية وبولنـدا. ولـم يصـف أحـد هـذا الانتقـال أفضـل مـن وصـف السـيد لـوك دورتـان[1] (Luc Durtain) فـي هـذه الأسـطر المعبّـرة: «فـي سـماء مدينـة لـودز (Lodz) التـي تبهـر الأبصـار، تنتصـب أمـام ناظريـك مداخـن كثيـرة، يتصاعـد منهـا دخـان مصانـع النسـيج الشـهيرة. غيـر أن السـكان المتجمعيـن عنـد المرافـئ هـم جديـدون تمامًـا بالنسـبة إليـك: رجـال ينتعلـون أحذيـة عاليـة (جزمـات)، يهـود فـي أرديـة كهنوتيـة قـذرة واضعيـن علـى رؤوسـهم غطـاء مسـطحًا ذا حافـة تشـبه الأظافـر السـوداء، نسـاء يغطيـن رؤوسـهن وأكتافهـن بأغطيـة مزركشـة ذوات ألـوان زاهيـة. ومـا يجعلـك تفقـد البوصلـة وتشـعر بالغربـة هنـا، أكثـر مـن هـذه الأزيـاء، هـو وجـوه هـؤلاء النـاس وطريقة سـلوكهم. فأنـت تجـد فـي هـؤلاء النـاس ملامـح غريبـة يصعـب عليـك بدايـة أن تتعـرف إليهـا. يبـدو عليهـم أنهـم ينتمـون للمـكان فحسـب لأنهـم هنـا؟ وليـس هـذا مجـرد الطاعـة الألمانيـة، بـل فيهـم شـيء مـن الاستسـلام والسـلبية: وجـوه جامـدة لا تنـم عـن أي تعبيـر، ونظـرات لا مكترثـة، فـلا نـدري أي نـوع مـن التأمـل يمارسـون علـى الطريقـة الشـرقية. انظـر بعيـدًا إلـى الأفـق حيـث تتراجـع أعـداد مداخـن لـودز! انظـر جيـدًا إلـى تلـك المداخـن العاليـة، إذ إنـك خـلال كل طريـق مسـيرتك عبـر بولنـدا، طـوال النهـار، وعلـى امتـداد خمسـمئة كيلومتـر، وباسـتثناء ضاحيـة وارسـو (Varsovie) المتواضعـة، لـن تـرى عينـاك دزينـة مـن هـذه المداخـن. انظـر جيـدًا هـذه الطريـق التـي تنتشـر عليهـا الحصـى المسـننة والتـي تبـدو لـك جـد بدائيـة: لـن تجـد واحـدة أخـرى مثلهـا علـى امتـداد خمسـمئة كيلومتـر. لـن تجـد أمامـك سـوى مسـالك تسـير عليهـا عربـات بعجـلات كبيـرة، تبـدو كأنهـا خرجـت مـن صفحـات كتـاب قديـم عـن سـيرة الميروفنجييـن، تتصارع بشـجاعة مـع الأوحـال لتعبـر بعدهـا المسـتنقعات. حينـذاك وحينـذاك فحسـب تعـرف فجـأة لمـاذا يلبـس أهـل هـذه البـلاد الأحذيـة العاليـة/الجزمـة... هل لاحظـت تلك السـيارة

(1) لوك دورتان (1881-1959) (Luc Durtain) واسمه الأصلي أندريه روبرت غوستاف نبفو (André Robert Gustave Nepveu) شاعر باريسي وروائي وكاتب مسرحي وباحث.

الشـريرة التـي كانـت أحيانًـا تمـر أمامـك عبـر الطريـق؟ اليـوم سـترى عـددًا أقـل مـن السـيارات ومـن المصانـع... فمـا الـذي سـتصادفه إذًا هنـا تحـت أصنـاف وأضـراب ذاك المـدى السـلافي؟ الأرض نفسـها أولًا، والتـي لـم يهزمهـا شـيء، وذات الأبعـاد المحيطيـة. أيهـا القـارئ إن كنـت لا تعـرف بعـد مـا هـي الصحـراء أو مـا هـو السـهل الكبيـر، فهـا هنـا ستشـعر للمـرة الأولـى بطعـم هـذا المـدى»[2].

تبعـث ملاحظـات هـذا الكاتـب العميقـة علـى التفكيـر والتأمـل خصوصًـا وأنهـا تشـير إلـى أن الأمـر يتعلـق بحـدود، لا بيـن بلـد وآخـر، بـل بيـن قـارة وأخـرى! ولـم يغيـر التصنيـع - الـذي تقـدم بخطـوات مذهلـة فـي روسـيا السـوفياتية - مـن واقـع الأمـور عندهـم شـيئًا، لا بـل يبـدو أنـه فـي ظـل نظـام السـتار الحديـد تقدمـت ريـاح الشـرق أكثـر باتجاهنـا. وقـد كتـب الماركيـز دو كوسـتين[3] (Marquis de Custine)، وهـو مـن هـو فـي دراسـته المعمقـة لروسـيا القـرن التاسـع عشـر، كتـب يقـول قبـل مئـة عـام: «يفصـل بيـن فرنسـا وروسـيا سـور هـو أشـبه بسـور الصيـن العظيـم، وعلـى الرغـم ممـا قـام بـه إمبراطـور روسـيا بطـرس الأكبـر[4] ومـا أدخلـه مـن ادعـاءات فـي أذهـان الـروس، مـا زالـت حـدود سـيبريا تبـدأ مـن الفيسـتولا» (النهـر الرئيـس فـي بولنـدا). ويمكننـا أيضًـا أن نقـول إنهـا تبـدأ مـن نهـر الأودر، أو نهـر الإلـب، ولـم لا؟ مـن يـدري؟ مـا إن نغـادر الإمبراطوريـة الرومانيـة، أو إمبراطوريـة شـارلمان ألا يتملكنـا الشـعور بـأن أوروبـا، أوروبـا الحقيقيـة، انتهـت فعـلًا هنـا؟

يؤثـر المنـاخ تأثيـرًا حاسـمًا هنـا. ونحـن نعـرف ميزاتـه. فهـو قـاريٌّ أساسًـا، بمعنـى أنـه متطـرف فـي حـرارة الصيـف وفـي بـرد الشـتاء. وتأثيـرات المحيطـات لا

---

(2) Luc Durtain, L'Autre Europe: Moscou et sa foi (Paris: Gallimard, 1928).

(3) الماركيز دو كوستين هو أستولف لويس ليونور (Astolphe Louis Léonor, marquis de Custine) (1790-1856)، كاتب فرنسي اشتهر بمؤلفه روسيا عام 1839 (La Russie en 1839) الذي يعتبره بعضهم المماثل الروسي لكتاب توكفيل عن الديمقراطية في أميركا.

(4) بطرس الأول أو بطرس الأكبر (1672-1725) (Piotr Alekseïevitch Romanov) ولد في موسكو ابنًا للقيصر ألكسيس الأول. قيصر الروسيا في 1682 وأول إمبراطور للإمبراطورية الروسية من عام 1721 حتى وفاته في سان بطرسبرغ 1725. قام بإجراء إصلاح عميق لبلاده مع اتخاذه سياسة توسعية حولت روسيا إلى قوة أوروبية.

تصل أبدًا، إلا مخففة عند شواطئ بحر البلطيق. بعد ذلك يزداد التأثير المحيطي كلما ذهبنا من الغرب إلى الشرق وليس من الجنوب إلى الشمال. لكن حيثما تنقّل المرء، فإن برودة الجو القارس تلاحقه معظم أيام السنة، ما بين ثمانية شهور وعشرة شهور من الجليد في الشمال، وكذلك الحال في الشرق والجنوب الشرقي، أما في الجنوب فتتراوح فترة تجمد المياه بين ثلاثة وخمسة شهور. وليس لهذا المناخ مثيل في أي بقعة من بقاع العالم. فهو لا يشبه مناخ أوروبا الغربية التي هي أطلسية، ولا مناخ أوروبا الجنوبية، المتوسطية (ما عدا شبه جزيرة القرم الواقعة على البحر الأسود)؛ بل يتشابه إلى حد كبير مع مناخ آسيا الأرضية (اليابسة غير البحرية)، أي الصين والتيبت والأناضول. فنحن أمام بلد صارم، بلد العنف والآلام، حيث الطبيعة لا تعطي بذاتها صورة عن الرحمة. وينبغي ألا تغيب عن أذهاننا هذه الحقيقة حين نتحدث عن روسيا.

(2)

على قاعدة وجود عرق أصلي، نتج التشكيل الإثني للشعب الروسي بصورة رئيسة من غزوتين متعاقبتين.

تشمل الأعراق الأصلية، في الشمال، سكان الغابة: الفينوا[5] (Finnois): وهم يشتغلون بصيد الحيوانات والأسماك كما ينتمون إلى أعراق المغول في آسيا بوشائج اللهجة واللون والبنية العظمية. ويعيش على حياة الرعي في الجنوب شعوب من الرحل، حيث السهوب (steppes)، وهم ينتمون إلى العرق المغولي أيضًا، كما أنهم ذوو سلوك آسيوي. لكن الإضافة الأساس أصلًا تتكون

(5) الفرق بين الفنلندي المسمى finnois والفنلندي المسمى finlandais يعود إلى تاريخ بلاد فنلندا وثقافاتها. فكلمة فينوا تنطبق على لغة شعب الفينوا وثقافته، وهو الشعب الذي غزا واستوطن رويدًا رويدًا أرض فنلندا خلال مئات السنين. وتتشكل فنلندا من شعوب أخرى إلى جانب الفينوا مثل السآمي (saami) أو اللابون والسويديين الذين استعمروا الجزء الجنوبي الغربي من فنلندا الحالية. وكل واحد من هذه الشعوب كان له طابعه الثقافي والإثني والتاريخي الخاص به، أما مصطلح الفنلندي فيطلق على الواقع السياسي الحديث المولود عام 1917. هناك إذًا فنلنديون يتكلمون الفينوا وفنلنديون يتكلمون السويدية وفنلنديون يتكلمون السآمي.

مـن الشـعوب السـلافية، وذلـك منـذ مـا قبـل عصـر المسـيحية. وقـد وفـد هـؤلاء الآريـون البيـض مـن إيـران علـى مـا نظـن، وتوطنـوا فـي السـهوب، واشـتغلوا بزراعـة تلـك الأراضي بعـد أن اسـتقر بهـم المقـام هنـاك. ومـن هـؤلاء ثـلاث مجموعـات رئيسـة: الـروس والبولنديـون والليتوانيـون. ومـع ذلـك، فـإن المجموعـة الأولـى تنقسـم إلـى مجموعـات ثـلاث صغيـرة فـي مـا بينهـا: الـروس الكبـار: ويقطنـون فـي وسـط البـلاد أي فـي إقليـم موسـكو. الـروس الصغـار: ويقيمـون فـي الأراضـي السـوداء مـن إقليـم أوكرانيـا. الـروس البيـض: ويسـتقرون فـي الغـرب فـي محـاذاة بولنـدا. ومـا زالـت كل هـذه المجموعـات موجـودة حتـى اليـوم. وجميـع الغـزوات التـي تواتـرت علـى روسـيا بعـد ذلـك، وخصوصًـا بعـد ظهـور المسـيحية، وفـدت مـن آسـيا. ولا نعنـي بذلـك الصقالبـة (السـلاف)، بـل قبائـل المغـول، الوثنييـن منهـم أولًا ثـم المسـلمين: وهـم «قبائـل الهـون» الذيـن كانـوا تحـت إمـرة الملـك «أتيـلا»، وجنكيـز خـان فـي القـرن الثالـث عشـر، ثـم فـي القـرن الخامـس عشـر القبائـل الذهبيـة، وهـي التـي اسـتقرت فـي البـلاد وأخضعتهـا. وقـد كان عمـل القياصـرة بعـد ذلـك هـو إيقـاف تدفـق هـذا السـيل الجـارف مـن الغـزو الـذي اكتسـح البـلاد مـن الشـرق إلـى الغـرب، فاسـتردوا روسـيا سياسـيًا، مـن المغـول أولًا، ثـم مـن بعدهـم الصقالبـة غيـر الـروس، ثـم مـن آسـيا نفسـها.

يتضـح مـن هـذا أن الصقالبـة ومعهـم بقيـة لا يسـتهان بهـا مـن التتـار يشـكلون نـواة هـذا الشـعب، علـى أن هـذا لا يمنـع وجـود أعـراق عديـدة أخـرى إلـى جانـب ذلـك: فهنـاك اليهـود مـن جهـة، والبلطيقيـون الألمـان اللوثريـون مـن جهـة ثانيـة، وهـؤلاء زالـوا الآن، وكانـوا سـكان شـواطئ بحـر البلطيـق؛ ثـم هنـاك مجموعـات ألمانيـة كانـت لا تـزال ظاهـرة بالأمـس فـي الجنـوب الغربـي مـن روسـيا، وثمـة أتـراك وأعـراق مختلفـة مـن القوقـاز، وغيرهـم أيضًـا. وإذا أردنـا أن نتعـرف إلـى نسـبة هـذه العناصـر المختلفـة، اتضـح لنـا أن «العنصـر الصقلبـي» هـو أهـم هـذه العناصـر جميعًـا وإلـى أكبـر حـد، ويلـي ذلـك بصـورة ثانويـة التتـار الذيـن لا يـزال وجودهـم عنصـرًا ملحوظًـا فـي شـرق نهـر الفولغـا. ثـم إنـه لا بـد أن ندخـل فـي اعتبارنـا خضـوع شـعوب متداخلـة متشـابكة للجاذبيـة الروسـية، علـى أنهـا مـع ذلـك كانـت لتؤثـر فـي السـيكولوجية الوطنيـة. وقـد كان مـن نتيجـة ذلـك أن أحيطـت روسـيا بسلسـلة مـن

الأسـاكل والسـلالم (وهـي الموانئ/الحـدود) لا تسـمح بتحديـد واضـح لحـدود الحضـارة الروسـية. فلنتذكـر أنـه وسـط هـذا السـديم هنـاك شـعب روسـي خالـص، كبيـر فـي حـد ذاتـه، وهـو آسـيوي فـي أصولـه وجغرافيتـه وجـواره، ومـع ذلـك فهـو أيضًـا أوروبـي إلـى حـد كبيـر، بفضـل اشـتراك طويـل مـع التاريـخ الأوروبـي. وقـد اقتبـس هـذا الشـعب مـن بيزنطيـة، حبـه للمناقشـات النافلـة، ورقتـه التـي تصـل أحيانًـا إلـى درجـة المكـر، وأيضًـا شـيئًا لا أعـرف كنهـه متطـورًا جـدًا عندهـم ولا يشـبه روح الشـباب ويتناقـض فـي الآن نفسـه مـع مـا فـي هـذا الشـعب مـن بربريـة وبدائيـة. وفـي هـذا الصـدد كتـب دو كوسـتين (de Custine) يقـول: «فـي ظـل حكـم الأوزبـك كان الـروس يخضعـون للمسـلمين، ولكنهـم واصلـوا مـع ذلـك، وكعاداتهـم القديمـة الأولـى، الأخـذ مـن الإمبراطوريـة الإغريقيـة فنونهـا وعاداتهـا وعلومهـا ودينهـا وسياسـتها مع مـا تتضمنـه مـن تقاليـد فـي الدهـاء والغـش، إضافـة إلـى كراهيتهـم للصليبييـن اللاتيـن». وقـد اسـتمدت روسـيا مـن أوروبـا - بـل مـن أوروبـا الشـرقية خصوصًـا - تقاليدهـا المسـيحية علـى صـورة المذهـب الأرثوذكسـي والإنجيلـي. وفـي حيـن أن الكاثوليكيـة التـي واصلـت تـراث رومـا، وهبـت الغـرب معنـى النظـام والقانـون، نجـد أن الإنجيليـة الشـرقية التـي لـم تتبلـور، والأقـرب إلـى البسـاطة البدائيـة، قـد غرسـت فـي الـروس خصـالًا حسـنة مـن الطيبـة والرحمـة التـي لا تتفـق دائمًـا مـع العدالـة والاسـتقامة الأخلاقيـة، والتـي تثيـر فـي نفوسـنا ذكـرى الشـخص «الممتلـئ بحليـب الطيبـة» التـي تحـدث عنهـا شكسـبير[6]، ونحـن نجدهـا فـي روسـيا بشـكل أوضـح عنـه فـي ألمانيـا. وقـد أخـذت روسـيا مـن أوروبـا جميـع طرائقهـا الفنيـة الحديثـة، منـذ «بطـرس الأكبـر» إلـى لينيـن وأخيـرًا إلـى سـتالين، أخذتهـا واسـتوعبتها بـكل حماسـة وبـروح أكثـر تصوفيـة منهـا ميكانيكيـة. ولكـن علـى الرغـم مـن كل هـذه المسـاهمات الوافـدة مـن شـتى الشـعوب والغـزوات، ومـن كل الحضـارة العاليـة التـي حملتهـا معهـا، فـإن البربريـة لا تـزال باقيـة علـى الوجـه. وقـد كتـب دو كوسـتين يقـول: «لقـد مضـى بالـكاد علـى روسـيا أربعمئـة عـام حتـى اليـوم (فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر)، منـذ تعرضـت لغـزوات البرابـرة، بينمـا تعـرض الغـرب لمثـل هـذه

(6) في مسرحية ماكبث حين تصف الليدي ماكبث زوجها بأنه لا يملك طموحها وقوة إرادتها، لأنه بطبعه طيب القلب، فاستخدمت عبارة «ممتلئ بحليب الطيبة».

الأزمـة منـذ ألـف وأربعمئـة عـام. إن أي حضـارة أقـدم منـك بألـف عـام، لا بـد أن تحدث تفاوتًـا لا حـدود لـه بيـن أخـلاق الشـعوب وعاداتها».

ومهمـا يكـن مـن أمر، فـإن هـذا الشـعب حريص علـى شـخصيته وعلـى وحدتـه أيضًا، وهـي غيـر قائمـة علـى العـرق، لأنـه ليـس عنصريًـا عرقيًـا، بيـد أنهـا وحـدة قائمـة علـى نـوع مـن المفهـوم المشـترك للحيـاة، وعلـى بيئـة عضويـة وأخلاقيـة مشـتركة كذلـك. وقـد قيـل مـرارًا إن هنـاك شـيئًا مـن الصوفيـة فـي الفكـرة التـي خلقهـا هـذا الشـعب عن نفسـه وعـن مصيـره. وقـد وصـف الكاتـب الروسـي مكسـيم غوركـي[7] (Maxime Gorki) هـذا الشـعب، حيـث يقـول علـى لسـان متشـرد: «لـن يختفـي الشـعب الروسـي عـن وجـه البسـيطة. هـذا مكتـوب فـي التـوراة! فهـل تعـرف هـذا الشـعب حـق المعرفـة؟! إنـه شـعب كثيـر العـدد: فكـم مـن القـرى المقامـة علـى الأرض الروسـية!؟ وفـي كل بقعـة مـن بقـاع هـذه الأرض تلتقـون بهـذا الشـعب. هـذا الشـعب العظيـم... وتقـول لـي إنـه سـيفنى؟ الشـعب لا يمكـن أن يمـوت؛ الإنسـان نعـم يمـوت، لكـن اللـه فـي حاجـة إلـى شـعب». وإذا ترجمنـا عبـارات هـذا الكاتـب فـي عبـارات جديـدة اتضحـت لنـا كـم هـي الثقـة المتناهيـة بالـذات والتـي يسـتقبل بهـا الشـعب السـوفياتي مصيـره.

(3)

عندمـا نتحـدث عـن سـيكولوجية الشـعب الروسـي يصعـب علينـا أن نسـتبين منهـا مـا هـي الخصـال الدائمـة فيـه. فنحـن نميّـز مـن جهـة وجـود أسـاس مبدئـي يرجـع

---

(7) مكسيم غوركي (Maxime Gorki) (1868-1936) واسمه الأصلي أليكسي مكسيموفيتش بشكوف (Alekseï Maksimovitch Pechkov)، أديب وناشط سياسي ماركسي روسي، مؤسس مدرسة الواقعية الاشتراكية التي تجسد النظرة الماركسية للأدب حيث يرى أن الأدب مبني على النشاط الاقتصادي في نشأته ونموه وتطوره، وأنه يؤثر في المجتمع بقوته الخاصة، لذلك ينبغي توظيفه في خدمة المجتمع. تعني كلمة غوركي باللغة الروسية «المر»، وقد اختارها الكاتب لقبًا مستعارًا له من واقع المرارة التي كان يعاني منها الشعب الروسي تحت الحكم القيصري والتي شاهدها بعينيه خلال المسيرة الطويلة التي قطعها بحثًا عن القوت، وقد انعكس هذا الواقع المرير بشكل واضح على كتاباته وبشكل خاص في رائعته الأم.كان صديقًا للينين الذي التقاه عام 1905. توفي ابنه مكسيم بشكوف عام 1935م، ثم توفي هو في 18 كانون الثاني/يناير 1936م في موسكو، وسط شكوك بأنهما ماتا مسمومين. سميت مدينة نيجني نوفغورود (Nizhny Novgorod) التي ولد فيها باسمه غوركي منذ عام 1932م حتى عام 1990.

إلـى أقـدم مـاضٍ آسـيوي ممكـن. ومـن جهـة أخـرى، يجـب ألا نتجاهـل المحاولـة القاسـية لبطـرس الأكبـر فـي أورَبـة (جعلهـا أوروبيـة) روسـيا ولا العمـل العميـق الـذي قامـت بـه الثـورة السـوفياتية باسـم التقنيـة الغربيـة. ومـن الصعـب أن نميـز فـي ظـل هـذه الظـروف، الخصـال الروسـية حقًـا والتـي نظـن أنهـا روسـية فـي حيـن أنهـا فعليًـا تعـود إلـى المرحلـة السـوفياتية. كمـا أنـه مـن الصعـب أن نعـرف مـا إذا كانـت بعـض الإصلاحـات الحديثـة التـي تعـزى إلـى ثـورة 1917 هـي أمـور عابـرة لـن تتـرك وراءهـا أثـرًا أم أنهـا مرشـحة للبقـاء والاسـتمرار، وليـس مـن شـك فـي أن الثـورة البلشـفية قـد جـددت شـباب الشـعب الروسـي، ولكـن إلـى أي حـد؟ الواقـع أن هـذا الشـعب قـد دبـت فيـه روح الشـباب مـن جديـد، ولكـن علينـا أن نذكـر إلـى جانـب ذلـك أنـه قـد جـرت «شـرقنته» (جعلـه شـرقيًا)، إذ يعـود اليـوم الأسـاس الآسـيوي القديـم، بقـوة أكبـر بكثيـر عمـا كان عليـه قبـلًا!

لنسـائل أنفسـنا إذًا مـا هـو شـرقي أو آسـيوي لـدى الشـعب الروسـي؟ إن سـيكولوجية هـذا الشـعب تنضـح بقـوة التأثيـر والاتصـال والقـرب مـن آسـيا، ولا تكفـي هـذه الكلمـات للتدليـل علـى تأثـر روسـيا بآسـيا، بـل يجـب أن نتحـدث عـن الحضـور الآسـيوي الملمـوس فعـلًا فـي كل مـكان مـن هـذا البلـد. ومـع ذلـك يجـب أن نوضـح أن آسـيا التـي نعنيهـا ليسـت هـي آسـيا المتوسـطية والمشـرقية الشـرق أوسـطية، التـي نعرفهـا جيـدًا والتـي تصـل إلـى شـواطئ الريفييـرا عندنـا، بـل هـي بـر آسـيا نفسـها، آسـيا المغوليـة، وهـذه مختلفـة تمامًـا عـن الأولـى. ويقـال - أحيانًـا - إن الرجـل الروسـي هـو فـي الأصـل غربـي ارتـدى زيًّـا شـرقيًا. وقـد يكـون مـن الحقيقـة أكثـر أن نقـول: إنـه شـرقي متأثـر بالغـرب، وربمـا إن «غربيتـه» أفسـدت شـرقيته. وقـد قـال بسـمارك يـوم كان سـفيرًا فـي سـان بطرسـبرغ وأتيـح لـه أن يعـرف هـذه البـلاد وأن يدرسـها جيـدًا، قـال قـولًا مذهـلًا فـي هـذا الصـدد: «ليـس لروسـيا أن تتعاطـى مـع الغـرب إذ هـي قـد تأخـذ منـه كل الأمـراض».

مـن أكثـر الخصـال آسـيوية التـي اقتبسـها الروسـي هـي الصبـر والجلـد والقـدرة علـى تحمـل الألـم. فهـو اعتـاد علـى احتمـال أقسـى ضـروب العـذاب، وهـو لا يندهـش ولا يحتـج بـأن الحيـاة قاسـية، وحتـى متوحشـة غاشـمة. وهـذا السـلوك

الروسي ناتج من تعوده الدهري وترويض نفسه على تلقي المحن التي تنشأ من تقلبات الجو والغزوات ومن تقاليد قسوة التاريخ في هذا الجزء من العالم. وتبدو هذه المحن جميعًا - في نظره - شيئًا طبيعيًا لأنها كانت قدره عبر تاريخه الطويل. ولهذا فهو يتقبلها بواقعية من دون مقاومة، كما يتقبل مظاهر القوة والأوامر المفروضة (diktat) من الدولة. وربما لا يفكر الرجل الروسي في هذا الأمر كثيرًا، بل إنه يخضع له ويحني رأسه كأنه أمام قوى الطبيعة. وهذا هو معنى الكلمة الشهيرة Nitchevo المشتقة من الاسم الموصول Nitchto الذي يعني «لا شيء» (Nihil) (عدم). وهكذا، فإنك لا تني تسمع الروسي يردد Nitchevo Nitchevo... مش مهم... مش مهم... ليس لهذا الأمر أهمية تذكر... وهو في قرارة نفسه يريد أن يقول: إنه على الرغم من كل شيء فسيصمد وسيبقى حيًا. والحال أن تلك هي فلسفة شرقية، فلسفة أناس عركهم الدهر فتعلموا الصبر.

هكذا نفهم سر صمت الحياة السياسية في روسيا، اليوم كما بالأمس: فخارج نطاق تصريحات القادة، لا شيء آخر يحدث. وقد ذكر المؤرخ الفرنسي شارل سينيوبوس في كتابه تاريخ أوروبا المعاصر وبالتحديد في الفصل الخاص بروسيا، التفسير الآتي: «قد يكون من الصعب أن نفسح للتاريخ السياسي للإمبراطورية الروسية مجالًا مناسبًا لمكانة روسيا. فالإمبراطورية الروسية بتكوينها الاستبدادي كانت بعيدة كل البعد من الاضطرابات السياسية التي تشكل أسس الحياة السياسية المعاصرة. فهي - على غرار حكومات الملكية المطلقة في القرن الثامن عشر - لا تملك تاريخًا ما غير تاريخ الملوك وحاشيتهم، وهو تاريخ لا نعرفه إلا من طريق روايات معارضين للحكومة منشورة في الخارج بحيث يصعب مراقبتها، وليس من طريق الصحف الرسمية التي تصدرها الدولة، وهذه لا تنقل شيئًا عن واقع الحياة الفعلية هناك. وها نحن نرى لماذا يحتل التاريخ الداخلي لروسيا - في ما عدا محاولات ألكسندر الثاني الإصلاحية - مكانًا أقل في الأهمية من مكانة إجراءات القمع التي اتخذتها الحكومة ضد أعدائها من بولونيين ومنشقين، أو ثوريين». وهذه العبارات التي خطها هذا المؤلف قبل أكثر من ربع قرن والتي تتعلق بنظام قديم مضى عليه قرن من الزمان، يمكن أن تنطبق تمام الانطباق على روسيا اليوم.

هـذه الطاقـة القويـة علـى الصبـر والاحتمـال التـي يتحلـى بهـا جمهـور الشـعب الروسـي، لا تعنـي تحديـدًا أنـه شـعب متشـائم أو قـدري اتكالـي. فمـن المهـم أن نلاحـظ عنـد هـذا الشـعب التفـاؤل والحيويـة والثقـة بالنفـس، كل هـذه الصفـات هـي مـا يطبـع روسـيا السـوفياتية بطابـع مميـز خصوصًـا غيـاب أي شـعور مـن مركبـات النقـص. وهنـاك أقليـة مؤثـرة تقـوم بـدور خميـرة العجيـن فـي صفـوف الشـعب الروسـي، ومـع ذلـك فـإن الجمهـور الروسـي يظهـر فـي المـدن الكبـرى بمظهـر السـلبية، مثـل الهنـد إلـى حـد مـا، وأبـدًا ليـس كمثـل الصيـن: الشـرق نعـم، ولكـن ليـس الشـرق الأقصـى، ليـس الغـرب أيضًـا!.

أدى هـذا الخليـط مـن المؤثـرات الشـرقية والغربيـة إلـى نـوع مـن عـدم التـوازن الواضـح. ويوجـد لـدى الرجـل الروسـي دائمًـا شـيء مـن عـدم المبـالاة، كمـا أنـه ينطـوي علـى التهـور، وهـذا ناتـج عـن وجـود نقـص فـي الجمـع بيـن كفـاءات واسـتعدادات متعارضـة. وكل مـا ذكرنـاه آنفًـا بصـدد ألمانيـا هـو كذلـك فـي روسـيا علـى نطـاق أوسـع. فالتوليـف لـم يحصـل هنـا، وفـي هـذا المعنـى فـإن الرجـل الروسـي ليـس مثلنـا علـى الدرجـة نفسـها مـن التمديـن والتطـور. فنحـن نلاحـظ أن الفـرد الروسـي الواحـد يجمـع بيـن التواضـع والكبريـاء، بيـن المثاليـة وعـدم الحيـاء، بيـن الفضيلـة والرذيلـة، والانتقـال مـن صفـة إلـى أخـرى فـي الفـرد نفسـه تحـدث بسـهولة مـع حـدوث ارتجاعـات فريـدة. وإذا أعدنـا قـراءة الروايـة الروسـية، خصوصًـا تلـك التـي كتبهـا دوستويفسـكي[8] (Dostoievski) فإننـا نجـد فيهـا كلهـا هـذا التناقـض العجيـب، كمـا نجـد أيضًـا هـذه الخصـال المتطرفـة والمتناقضـة فـي الممثـل السـوفياتي فـي المؤتمـرات الدوليـة. فهـو يجيـد الجمـع بيـن الرقـة والخشـونة وبيـن الظـرف والغلظـة وبيـن المرونـة والعنـف. ولا نعـرف معـه علـى أي إيقـاع نرقـص فهـو تـارة دبلوماسـي ذو سـلوك مهـذب وتـارة أخـرى هـو واحـد مـن الميروفنجييـن ضـل سـبيله فـي القـرن العشـرين. ويبـدو فـي كل تطـوره السـيكولوجي أن هـذا

(8) فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي (1821-1881) (Fiodor Mikhaïlovitch Dostoïevski).واحد من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم في أدب القرن العشرين. شخصياته دائمًا في أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، ورواياته تحوي فهمًا عميقًا للنفس البشرية كما تقدم تحليلًا ثاقبًا للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في ذلك الوقت.

الشعب الروسي لم يمر بفترة انتقال بين ما كان عليه في العصور الوسطى وما هو عليه الآن في عصره الحديث أي: بين عصر البربرية وعصر الألوهية، أو كي نستعير أسلوب باسكال: بين الوحش والملاك. وقد سبق للماركيز دو كوستين أن لاحظ هذه السمة، فكتب يقول: «يقضي المناخ - من الوجهة الطبيعية - كما تقضي الحكومة - من الوجهة الأدبية والمعنوية - على كل ما يمثل الضعف والخور في هذا البلد. إن روسيا بلد العواطف الجامحة أو الطباع الواهنة، وشعبها إما ثائر وإما مستكين. وليس هناك وسط بين الحاكم والعبيد كما أنه ليس هناك وسط بين المجنون والحيوان، إن الوسطية المتزنة ليست معروفة لدى هذا الشعب».

تكونت الشخصية الروسية من هذه العناصر المتفككة المتناقضة التي لا يمكن القول بأنها عناصر تتلاءم مع هذا العصر. ومنذ عهد القياصرة أقيمت في روسيا صناعة ممكننة ترتكز على أجمل الفنون التقنية، بيد أن اليد العاملة التي اختيرت لهذه الصناعة من الريف المجاور، كانت تحمل عقلية القرون الوسطى. واليوم فقد أصبح الشعار الرسمي للدولة هو المادية في أوضح صورها ومع ذلك فقد ألّه الشعب الروسي ستالين، كما ألّه الشعب الروماني الإمبراطور أغسطس. والبلشفية مذهب توسعي وتهدف إلى أن تكون داعية ورائدة عالمية لعقيدة اجتماعية جديدة، ولكن هذه البلشفية تحيط نفسها بسور منيع كسور الصين العظيم غير قابل للاختراق. وقد كنا نعرف بالأمس نبلاء من الروس عرفوا بسعة الرزق بشكل ليس له نظير في العالم؛ لكنهم كانوا ينامون في فراشهم بجزماتهم.

كتب كوستين يقول: «إن هذه الحكومة ذات الروح البيزنطية، ومعها كل روسيا، كانت تعتبر على الدوام أن جميع الممثلين الدبلوماسيين وخاصة الغربيين منهم هم جواسيس تمتلئ صدورهم بسوء النية والغيرة». وفي أيام حكم الإمبراطور نيقولا الثاني (Nicolas II) كما في ظل حكم ستالين كان كل فرد يجتاز الحدود يشعر مباشرة أنه موضع شك وريبة وكأنه بالفعل «جاسوس حاقد حاسد». ولقد حدث لأحد سفرائنا عشية قيام الحرب العالمية الأولى، أن أراد زيارة بعض المصانع الروسية، ولكن حكومة سان بطرسبرغ اعتبرت أن

وراء هـذه الرغبـة مـن جانـب السـفير مـا وراءهـا مـن سـوء النيـة. وأعتقـد أن ممثلينـا الدبلوماسـيين الحالييـن فـي موسـكو لـم تعـد تراودهـم مثـل هـذه الرغبـة بتاتًـا الآن بعـد هـذا الحـادث. والواقـع أن السـوفيات - وهـم تلاميـذ تقنيـون للغـرب - لا يثقـون فـي الغـرب ويكرهونـه كراهيـة عميقـة؛ ولنذهـب إلـى أبعـد مـن ذلـك فنقـول إن الرجـل الروسـي، سـواء أكان مـن مؤيـدي القيصـر أم ثوريًـا، اعتبـر علـى الـدوام أن أسـس الحضارة الغربيـة هـي - مـن وجهـة نظـره - غيـر سـليمة خلقيًـا، وأنهـا تتـرك فـي نفسـه نوعًـا مـن النـدم، بـل إنـه حتـى عندمـا تفـد عليـه هـذه الحضـارة الغربيـة، نجـده يرفـض مبادئهـا ويشـعر أنـه ليـس مسـتقرًا فـي مكانـه وهـو بداخلهـا.

وفكـرة «الملكيـة الخاصـة» التـي هـي إحـدى الدعائـم الفرديـة موجـودة عنـد الروسـي مثـل غيـره فـي أي بلـد آخـر، بيـد أنهـا لـم تكـن عنـده يومًـا مـا معتقـدًا: وحتـى مـا قبـل قيـام الثـورة البلشـفية، فإنهـا كانـت تتـرك فيـه شـعورًا بالريبـة منهـا، وبالنـدم وتبكيـت الضميـر وكأنـه يعيبـه أن يكـون مالـكًا. والروسـي الـذي يقتنـي الأمـوال ويقـوم بالأعمـال ويراكـم العقـارات والثـروات، كان معـدودًا دائمًـا وكأنـه غيـر أميـن، ولـم يمنعـه ذلـك مـن أن يبحـث عـن الثـروة كغيـره مـن بنـي البشـر. وقـد عبّـر بردیائیـف[9] (Berdiaev) عـن هـذه الفكـرة فـي كتابـه العصـر الوسـيط الجديـد (Nouveau Moyen Age)، إذ يقـول: «لقـد كان الشـعب الروسـي فـي جميـع الأزمنـة، وهـذا مـا يميّـزه، تحركـه روح التحـرر مـن كل ارتبـاط مـادي، وهـذا غيـر معـروف لـدى شـعوب الغـرب، ولـم يحـدث أن أحـس فـي يـوم مـا بأنـه مرتبـط أو مقيّـد إلـى الأشـياء المادية

(9) نيقولاي ألكسندروفيتش بردیائیف (1874-1948) (Nikolaï Aleksandrovitch Berdiaev) فيلسوف ديني وسياسي روسي، ولد بمدينة كييف، لعائلة أرستقراطية، ويعتبر أحد أهم رواد الفلسفة الوجودية المسيحية. وقد بدأ تطوره الفكري بأن كان اشتراكيًا، حاول التوفيق بين ماركس وكانط، لكنه ابتداءً من سنة 1901وتحت تأثير نيتشه خصوصًا، تخلى عن الماركسية، شارك في حركة التجديد الروسي وهى حركة دينية النزعة، ساهمت في حركة إصلاح وتجديد الكنيسة الروسية، انتُخب نائبًا في (مجلس الجمهورية) الذي لم يعش طويلًا. أنشأ الأكاديمية الحرة للثقافة الروحية، وفى عام 1920 صار أستاذًا في جامعة موسكو، حيث ألقى محاضرات نشر بعضها في سنة 1923 في برلين تحت عنوان معنى التاريخ، وبعضها الآخر تحت عنوان روح دوستويفسكي. طرد من روسيا في عام 1922 باعتباره (عدوًا أيديولوجيًا للشيوعية)، فلجأ إلى برلين، حيث عاش فيها في الفترة من 1922 إلى 1924. ثم انتقل إلى باريس في عام 1924 حتى وفاته في 22 آذار/ مارس 1948.

الدنيوية، ولا بالأسرة أو بالدولة، أو بحقوقه أو بالمتاع، أو بطريقة معيشته الخارجية. وإذا كان الشعب الروسي قديمًا مقيّدًا إلى الدنيا الفانية، فإن ذلك كان من خلال الخطيئة... وربما يكون الشعب الروسي شعبًا أقل استقامة وأمانة وأقل سلامةَ مسلكٍ من الشعوب الغربية، ولكن هؤلاء متعلقون - بحكم طبيعتهم نفسها - بالحياة الدنيا وما عليها وما في العالم من خيرات ومنافع. و«الملكية الخاصة» هي بالنسبة إلى أي رجل في أوروبا الغربية شيء مقدس لا يفرط فيها من دون أن يستميت في الدفاع عنها. وهو يعتنق أيديولوجية تسوغ له تعلقه بأشياء هذه الدنيا الفانية. والرجل الروسي - حتى حين تستبد به غرائز الطمع والبخل الجامحة - لا يعتبر الملكية الخاصة شيئًا مقدسًا، وهو لا يملك تبريرًا أيديولوجيًا معينًا لملكيته أشياء دنيوية. وهو يفضل في قرارة نفسه لو أنه يترك كل شيء ويضرب بترحاله على دروب الحج. ولم يكن لدى مالك الأرض الروسي في أي وقت أي اعتقاد مطلق بأن هذه الأرض أرضه بمعنى التملك النهائي. وحتى التاجر الروسي كان يظن أيضًا أن ثروته التي جمعها بطرائق غير واضحة، ليست طاهرة حقًا؛ وأن عليه أن يكفّر عن ذلك آجلًا أو عاجلًا. وخلاصة القول: إن كل روسي كان يعتقد أن النظام البورجوازي هو نوع من المعصية».

هذه الخصال التي يتحلى بها الشعب الروسي لا تنقصها القوة أو العظمة، ولكن علينا أن نعترف أنها تقف في الآن نفسه على النقيض من الطهرانية الأنكلوسكسونية البنّاءة، ومن الإنجاز الذي أقام مجد أوروبا منذ عصر النهضة، لا بل منذ القرون الوسطى. وهذه الخصال نجدها أيضًا وبصورة أكبر في التراث الإنجيلي. وحين أخذ الروسي عن الغرب تقنيته، فإنه لم يستطع أن يمحو من حياته هذه الروح السابقة، وهو يعتقد عن حسن طوية، كما أعتقد، أننا نحن الغربيين أناس مفسدون في الأرض. إنه يراكم في داخل ذاته وبشكل غريب خصالًا تنتمي إلى القرون الوسطى إلى جانب خصال أخرى تنتمي إلى عصر المكننة. ونحن نعرف كم كان الشعور الديني رائعًا عند تولستوي[10] (Tolstoï):

(10) الكونت ليف نيقولايفيتش تولستوي (1828-1910) (Lev Nikolaïevitch Tolstoï) من عمالقة الروائيين الروس ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر أخلاقي وعضو مؤثر في أسرة تولستوي،

إنـه يعبّـر تمامًـا عمـا عنـد الشـعب الروسـي. وهـذا الشـعور الدينـي ليـس معتقـدًا حلوليًا (يؤمـن بوحـدة الوجـود)، نجـده هنـا علـى كل حـال كمـا عنـد الألمـان؛ بـل هـو عبـارة عـن مثاليـة تصوفيـة تنطـوي علـى روح التضحيـة والإيثـار والرسـولية الاجتماعيـة. فالطريقـة التـي يتحـدث بهـا المناضـل عـن التراكتـور تنتمـي إلـى التصـوف: إذ مهمـا أجهـد نفسـه فـي القـول وتكـرار التذكيـر بعدوانيـة عـن أنـه مـادي، ولا شـيء سـوى ذلـك، فإننـا لا نسـتطيع إلا مقارنـة لغتـه وسـلوكه وحماسـته، مـع الفاعليـة البراغماتيـة والواقعيـة للأميركـي الـذي يسـاوم علـى سـعر التكلفـة.

(4)

هـا نحـن إذًا أمـام مواهـب رائعـة لامعـة ونواقـص معلومـة! هـذا الشـعب موهـوب جـدًا، بـل هـو أكثـر موهبـة مـن الشـعب الألمانـي الواعـي الإرادوي الانضباطـي الـذي تحدثنـا عـن فعاليتـه فـي مـا سـلف. فـي روسـيا نلتقـي فـي كل خطـوة نخطوهـا بالحيويـة المتجـددة والعفويـة وعـدم المبـالاة، والـروح المبدعـة علـى كل حـال. والروسـي مبتـدع خـلاق أكان ذلـك فـي مجـال الإبـداع الفنـي أم الإبـداع الدينـي، ولكنـه مـن وجهـة نظـر مقاييسـنا الغربيـة يعتبـر كائنًـا ذا كفايـة متوسـطة. وتتضـح هـذه المسـألة حيـن نـرى إلـى عـدم الانتظـام الأسـاس الـذي لا يرتجـى إصلاحـه فـي الحيـاة اليوميـة فـي هـذا البلـد الـذي يبـدو فيـه الزمـن وكأنـه متـرام لا حـدود لـه، مثـل السـهوب. إن الروسـي، هـذا البوهيمـي، لا يملـك معنـى للوقـت، فهـو لا يتنـاول وجباتـه الغذائيـة فـي مواعيـد محـددة؛ وعندمـا نتذكـر تقديـس عامـة الفرنسـيين موعـد وجبـة الغـذاء يتضـح لنـا الفـارق الـذي يفصـل بيـن باريـس وموسـكو. كمـا أن فـارق التوقيـت فـي يـوم مـن أيـام تلـك البـلاد، مخيـف جـدًا فـي نظـر حياتنـا البورجوازيـة المنظمـة. إن المنـاخ المحيـط هـو سـبب ذلـك بـلا شـك، والدليـل أننـا نعتـاد مباشـرة وبسـرعة، حتـى ولـو لـم يمـر علـى إقامتنـا هنـاك غيـر بضعـة أيـام، أن نتأخـر فـي الاسـتيقاظ، وأن

يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر وبعضهم يعده من أعظم الروائيين على الإطلاق. أشهر أعماله روايتي الحرب والسلام وأنا كارنينا وهما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية. بوصفه فيلسوفًا أخلاقيًا اعتنق أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب مملكة الرب داخلك.

نتنـاول فطـور الصبـاح فـي وقـت انحـراف الشـمس، وأن لا نخلـد إلـى النـوم إلا وقـت تبلـغ الشـمس ميعـاد شـروقها مـن جديـد.

يبـدو أن الحيـاة المنظمـة، الثابـة، لـم تتأسـس قـط فـي هـذه البـلاد التـي لا تعـرف سـاعة الوقـت. ويلاحـظ الإنسـان هنـاك ضعـف ارتبـاط النـاس بـالأرض، كمـا عندنـا، ويلاحـظ أيضًـا تغلّـب الحيـاة البدويـة عليهـم والتـي يبـدو أنهـم أخذوهـا عـن أجدادهـم منـذ قـرون. ونشـاهد النـاس طبيعيًـا علـى كل الطرقـات وكأنهـم قوافـل حـج مسـتمر، ولقـد شـعر تولسـتوي بالمـوت حيـن كان بعيـدًا مـن منزلـه فـي محطـة قرويـة صغيـرة. وحتـى الأمـس كان الفـلاح الروسـي يحيـا حيـاة القـرون الوسـطى، مسـتخدمًا فـي عملـه آلات القـرن الثامـن عشـر، وكان لا يجيـد معرفـة الحسـاب ويجهـل المقاييـس الأرضيـة. ومثـل هـذا النقـص فـي الكفايـة ليـس مـن قبيـل الدونيـة الموروثـة فـي حضـارة ورثوهـا، وإنمـا يتأخـر الـروس بقـرن مـن الزمـان عـن الحضـارة الأوروبيـة، وهـذا يحتـاج إلـى وقـت طويـل لتعويضـه. ولا يـزال لـدى الـروس بعـض عـادات هـي مـن عـادات الجماعيـة الآسـيوية. بيـد أن الظـروف التـي يعيشـها الشـعب الروسـي، وخصوصًـا منـذ الثـورة، فـي المـدن المزدحمـة بالسـكان، تخيفنـا، مـع مراعـاة أن هـذا الشـعب لا يقاسـي مـن اشـتراك شـخصين فـي غرفـة واحـدة كمـا نفعـل نحـن الفرنسـيين. وقـد تعـوّد أن يعيـش الواحـد فـوق الآخـر، وأن ينـام فـي أي مـكان، يسـتوي لديـه سـقف محطـة السـكة الحديـد وحجـرة الانتظـار وحجـرة الاسـتقبال. وأتذكـر هنـا عائلـة روسـية كانـت تقيـم فـي مقصورة نـوم مجـاورة لغرفتـي: كان السـماور (غلايـة روسـية للشـاي) يصفـر دائمًـا، وقـد نصبـوا أرجوحـة نـوم لطفلهـم، ونشـروا عـدة تخييـم كاملـة فـي الغرفـة، فكنـت تشـعر نفسـك وكأنـك فـي خيمـة. هـذه هـي الصفـات المميـزة التـي تصفـع وجوهنـا كلمـا تقدمنـا مـن غربنـا المنظـم صـوب الشـرق، فنعـرف حينهـا أننـا اقتربنـا مـن آسـيا.

لـدى الـروس ذائقـة ومعنـى للعلاقـات الإنسـانية. ونحـن نعـرف شـغفهم بالثرثـرات المطوّلـة التـي تسـتمر إلـى مـا لا نهايـة مـن دون أن تنتهـي بالضـرورة إلـى نتائـج. ولهـذا وصفهـم بعضهـم أحيانًـا بأنهـم قـوم ثرثـارون، ولـم يكـن ذلـك دائمًـا مجـرد افتـراء عليهـم. وأمـام سـيل الثرثـرة فـي الـكلام اضطـرت الحكومـة إلـى

التدخـل عبـر فـرض أوامـر مشـددة ووضـع نظـام قـاس. وهـذا مـن ألـزم الواجبـات لشعب يطيـب لـه دائمًا أن يعـرض المشـكلات فـي المطلـق، مصحوبـة بفيـض وافـر مـن البراهيـن التقنيـة، وإن كان ذلـك يحلـق فـوق الغيـوم غالبًـا، ومـن دون أن يكـون للوقـت أي معنـى أو دور هنـا. وقـد تفسـر هـذه الطريقـة إلـى حـد كبيـر روح النظـام الحاضـر وأسـاليبه. ونحـن نجـد فـي إنجازاتـه بـذلًا هائـلًا تجـاه قضيتـه وعاطفـة تصوفيـة نوعًـا مـا، وفـي الوقـت نفسـه جمـع مبالـغ بـه لتأشـيرات وتدوينـات فنيـة، ولأعـداد وأرقـام، مـع مرونـة دبلوماسـية مدهشـة، وصبـر هـو حقًـا شـرقي... وأخيـرًا إذا أردنـا أن نقـارن نتائـج هـذا المجهـود مـع الجهـد المبـذول، لوجدنـا أن المنتـوج ضعيـف جـدًا.

وربمـا يرجـع التناقـض الـذي مـا نفتـأ نـراه يتكـرر فـي شـتى طبـاع هـذا الشـعب إلـى تطورهـم المتأخـر نحـو الحضـارة. ولنتخيـل أن روسـيا هـي تمثـال بـدأ ينفصـل لتـوه عـن قطعـة ضخمـة مـن الصخـر الخـام مشـوهة التركيـب والتشـذيب ومتوحشـة. إن الروسـي إنسـان شـديد الإنسـانية، أكثـر مـن الألمانـي، وهـو يمكنـه أن يحظـى بمشـاعر التسـامح والخيـر والتقـوى. ويبـدو فـي حياتـه اليوميـة بسـيطًا، مشـرق الوجـه، مـع كثيـر مـن الخصـال التـي تشـبه خصالنـا. وليـس جمهـور النـاس فـي مجموعـه فجًـا أو عدائيًـا؛ بـل إنـه يوحـي بالشـعور بالرقـة تجـاه الأجنبـي. وعلـى الرغـم مـن ذلـك فإننـا مضطـرون إلـى أن نقـرر صراحـة أنـه شـعب يتسـم بالقسـوة والوحشـية والسـكر، وقليـل الاهتمـام بالحيـاة الإنسـانية، ولعـل جنودنـا وأسـرانا فـي روسـيا يعرفـون ذلـك أكثـر مـن أي كان؛ وهـو بذلـك يتـرك عندنـا انطباعًـا رهيبًـا بأنـه جمـع مـن التتـار تدفـق علـى أوروبـا. فدخـول القـوات السـوفياتية فيينـا أو برليـن، يذكّرنـا بالغـزوات البربريـة التـي قـام بهـا أتيـلا (Attila) أو جنكيـز خـان.

ولنقـارن بيـن الروسـي والألمانـي: يوجـد عنـد الاثنيـن نـوع مـن التـردد وعـدم القـرار. الرجـل الألمانـي مسـتكين منضبـط نظاميًـا وينخـرط فـي مجتمـع قـوي البنيـان والدعائـم، يحتـاج إليـه كمـا يحتـاج إلـى مشـد للظهـر. أمـا الروسـي فهـو أيضًـا مسـتكين، ولكنـه أكثـر عفويـة، وهـو يعيـش أيضًـا فـي ظـل مجتمـع قـوي البنيـان والدعائـم وسـلطوي، إلا أنـه لا يندهـش مـن هـذا الوضـع؛ لأنـه يعتقـد أن الأمـور

سارت دائمًا على مثل هذا النهج. وعند الروسي التقنية شبه عقيدة عليه الإيمان بها، أما الألماني فإنه يعتبرها طبيعة من طبائع الإنسان.

وقد خدع الغرب تمامًا بروسيا، وخدعت فرنسا بروسيا القيصرية خصوصًا. انخدعنا نحن الفرنسيين أيام التحالف الروسي - الفرنسي بالمظهر الخادع لواجهة قوية تفرض نفسها. وأنا أذكر أننا كنا نعجب بقوة بأي سلطة لا تخشى من إثبات وجودها، ونعجب بالأزياء الرسمية الفاخرة على الطريقة الألمانية والتي يرتديها عظماء مهيبون. وكنا نعتقد أننا نجد في هؤلاء نسخة عن البروسيين الأقوياء الشديدي الفاعلية الذين هزمونا عام 1870. ولكننا والحق يقال لم نلمس فيهم لا العمل نفسه ولا الجدية نفسها التي كانت للألمان، بل هي كانت استبدادًا شرقيًا آفلًا وفاسدًا، فوضويًا، على الرغم من جمال مظهره. لم يخطئ بسمارك في ذلك وهو الذي كشف، قبل فترة طويلة من تبوئه منصب المستشار، الضعف الأولي الكامن في صلب النظام الإمبراطوري الروسي. ولم يكن ينبغي لنا أن نتعجب من انهيار هذا النظام الإمبراطوري عام 1917. واليوم تطالعنا روسيا جديدة تخرج من تحت أنقاض روسيا القديمة، ويبدو أنها تختلف عن روسيا القديمة في مظاهر عديدة. ونحن نخطئ إذا اعتقدنا أن هذا التغيير كان جذريًا؛ لأن الخصال المميزة للشعب الروسي - التي تحدثنا عنها بالتفصيل آنفًا - لم تتغير. وعلى الرغم من أن شباب النظام الروسي الحديث ينطوي على بعض الأخطاء، فإنه يتحلى ببعض الصفات. فهل هذه الصفات لم يكن لها وجود سابقًا، وهل النواقص والأخطاء قد جرى فعلًا تصحيحها؟

لا أريد في بحثي هذا إبداء آراء تخالف الواقع الملموس، على أنني إضافة إلى الكتب التي استقينا منها آراءنا حول روسيا، وبالأخص كتب أناتول لوروا بوليو[11] (Anatole Leroy-Beaulieu) أو الماركيز كوستين، على سبيل المثال، قد

(11) أناتول لوروا بوليو (1842-1912) (Anatole Leroy-Beaulieu) مؤرخ وكاتب مقالة فرنسي وهو صاحب رواية فرقة من الممثلين (Une troupe de comédiens) وهي رواية تاريخية عن مرحلة النهضة الإيطالية أو الإحياء (Risorgimento) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي أدت إلى توحيد إيطاليا. زار روسيا لتجميع وثائق حول التنظيم السياسي والاقتصادي للشعوب السلافية وأصدر بعد عودته سلسلة مقالات في مجلة العالمين (1882-1889) (Revue des Deux Mondes) أعيد نشرها في كتاب بعنوان

يكـون مـن المعيـب أن نهمـل بعـض المؤلفـات الأخـرى، لا لأنهـا مؤلفـات مجهولـة، بـل لأنهـا مؤلفـات لـم تُحمـل علـى محمـل مـن الجديـة، وأنـا لا أتحـدث هنـا عــن روايــة ميشــال ســتروغوف (روايــة مغامــرات تاريخيــة نشــرها جــول فــرن عــام 1876)، وهــي بالمناسـبة سـيئة للغايـة بوصفهـا دليـلًا للمعرفـة، وإنمـا أتحـدث عـن الكونتيســة دو ســيغور[12] (comtesse de Segur)، المولــودة روستوبشــين بالمناســبة. فكــم مـن الخصـال الآسـيوية الحقـة فـي قصـص الأطفـال تلـك والتـي كان يلـذ لهـم قراءتهـا، كمــا أنهــا كانــت تحمــل عظــات الأهــل الأخلاقيــة علــى خلفيــة مــن بــراءة بدائيــة، واقعيــة، لا بــل وربمــا كلبيــة. وكانــت بعــض العقوبــات التــي وقعــت علــى صوفيــا وحشــية مثــل ســادية التتــار، ومــع الجنــرال دوراكيــن (إحــدى روايــات الكونتســية دو

مملكة القياصرة والروس (l'Empire des Tsars et les Russes) (4e éd., révisée en 3 t., 1897-1898). كما أصدر كتبًا أخرى عديدة عن روسيا وعن اليهود والأرمن والبابوية ومعاداة السامية... إلخ. انتخب أستاذًا للتاريخ المعاصر وشؤون الشرق في معهد العلوم السياسية بباريس (1910-1880) الذي صار مديره من 1906 إلى 1912. كان بعد 1901 آخر رئيس للرابطة العالمية لمكافحة الإلحاد.

(12) صوفيا روستوبشين الملقبة بالكونتيسة دو سيغور (سان بطرسبرغ 1799 - باريس 1874) (Sophie Rostopchine, comtesse de Ségur) سيدة أدب فرنسية من أصل روسي لأسرة من النبلاء تعود إلى خانات المغول من عائلة جنكيز خان. عاشت طفولتها في أراضي والدها قرب موسكو، حيث كان يعمل أكثر من 4000 قن وفلاح، وتلقت التعليم التقليدي لأبناء الأرستقراطية الروسية التي كانت تفضل اللغة الفرنسية وآدابها، وفي شبابها كانت تجيد 5 لغات. تحولت والدتها من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية بتأثير اليسوعيين وجوزيف دو مايستر (Joseph de Maistre) الوزير المفوض مطلق الصلاحيات لملك سردينيا عند القيصر، فنشأت كاثوليكية مثل أمها. وعند غزو نابليون لروسيا 1812 كان والدها حاكم موسكو وهو الذي أشعل موسكو بحرائق أدت لانسحاب نابليون وهزيمته، ولكن هذه الخطة تسببت بنقمة التجار والنبلاء الذين فقدوا بيوتهم وأملاكهم بفعل الحريق. وغضب عليه القيصر أيضًا فاضطر فيودور روستوبشين إلى المنفى الاختياري إلى بولندا 1814 لا يرافقه سوى خادمه، ثم إلى ألمانيا فإيطاليا وأخيرًا استقر في فرنسا 1817. وفي كل البلدان التي ارتحل إليها استقبل استقبال الأبطال منقذًا للملكية الأوروبية. في باريس تعرفت صوفيا إلى أوجين (1798-1869) ابن المارشال دو سوغير الذي كان سفيرًا لفرنسا في روسيا وهو ابن شقيق الجنرال فيليب دو سوغير مساعد نابليون الذي كاد يموت في حريق موسكو. بعد الزواج 1819 عادت أسرة صوفيا إلى روسيا. ولكن زواجها الذي بدأ سعيدًا غرق لاحقًا في الخلافات بسبب سلوك زوجها الذي تركها وحيدة في القصر مع أطفالها ثم أحفادها فكان ذلك بداية مسيرتها في كتابة القصص الصغيرة للأطفال مما كانت ترويه لهم في قصرها. انضمت عام 1866 إلى رهبنة الفرنسيسكان باسم الأخت ماري فرنسواز، ولكنها واصلت الكتابة من منزلها في باريس، حيث توفيت عام 1873 وكتب على لوحة قبرها: «الله وأطفالي». نالت رواياتها وقصصها شهرة عالمية لم تنقطع.

سيغور تروي قصة الصغيرة صوفيا التي صارت الكونتيسة لاحقًا) كنا نغمس في وسط روسيا وعمقها. والعرس الذي تصفه رواية نزل الملاك الحامي ألم يكن يوحي لنا بتلك الولائم الفخمة الباذخة التي كان المضيف السوفياتي يدهش بها زواره الغربيين، أكثر من مجرد كونها وليمة نورماندية؟ ولا ننسى هنا أن الدعاية للنظام الستاليني تشعرك بأن هذا النظام لا ينتمي أبدًا إلى روسيا البورجوازية والمنحطة لعهد نيقولا الثاني، وإنما إلى روسيا العظيمة لزمن بطرس الأكبر.

الفصل السابع
الدينامية الأميركية

بعد أن صار الفرع الأكثر أهمية في العالم الأنكلوسكسوني غدا الشعب الأميركي أحد العناصر السائدة للعرق الأبيض. ومن جهة أخرى، فقد صار يعتبر أكثر فأكثر أنه أحد قادة هذا العالم، وخصوصًا الضامن والحامي لحضارتنا الغربية المهددة. وليس هذا مبعث دهشة لنا، لأن مساهمة هذا الشعب في تقدم الإنسانية منذ ثلاثة قرون، هي مساهمة بارزة معروفة: وإذا كانت الولايات المتحدة هي التعبير الأكثر أصالة عن العصر الميكانيكي، فإن الديمقراطية الحديثة لا تفهم ولا تحس لولا الشكل الذي اتخذته في الولايات المتحدة، في حين أن مقومات الحياة المادية ومستلزماتها في العالم يعاد صياغتها على مستوى أميركا.

كان نشوء هذه الحضارة الجديدة حقًا نتيجة عوامل عدة متداخلة متشابكة أولها العامل الجغرافي في قارة متميزة تختلف الطبيعة فيها كثيرًا عن أوروبا. ويلي ذلك العامل الإثني، فثمة الآن وحدة إنسانية جديدة تمخضت عن انصهار جميع الأعراق الأوروبية في المصهر الأميركي. وهناك أخيرًا حقيقة حديثة للغاية وهي أن الولايات المتحدة قد أضحت فجأة، ومن دون المرور بمرحلة انتقالية، قوة عالمية كبيرة. وهذا التفتح السريع لم يكتمل، بحيث إننا نشعر وكأننا نعيش مرحلة مخاض وتخلق لكائن جديد، هو في سيروة تغيّر كل عشر سنوات أمام ناظري المراقب الحصيف، فأميركا ليست بلد ما هو نهائي، ويجب على الدوام إعادة فحص وصفنا لها.

(1)

بوصفـي تلميـذًا نجيبًـا للسـيد دو لا باليـس[1] (M. de la Palisse) فإننـي أبـدأ بالتذكيـر بـأن الولايـات المتحـدة تقـع فـي العالـم الجديـد، وأن العالـم الجديـد هـو جديـد. فلـو أننـا لا نـرى الأمـور مـن خـلال هـذا الطابـع الأوروبـي القـاري الـذي يشـدد علـى أن أميـركا ليسـت أوروبـا، فإننـا سـنقع فـي سـوء فهـم مسـتمر.

إن أول مـا يبهـر أبصارنـا ويهـز مشـاعرنا فـي هـذه البـلاد، هـو عظمـة الطبيعـة التـي يبـدو أنهـا خُلقـت علـى غيـر منـوال طبيعتنـا. فشـلالات نياغـارا ونهـر الميسيسـيبي والسـهول الشاسـعة فـي الغـرب وسلاسـل الجبـال الصخريـة الممتـدة فـي الغـرب مـن ألاسـكا شـمالًا حتـى المكسـيك جنوبًـا، كلهـا مظاهـر جغرافيـة لا يمكـن أن نقارنهـا ببنيتنـا الأوروبيـة المعروفـة، بـل هـي تذكّرنـا أكثـر بتلـك القـارات الكثيفـة الأشـجار والمرتفعـات التـي هـي أفريقيـا وآسـيا، لا بـل وحتـى تلـك البـلاد الروسـية التـي أجـاد لـوك دورتـان وصفهـا فـي مـا سـبق. ويجـب علينـا أن نضـع دائمًـا فـي الحسـبان التناقـض بيـن أميـركا تلـك القـارة الضخمـة ككتلـة البنـاء الصلـب، وأوروبـا المتمفصلـة المترابطـة: فمـن جهـة قـارة ليـس فيهـا رؤوس أو خلجـان، لا يدخلهـا البحـر، فكأنهـا تشـبه علـى الخارطـة قطعـة مـن الأثـاث مربعـة الشـكل صلبـة النـوع (صـوان أو خزانـة الثيـاب المسـماة بالعاميـة كومودينـة)؛ ومـن الجهـة الأخـرى تمفصـل مترابـط متلاحـق بدقـة وخفـة، بحيـث يتسـلل المنـاخ البحـري إلـى قلـب القـارة ويقـذف بهـا فـي الوقـت نفسـه إلـى عمـق المحيـط بواسـطة رؤوسـها وخلجانهـا الجريئـة. وهنـا لا نعـود أمـام قطعـة أثـاث جامـدة (خزانـة مربعـة) بـل أمـام يـد دقيقـة ضامـرة مشـيقة.

---

(1) جاك الثاني دو شابان (Jacques II de Chabannes) الملقب بجاك دو لا باليس (Jacques de La Palice) (1470-1525) نبيل وعسكري فرنسي سيد قصور عديدة في فرنسا منها قصر لا باليس. خدم ماريشالًا تحت حكم 3 ملوك فرنسيين وشارك في كل حروب إيطاليا الفرنسية.

أعطى اسمه لعبارة صارت شائعة Lapalissade وهي تعني تفسير الماء بالماء، أو تحصيل الحاصل، أو تأكيد المؤكد، وسببها أنه عند شاهد قبره كتب: للأسف لو أنه لم يمت لكان الآن موضع حسد Hélas (s'il n'était pas mort/Il ferait encore envie).... وأدى خطأ في الكتابة إلى جعلها تُقرأ «للأسف لو أنه لم يمت لكان الآن حيًا» (Hélas s'il n'était pas mort/Il serait encore en vie).

مـن هنـا ينشـأ فـي أميـركا نـوع مـن العلاقـات الخاصـة بيـن الإنسـان والطبيعـة. والواقـع أن الإنسـان فـي أميـركا قـد أخضـع الطبيعـة فـي انتصـار عظيـم سـاحق. ولكننـا لا نسـتطيع أن نقـول إنـه قـد تكيـف معهـا. وبحسـب الإنسـان الأميركـي، فـإن قوانيـن الزمن والصيـرورة والنضـوج لـم تُجعـل أصلًا لـه، وبالتالـي فهـي لا تعنـي شـيئًا. وتفاخـر الولايات المتحـدة علنًـا بأنـه ليـس لديهـا فلاحـون، والحـق أنـه ليـس عندهـا لا فلاحيـن ولا حكمـة الفلاحيـن: وهـي لا تعـرف، بـل لا تريـد أن تعمـل حسـابًا للحـدود والعوائـق التـي يفرضهـا المنـاخ، وسـوء اسـتخدام الأراضـي، وهـي مقتنعـة بأنـه يمكـن تعنيـف الطبيعـة والتغلـب عليهـا وأن نجعلهـا تعطـي بالقـوة مـا لـم يكـن مـن الممكـن أن تعطيـه. والحـال أن هـذه الطبيعـة اسـتجابت حتـى الآن لهـذه الادعـاءات ومنحـت بسـخاء بـدأ اليـوم ينقـص. وعلـى الرغـم مـن بعـض الهـرم المبكـر، إلا أن مـا يصدمنـا كثيـرًا هـو ذلـك الشـباب فـي مـوارد تلـك القـارة التـي كانـت بالأمـس فحسـب بكـرًا لـم تسـتغل، مـا يجعلنـا نسـتعيد كلمـة لا برويير (La Bruyère): «إن شـباب الأميـر منبـع للثـروات العظيمـة». وإلـى جانـب ذلـك يدهشـنا كـم هنـاك مـن الأراضـي فـي متنـاول يـد الإنسـان. ويترتـب علـى ذلـك أن مفهومهـم بالنسـبة إلـى الأرض والسـيادة عليهـا يختلـف عـن مفهومنـا، وهـذا يـؤدي إلـى سياسـات مختلفـة إلـى الأراضـي بيـن الأميركييـن والأوروبييـن، بحيـث إن سـوء الفهـم بينهمـا يبقـى ثابتًـا. وهـذه الأراضـي لا أحـد يتقاتـل عليهـا أو حولهـا، ولا يـدور فـي خلـد أحـد أن يفعـل ذلـك، طالمـا أن هنـاك كثيـر منهـا علـى قـدر مـا نريـد: خـذ كنـدا أو خـذ المكسـيك أو خـذ أي مسـتعمرة أخـرى، وكلهـا تصـورات واضحـة فـي ذهننـا ولكنهـا لا تعنـي شـيئًا للأميركييـن، إذ هـم لا يملكـون معنـى السـيطرة علـى الأراضـي وضمهـا. وإذا «أخـذوا» منهـا، وهـم يفعلـون ذلـك مثـل غيرهـم، فـإن ذلـك لا يكـون علـى أسـاس ضـم مسـاحات مـن الأرض وتوسـيع الحـدود، بـل مـن خـلال السـيطرة والهيمنـة الاقتصاديـة والصناعيـة والتجاريـة، فالضـم الكامـل لا يهمهـم البتـة.

وتعطينـا ظـروف الإنتـاج فـي أميـركا التعـارض نفسـه مـع البـلاد الأوروبيـة. ففـي أميـركا - وهـي البلـد الـذي لا يـزال شـابًا مـن الناحيـة الاقتصاديـة - والـذي مـا انفكـت الطبيعـة فيـه طيعـة علـى سـهولتها فـي خدمـة الإنسـان هنـاك، مـن المفارقـة

أنـك تسـتطيع هنـا أن تبتكـر ثـروات جديـدة مـن أن تقتسـم فيهـا ثـروات موجـودة، وهـذا علـى عكـس مـا يجـري عندنـا، فـي أوروبـا المتعبـة، حيـث تقـل فيهـا الثـروات الطبيعيـة كثيـرًا عـن مثيلاتهـا فـي أميـركا، وبالتالـي حيـث أضحـت فيهـا المشـاركة فـي الثـروات أسـهل مـن إنتاجهـا. غيـر أن نتيجـة هـذا أنـه مـن حيـث أصبـح الأوروبـي ثوريًـا يطالـب بالمشـاركة فـي الإنتـاج، فـإن الأميركـي يبقـى محافظًـا سياسـيًا، ويضـع الإنتـاج أولًا. فالمقارنـة هنـا هـي بيـن قارتيـن، وقـد يكـون مـن الأفضـل أن نقـول: إنهـا بيـن جيليـن: جيـل الشـباب مـن جهـة، وجيـل النضـج والتكامـل - ولا نقـول الشـيخوخة، مـن جهـة ثانيـة.

تثيرنـا تلـك الخصـال التـي يديـن بهـا الأميركـي لعالمـه الجديـد الـذي يعيـش فيـه، وأكثـر مـا يثيـر فيهـا تفاؤلـه الخِلقـي الوراثـي والـذي لـم تتزعـزع أركانـه كثيـرًا باشـتراك الولايـات المتحـدة مؤخـرًا فـي مشـاكل العالـم القديـم. ولـكل أميركـي ثقـة فطريـة فـي المسـتقبل عمومًـا، وفـي مسـتقبله خصوصًـا، وفـي مسـتقبل بـلاده طبعًـا. أمـا فـي أوروبـا فقـد كان لدينـا الثقـة التامـة نفسـها فـي حظنـا فـي الحيـاة منـذ مئـة عـام تقريبًـا، أي فـي أواسـط ذلـك القـرن التاسـع عشـر الدينامـي، لكنـا فقدنـا هـذا الإيمـان، وقـد فقدنـاه بثمـن بخـس. وعندمـا كنـا نذهـب إلـى الولايـات المتحـدة - فـي الأقـل فـي سـنوات الازدهـار الكبيـر، إن لـم يكـن فـي أوقـات الأزمـات، 1925، 1945 (نعـم 1945 علـى الرغم مـن الحـرب، وربمـا بسـببها)، كنـا نجـد فيهـا ذلـك الجـو الملـيء بالنشـاط المتدفـق: مـا كان يعنـي إيمـان الإنسـان بأنـه يسـتطيع كل شـيء، ولا شـيء مسـتحيل علـى نشـاطه وإرادتـه. ذاك هـو كبريـاء الرائـد الـذي صنـع لبـلاده مكانـة كبـرى، وتلـك هـي أيضًـا حريـة الفكـر لـدى رجـل يثـق بـأن المسـتقبل ملكـه، ولا يشـعر بأنـه سـجين الماضـي.

وقـد تكـون أميـركا هـي بذاتهـا دائـرة دوارة. والحـال أن الجهـل ببعـض القوانيـن الطبيعيـة - مثـل مـا يختـص منهـا بتـأكل الأراضـي - يُجبـر الأميركـي علـى تصحيـح بعـض طرائقـه. وقـد يكـون بالإمـكان بـلا شـك، إجبـار الطبيعـة علـى أن تغيـر فـي وقـت مـن الأوقـات، حتـى مـن نمطهـا ووتيرتهـا. فهـل نسـتطيع أن نفعـل ذلـك فـي كل الأوقـات؟ إن النتيجـة النهائيـة لهـذا العمـل لا تـزال مجهولـة إلـى الآن: وكـي نسـتعير

عبــارة مــن عبــارات بــول فاليــري[2] (Paul Valéry)، فــإن فــي الأمــر «مغامــرة كبــرى». والمشــكلة التــي تثيرهــا هــذه المغامــرة هــي معرفــة إذا مــا كان فــي مقــدور الإنســان الانفــكاك عــن الطبيعــة.

يبـدو أن الشـروط الضروريـة كـي نفهـم هـذا البلـد فهمًـا جيـدًا، بوصفنـا أوروبييـن، دقيقــة للغايــة. فعلينــا أولًا أن نعتــرف لأنفســنا بــأن الأميركــي لا يقــف تطــوره عنــد حــد، وهــو تطــوّر مســتمر بوتيــرة ســريعة. والأميركــي لــم يحــدد نفســه، لا مــن الناحيــة العضويــة، لأن العــرق أو العنصــر مــا زال فــي أميــركا يتطــور ويتحــول، بانصهــار عناصــر عــدة فيــه، ولا مــن الناحيــة الجغرافيــة، إذ يبــدو أنــه لا يــزال يحتفــظ بميــل نحــو حيــاة البــدو الرحــل، وذلــك مــن أثــر الهجــرة؛ ولا مــن الناحيــة الاجتماعيــة فهــو متحــول غيــر مســتقر فــي أعمالــه واهتماماتــه. ويجــب أن نتعــرف أيضًــا بصــدق فــي حقيقــة القــارة الأميركيــة، ماديًــا، كــي نكتشــف أن مقاييســها لا تتشــابه مــع مقاييســنا، وأن مناخهــا غريــب (exotique) بالنســبة إلينــا، وأن ألوانهــا وعطورهــا وخطوطهــا تختلــف تمــام الاختــلاف عــن مثيلاتهــا عندنــا. كمــا يجــب أن نلاحــظ أن وتيــرة الحيــاة ســريعة جــدًا عنــد شــعب ذي مــزاج بطــيء، وهــذا مــا ينفــرد بــه الأميركــي عــن الشــعوب الأخــرى، كمــا أن طبعــه وحرارتــه الأخلاقيــة لا تســاوي مــا هــو عندنــا فــي أوروبــا، بــل هــي ليســت أصــلًا موجــودة.

(2) بول فاليري (1871-1945) (Ambroise Paul Toussaint Jules Valéry) كاتب وشاعر وفيلسوف فرنسي. بدأ شعره ضمن التيار الرموزي (mouvance symboliste) ثم تعرف إلى أندريه جيد (André Gide) ودخل معه في حلقة ستيفان مالارميه (Stéphane Mallarmé) الذي ظل فاليري وفيًا له حتى وفاته. تعرض في مدينة جنوى لما وصفه أزمة وجودية خطيرة وقرر ترك الأصنام في الأدب والحب... إلخ. كي يكرس جل حياته لما سماه «حياة الروح». انتقل عام 1894 للإقامة في باريس، حيث بدأ يعمل محررًا في وزارة الحربية حيث ارتبط مه بول ليوتو (Paul Léautaud). وظل بعيدًا من الكتابة الشعرية ليتفرغ لمعرفة ذاته والعالم. لكنه عاد عام 1917 إلى الشعر بتأثير من أندريه جيد وأصدر دواوين شعر عدة حتى تحول بعد الحرب إلى ما يشبه «الشاعر الرسمي» وتتالت عليه التقديرات ومدائح التبجيل. دخل الأكاديمية الفرنسية وصار رئيسًا لنادي القلم الفرنسي وعضوًا في مجلس المتاحف الوطنية ومديرًا للمركز الجامعي المتوسطي في نيس وفي غيرها من المناصب والمراكز... كما أنه نال العديد من أوسمة الاستحقاق والشرف. رفض التعاون مع الاحتلال الألماني وكلفه ذلك فقدان مناصبه، ولكنه شارك في تأسيس جبهة المقاومة الوطنية وتوفي في تموز/يوليو 1945 قبل أسابيع على انتهاء الحرب. أصر الجنرال ديغول على إقامة مراسم تشييع وطنية له.

لأن تعبـر المحيـط الأطلسـي يعنـي أن تتغـرب، لا عـن الوطـن فحسـب، بـل عـن القـارة كلهـا. وحيـن نتحـدث عـن هـذا العالـم الجديـد يجـب أن نتـرك تعبيراتنـا الخاصـة جانبًـا؛ لأن كلماتنـا تلبـس معنـى آخـر فـي هـذه البـلاد، يتسـبب عنـه سـوء فهـم دائـم فـي حـال أردنـا اسـتخدام هـذه الكلمـات. فـي روسـيا تشـعر بأنـك لـم تعـد فـي الغـرب ولكنـك فـي الأقـل مـا زلـت فـي أوروبـا. أمـا هنـا فـي أميـركا، فنحـن مـا زلنـا فـي الغـرب طبعًـا، ولكننـا لـم نعـد فـي أوروبـا، وهـذا مـا يجـب ألا يغيـب أبـدًا عـن تفكيرنـا.

(2)

مـن الحـوادث المهمـة فـي تاريـخ الولايـات المتحـدة، اسـتيطان أعـداد كبـرى مـن المهاجريـن القادميـن مـن أوروبـا فـي هـذه البـلاد. هـذه الحركـة البشـرية الكثيفـة كانـت أكثـر أهميـة عدديًـا بمـا لا يقـاس، مـن غـزوات البرابـرة فـي القـرن الخامـس الميـلادي. فهـلا نـدرك أن أربعيـن مليونًـا مـن الأوروبييـن تركـوا العالـم القديـم إلـى الولايـات المتحـدة فـي مـا بيـن عامـي 1815 و1914، مـن بينهـم مـا يزيـد علـى الثلاثيـن مليونًـا قصـدوا أميـركا الشـمالية مباشـرة؟ والنتيجـة الأهـم لهـذا الانتقـال الإثنـي الضخـم، ليـس أقـل مـن ولادة فـرع جديـد للعـرق الأبيـض فـي قـارة أخـرى. صحيـح أن العناصـر كانـت موجـودة وقديمـة إلا أن الازدراع أنبـت شـعبًا جديـدًا، تـكاد عمليـة الاندمـاج تجعـل مـن الصعـب التعـرف إلـى ملامحـه. وعلينـا أن نضيـف هنـا أن هـذه الهجـرات حملـت مـع العـرق الأبيـض أعراقًـا شـتى مـن السـود والصفـر، مـع اسـتمرار وجـود شـعب هنـدي قبـل هـؤلاء وأولئـك. ومـن هنـا فقـد كثـرت فـي أميـركا المشـكلات الدخيلـة المتعلقـة بتكيّـف هـذه العناصـر الأجنبيـة وتواصلهـا مـع بعضهـا بعضًـا، ومثـل هـذه المشـكلات لا نظيـر لهـا فـي أوروبـا وإن كان لهـا نظيـر ربمـا فـي مسـتعمراتها.

ويمكننـا أن نتبيـن فـي هـذا الشـعب المتولـد كلـه مـن الازدراع، ثـلاث موجـات رئيسـة مـن الهجـرة. فالموجـة الأولـى التـي حصلـت فـي القرنيـن السـابع عشـر والثامـن عشـر تطابقـت مـع اسـتعمار، إنكليـزي وبروتسـتانتي، ومنهـا انبثقـت

طائفـة البيوريتانييـن[3] (الطهرانييـن) فـي إنكلتـرا الجديـدة (نيـو إنغلانـد) وطائفـة الكوايكـرز[4] الموجـودة فـي فيلادلفيـا، وعلـى مسـتوى مختلـف تمامًـا المزارعـون فـي الجنـوب، وهـم طبقـة أرسـتقراطية وأنغليكانيـة (الكنيسـة الإنكليزيـة الرسـمية) كانـت مـن ملاكـي العبيـد. وبذلـك كان قـوام المجتمـع الأميركـي يتشـكل مـن هـذه العناصـر الأوليـة، إضافـة إلـى بعـض العناصـر الهولنديـة والألمانيـة التـي لا تغيّـر كثيـرًا فـي هـذا التركيـب. هـذا التشـكيل الأول للمجتمـع ظـل هـو الحاسـم، ومـن دون أن ننسـى أن هـؤلاء الأجـداد لـم يكونـوا رجـال صناعـة، ولكنهـم جلبـوا معهـم جميـع الصفـات الفرديـة مـن نشـاط وزهـد كان تميّـز بهـا الـرواد الأوائـل.

تبتـدأ المرحلـة الثانيـة فـي القـرن التاسـع عشـر مـن بدايـة عـام 1815، ولكـن خصوصًـا فـي الفتـرة مـا بيـن عامـي 1840 و1880، وقـد جلبـت إلـى الولايـات المتحـدة عشـرة ملاييـن مـن المهاجريـن تقريبًـا. وقـد هاجـر هـذا العـدد الضخـم مـن أوروبـا هربًـا مـن المجاعـات والثـورات والاضطهـادات التـي حلـت بالبـلاد فـي تلـك الفتـرة. وقـد رحـل هـؤلاء عـن بلادهـم وهـم مقتنعـون اقتناعًـا تامًـا بأنهـم سـيجدون فـي هـذا العالـم الجديـد حيـاة جديـدة تحقـق لهـم الحريـة: حريـة السـلوك

(3) البيوريتانيون أو الطهرانيون (Puritans) هم جماعة من البروتستانت الإنكليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر تنتمي إلى عقيدة كالفن، ولكن تضم أتباعًا من عقائد أخرى، تشكلوا بعد وصول الملكة إليزابيث الأولى إلى العرش البريطاني عام 1558 حركة نشطة من داخل الكنيسة تدعو إلى الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي معتبرين أن كنيسة إنكلترا صارت خاضعة لحكم البشر وأهوائهم وصراعاتهم... وهم واحدة من الجماعات التي قررت أن الكنيسة لم تعد قابلة للإصلاح فانشقوا وتعرضوا لاضطهادات كبيرة من الملك والكنيسة ما اضطرهم إلى الهرب إلى أميركا، حيث أسسوا مجتمعات عدة أولها وأشهرها في نيو إنغلاند.

(4) الكوايكرز (Quakers) هم أعضاء جمعية الأصدقاء الدينية (Religious Society of Friends) التي نشأت في إنكلترا منتصف القرن السابع عشر (بعد الحرب الأهلية (1642-1651)) من انشقاق جماعات وأفراد عدة من البروتستانت الإنكليز عن كنيسة إنكلترا الرسمية وأبرزهم وقائدهم الأول هو جورج فوكس (George Fox) وتميزوا بالتبشير بالإنجيل (وبين المبشرين نساء شهيرات) وبرفض الخدمة في الجيش وبلباسهم التقليدي القديم وبتشديدهم على الترجمة الشخصية مع المسيح وعلى أن كل المؤمنين والمؤمنات يمكنهم أن يكونوا رجال دين (قساوسة) واضطروا أيضًا إلى الهجرة إلى أميركا (منذ عام 1662) بعد موجة اضطهاد لهم وتعذيب رهيب تعرضت له نساء مبشرات منهم، وتركزوا خصوصًا في الشمال الشرقي للولايات المتحدة، منذ عام 1680، خصوصًا في رود آيلاند، كما أسسوا ولاية بنسلفانيا على اسم أحد روادهم وليام بن (William Penn) الذي كان أول من وقّع معاهدة صلح وتعايش مع الهنود الحمر في المنطقة.

وحريـة العمـل وحريـة المعتقـدات السياسـية. وقـد كان أغلـب المهاجريـن فـي هـذه الفتـرة مـن الإنكليـز والاسـكتلنديين، ثـم تبعهـم بعـد ذلـك سـيل كبيـر مـن الألمـان والأيرلنديـين والاسـكندنافيين واليهـود. وبذلـك اتجهـت الولايـات المتحـدة إلـى التخلـص مـن طابعهـا الإنكليـزي الأصلـي، مـع بقائهـا ذات لـون أنكلوسكسـوني بشـكل رئيـس. وهـي بـدأت تتخـذ لنفسـها طابعًـا مـن الجديـة الألمانيـة يحمـل الـذوق الجرمانـي للنظـام والإدارة والتنظيـم. وقـد ظهـر مـن هـذه العناصـر المهاجـرة جميعهـا عنصـران بـدآ العمـل بمجـرد أن وطـأت أقدامهمـا أرض البـلاد: الأيرلنديـون وقـد اسـتولوا علـى إدارة البلديـات فـي المـدن الكبـرى، وهـم كاثوليـك، وقـد طبعـوا أهالـي المـدن التـي اسـتقروا فيهـا بطابـع غريـب سـاحر هـو مـن روح الكلتييـن مـع مـا فيـه مـن ذوق ظريـف وحـب للفانتازيـا والمـرح والفوضـى، والتـي مـن دونهـا تصيـر حيـاة البيوريتانييـن مملـة لا تطـاق. أمـا العنصـر الثانـي وهـو اليهـود، فقـد جلبـوا معهـم القلـق والتطفـل وبحثهـم المضطـرب عـن المـال وعـن الأفـكار، والتغيـر الترحالـي فـي نمـط حياتهـم والمولّـد للبلبلـة وتعكيـر صفـو الحيـاة. وقـد خلـق تأثيـر هذيـن العنصريـن مـن الولايـات المتحـدة، بلـدًا أقـل حصريـة بروتسـتانتية، كمـا خلـق تأثيـر العنصـر الألمانـي فيهـا بلـدًا أقـل حصريـة إنكليزيـة. إنهـا إذًا أميـركا جديـدة ترتسـم أمامنـا مختلفـة إلـى حـد كبيـر مـن الأولـى، وشـديدة الاختـلاف عـن التـي سـتليها كمـا سـنرى لاحقًـا. والحـال أن عبـارة بـول بورجيـه[5] (Paul Bourget) «مـا وراء البحـار» (l'Outre-Mer)، وكذلـك عبـارة أبـل هرمـان (Abel Hermant) «عابـرات المحيـط الأطلسـي» (les Transatlantiques) ترتبطـان تمامًـا بهـذه المرحلـة مـن تاريـخ الولايـات المتحـدة.

وتبـدأ المرحلـة الثالثـة مـن عـام 1882 وتسـتمر حتـى عـام 1914، وهـي مرحلـة أهـم بكثيـر مـن المرحلـة الثانيـة، حملـت معهـا هجـرة «22» مليونًـا مـن الأنفـس يمثلـون

---

(5) بول بورجيه (1852-1935) (Paul Bourget) كاتب كاثوليكي فرنسي أطلق ردة الفعل ضد تيار الطبيعية في الأدب (وهو التيار الذي عمل على إدخال مناهج وطرائق العلوم الاجتماعية والإنسانية إلى الأدب وقد كان رائده إميل زولا). تميز بدقة دراساته للأخلاق والطباع والأمزجة ما لاقى استحسانًا في الأوساط العالمة الباريسية أيام الجمهورية الثالثة، خصوصًا رواياته التي داعبت خيال الشبيبة الباحثة عن حلم الحداثة. ثم انتقل إلى الرواية التي تدور حول فكرة أو قضية ليفسر ويشرح أسباب القيم والأخلاق فكتب روايات ذات طابع سيكولوجي، وذلك بتأثير من تحوله الديني نحو ممارسة الكاثوليكية وحاول إقامة توليف بين العلم والإيمان. واتخذ مواقف سياسية مع الملكية وضد درايفوس.

عنصرًا آخر غير العنصر الأنكلوسكسوني ألا وهو العنصر الصقلبي (السلافي) - اللاتيني. وبذلك فقد صارت عناصر البحر المتوسط وأوروبا الشرقية تمثل 77 في المئة من مجموع سكان الولايات المتحدة. وهؤلاء يختلفون عمن سبقهم من المهاجرين في أهداف هجرتهم، إذ هي الأجور المرتفعة والرغبة في التخلص من مستوى حياة متدن في مناطق من العالم القديم أقل تطورًا. ويجب أن نضيف إلى ذلك أن الأمر بات نوعًا من هجرة منظمة إلى أميركا من طريق شركات الملاحة أو جمعيات للهجرة، ومن هنا ما لحظناه من طابع مطاوع لدى هؤلاء المهاجرين الجدد. فهم قوم فقراء يدين معظمهم بالكاثوليكية، وقد تكدسوا في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى، وكانوا بطيئين في اندماجهم بمحيطهم. وبذلك فقد تزود السكان الأميركيون القديمون بعناصر مختلفة في العرق والطباع من دون أن يعني ذلك تخليهم عن طابعهم الخاص.

من هنا طُرحت مشكلة على جانب عظيم من الأهمية كانت أميركا عرفتها سابقًا، إلا أنها باتت أكثر حدة، وهي تتعلق بكيفية استيعاب ودمج كل هؤلاء المهاجرين الذين دخلوا بجرعات كبيرة في الجسم الأميركي. سيستلزم الأمر مرور 3 أجيال كي تتم هذه العملية. فالمهاجر الأول يظل طوال حياته ينتمي إلى بلده الأصلي: وهو يمكنه بالطبع أن يتعلم اللغة الإنكليزية، على الرغم من أن هذا لا ينطبق على الجميع على كل حال، إلا أنه سيظل ينطقها بلهجة خاصة به. وهو يمكنه بالطبع أن يلبس على الطريقة الأميركية وأن يحاول العيش على الطريقة الأميركية، إلا أننا سرعان ما سنلحظ أنه ليس أميركيًا منهم. أما أبناؤه فهم يختلفون عنه: فقد درسوا في المدرسة الرسمية ولم يعرفوا غير الإنكليزية كلغة، وصاروا مستوعبين بهذا الوسط الأميركي إلى ما يزيد عن النصف، ولا يأتي في بالهم إلا نادرًا أن يفاخروا بأصلهم القديم، إن كانوا يعرفونه. لا بل إننا نرى منهم من صاروا يحتقرون أهلهم ويجددون تجاههم نكران القديس بطرس[6]. أما الجيل الثالث فهو جيل مندمج تمامًا، فلم يعد هناك أي ذكرى لأصولهم الأوروبية، وأسماؤهم صارت إنكليزية، وكثيرون منهم تحولوا من الكاثوليكية واليهودية فصاروا ميثوديين أو أنغليكان. وإذا كان هذا النمط

(6) المقصود نكرانه للسيد المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، بحسب ما جاء في إنجيل لوقا: «في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات» (لوقا 28/11).

الثالـث لـم يسـتطع أن يكـون أنكلوسكسـونيًا مـن الناحيـة الجسـمانية الخالصـة، فـإن هيئتـه وشـخصيته قـد صـارت أميركيـة قلبًـا وقالبًـا. وإن كان بقـي فـي العمـق بعـض المخلفـات التـي لـم ينجـح الصهـر فـي إنهائهـا، فـإن الأمـر لا يعـدو كونـه مجـرد ظـلال مـن الفـروق لا تلحظهـا إلا العيـن الفاحصـة المدققـة.

هـل نسـتطيع ضمـن هـذه الظـروف أن نقـول إنـه تيسـر لأميـركا أن تسـتوعب الهجـرات فـي بوتقتهـا وقالبهـا؟ وإلـى أي حـد اسـتطاعت أن تجعـل مـن المهاجريـن الإيطالييـن والـروس والبلقانييـن والألمـان أميركييـن فعـلًا؟ وإذا كنـا فـي هذا المقـام نقصد السـلوك فـي حـد ذاتـه - فقـد نجحـت أميـركا حتمًـا فـي ذلـك: فهنـاك طريقـة أميركيـة خاصـة فـي الـكلام والإحسـاس والفعـل والمناقشـة والموقـف، وكل هـذه الصفـات نجدهـا عنـد الجيـل الثالـث، كمـا نراهـا تمامًـا عنـد مـن ينحـدر مئـة فـي المئـة مـن موجـات مؤسسـي البـلاد. وعلـى الرغـم مـن هـذا، فـإن وزن العناصـر الغريبـة كبيـر خصوصًـا فـي المـدن الكبـرى التـي تقـع علـى المحيـط الأطلسـي، وهـذه المـدن هـي رصيـف الرسـو للجسـم الكبيـر مـن الهجـرات. فـي نيويـورك مثـلًا لا نشـعر بأننـا أمـام شـعب متجانـس منصهـر: ففـي «بـرودواي» فـي الجـادة الخامسـة، نشـاهد خليطًـا مـن النـاس منهـم الأبيـض والأسـود والأصفـر وبعـض الأجانـب الذيـن لا نسـتطيع أن نميّزهـم مـن مجـرد لونهـم. وإذا أدخلنـا فـي اعتبارنـا كذلـك «لافتـات» المحـلات التجاريـة، فـإن اللافتـات ذات الأصـول الإيطاليـة والنمسـاوية والبلقانيـة والروسـية لا تعـد ولا تحصـى، وبالمقارنـة فـإن الأسـماء الألمانيـة التـي نجدهـا فـي كل مـكان تـكاد تكـون شـبة وطنيـة. وتعطينـا مـدن بوسـطن وفيلادلفيـا وبلتيمـور وشـيكاغو وسـان فرنسيسـكو الصـورة نفسـها التـي يرسـمها لنـا الشـارع النيويوركـي. ولكـن هـذه الكوزموبوليتيـة التـي تعتبـر محطـة ومرحلـة لـكل وافـد، لا تمثـل بـأي حـال مـن الأحـوال أميـركا جميعهـا، ولا حتـى محورهـا الإثنـي. فهـذا المحـور يبقـى أنكلوسكسـونيًا، ولكـن إذا كانـت هنـاك أغلبيـة مـن الأنكلوسكسـونيين، فإنهـا قـد أصبحـت هزيلـة. وحيـن نتأمـل جمهـورًا أو جمعًـا مـن الأميركييـن فإننـا لا بـد وأن نلاحـظ أنهـم متغايريـن متنافريـن مـن الناحيـة الفيزيقيـة الجسـمانية إلـى حـد غريـب، فثمـة فيهـم الشـقر والسـمر والكسـتنائيو اللـون، وثمـة فيهـم العيـون الـزرق والعيـون السـود، وثمـة فيهـم أصحـاب البشـرة البيضـاء والبشـرة السـوداء، وثمـة فيهم قوم

مسـتطيلو الوجـه وقـوم صغـار الـرأس، وثمـة فيهـم قـوم فارعـو القامـة وقـوم قصـار القامـة. وملخـص القـول إننـا لا نسـتطيع أن نقـول بوجـود عـرق أميركـي، فهـل يوجـد فـي الأقـل شـعب أميركـي؟!

(3)

لنطـرح المسـألة علـى هـذا الشـكل: هـل نسـتطيع أن نقـول إنـه يوجـد شـعب أميركـي كمـا يوجـد شـعب فرنسـي وإنكليـزي وألمانـي؟ وبعبـارة أخـرى هـل يمكـن تعريـف سـيكولوجية أميركيـة؟

لقـد اسـتعرضنا حتـى الآن عناصـر مختلفـة ومتغايـرة بشـكل فريـد. والسـؤال هـو: هـل تسـتطيع هـذه العناصـر الممتزجـة داخـل بوتقـة الصهـر (melting pot)، أن تخلـق شـخصية أميركيـة خالصـة؟ كان الدمـج والاسـتيعاب بالنسـبة إلـى المهاجـر الأول يتمثـل فـي تحويلـه مـن بيوريتانـي إلـى أنكلوسكسـوني. ولقـد صـوّر الكاتـب الإنكليـزي الروائـي إسـرائيل زانغويـل[7] (Israel Zangwill) هـذه العمليـة بعقـل أكثـر انفتاحًـا ومحمـلًا بشـحنة صوفيـة: «إن أميـركا بوتقـة الأعـراق وهـي البوتقـة الكبيـرة لجميـع أعـراق أوروبـا. وفـي هـذه البوتقـة تنصهـر الأعـراق وتتبلـور. أمـا الأميركـي الخالـص؛ فلـم يخلـق إلـى الآن». فهـل خلـق حقًـا؟ وإذا كان كذلـك فهـل خلـق بحسـب المفهـوم الضيـق لقوميـة بروتسـتانتية أم بحسـب المفهـوم الأوسـع للمثالـي

(7) إسرائيل زانغويل (1864-1926) (Israel Zangwill) من أسرة يهودية روسية مهاجرة، كاتب بريطاني وروائي ومسرحي وصحافي وأحد منظّري الصهيونة وعضو في المنظمة الصهيونية العالمية التي تركها عام 1905 ليؤسس «المنظمة اليهودية الإقليمية» التي عملت على إقامة دولة لليهود خارج فلسطين. أسس صحيفة ساخرة Ariel ونشر روايات عدة تعد من أوائل الروايات البوليسية، وكذلك عددًا من الروايات اليهودية الساخرة، خصوصًا كتابه أطفال الغيتو الذي منحه شهرة عالمية وأطلق عليه لأول مرة عنوانه الأكثر مبيعًا (best-seller). سمي زانغويل «تشارلز ديكنز اليهودي». كان من أوائل المناضلين من أجل «وطن قومي يهودي»، وقصده هرتزل في لندن للتشاور طالبًا منه المساعدة «على تأسيس دولة يهودية». ولكن الخلافات بين التيارين تفاقمت ما بين المؤتمر الصهيوني الأول في بال 1897 والمؤتمر السابع 1905، حيث تعارضت الفكرة الصهيونية مع فكرة الإقليمية، حيث إن زانغويل رفض موقف اختيار فلسطين لتكون هي الوطن القومي. ومع انتصار صهيونية هرتزل (وعد بلفور 1917) انسحب زانغويل من السياسة وتفرّغ لقضية «تحرير المرأة».

اليهـودي؟ وطـرح هـذا السـؤال يتـم فعليًـا علـى قاعـدة مختلفـة عـن نهايـة القرن التاسـع عشـر، لأنـه منـذ نهايـة ذلـك القـرن، حـدث تحـول تـام فـي المجتمـع الأميركـي لا ينطـوي علـى تشـكيل هـذا الشـعب وطبيعتـه فحسـب، بـل علـى الظـروف الاقتصاديـة والتقنيـة التـي يعيـش فيهـا كذلـك. إن الثـورة الصناعيـة الميكانيكيـة التـي ولـدت مـن الآلـة البخاريـة لـم تطـور كل آثارهـا ونتائجهـا إلا منـذ حوالـى الخمسـين عامًـا، ولـم تظهـر هـذه النتائج بشـكلها الأكثـر عمقًـا والأكثـر ثوريـة إلا فـي الولايـات المتحـدة، وقـد كانـت محطـة التحـول هـي الحـرب العالميـة الأولـى.

مـن الغريـب أن الشـعب الأميركـي كان أكثـر تقدمًـا فـي تكوّنـه فـي أواخـر القـرن الماضـي ممـا هـو عليـه اليـوم. وقـد أتيـح لـي إجـراء المقارنـة وتكـوّن لـدي انطبـاع حاسـم بعـد 1918 بأنـه حصـل تكـرار أو اسـتعادة لشـيء مـا، فلـم يكـن الأمـر مجـرد تطـور، وإنمـا ولادة لحضـارة جديـدة، لـم تخـرج مـن الحضـارة القديمـة بـل مـن مـكان آخـر. ولذلـك، فإنـه ينبغـي أن ننظـر إلـى الولايـات المتحـدة الحاليـة مـن هـذه الزاويـة، إذا كنـا نهتـم بـأن نفهمهـا.

حيـن تدفقـت الموجـة الثالثـة مـن المهاجريـن، موجـة الصقالبـة اللاتينييـن، علـى شـمال أميـركا، تطـورت فيهـا حضـارة مبتكـرة ذات محتـد، وفـق المبـادئ الحضاريـة للقرنيـن السـابع عشـر والثامـن عشـر، وفـي ظـل شـروط وأهـداف حضـارة القـرن التاسـع عشـر. وإذا كان الأسـاس الأصلـي لحضـارة هـذه البـلاد إنكليزيًـا، فـإن الإضافـات الألمانيـة والأيرلنديـة واليهوديـة، قـد وضعـت عليـه طابعهـا الخـاص. وفـوق العمـق البروتسـتانتي أضيـف عنصـر الكاثوليكيـة. ونحـن نتذكـر إلـى اليـوم (ولكنهـا مجـرد ذكرى فحسـب) بعض مـن الأنمـاط التـي صـارت اليـوم خرافيـة، والتـي تمثـل تلـك المرحلـة خيـر تمثيـل. فمـن شـخصية «العـم سـام» ذاتـه، وقـد جعلهـا الكاريكاتـور شـعبية، بلحيتـه الصغيـرة البيضـاء، وسـرواله المقلّـم بخطـوط عاموديـة، وسـترته الزرقـاء المزركشـة بالنجـوم... إلـى شـخصية «عـم مـن أميـركا» الـذي رحـل عـن بـلاده وفـي جيبـه أربعـون فلسًـا تـاركًا وراءه ثـروة لا تقـدر لوارثيـه... إلـى شـخصية رجـل الأعمـال الكبيـر، ذاك القرصـان نوعًـا مـا والـذي كان يرمـي سـكك الحديـد والمناجـم، وهـو المضـارب عديـم الذمـة، المتنقـل مـا بيـن خيـارات

مجروحـة وإفلاسـات خطيـرة ونجاحـات عظيمـة. ولا ننسـى أولئـك الأيرلندييـن «الطيبيـن» والذيـن لا يـزال هنـاك منهـم بضـع نمـاذج، كمـا لا ننسـى «العائـلات الأربعمئـة» فـي الجـادة الخامسـة ونيوبـورت، وأمامهـا ليسـت عائلاتنـا «المئتيـن» سـوى نسـخة متواضعـة منهـا. أمـا أرسـتقراطي نيـو إنغلنـد (إنكلتـرا الجديـدة)، مـن نـوع هنـري آدامـز[8]، فهـو عينـة مـن الإنكليـزي الأميركـي المتعلـم، والثـري وراثـة عـن عائلتـه، والـذي يعيـش حيـاة هانئـة، هـي مترفـة بالنسـبة إلينـا، لرجـل لـم يضطـر يومًـا إلـى القلـق حيـال تحصيـل المـال. وهنـاك «الأميركيـة الجميلـة» لسـنوات الـ 1900، والمختلفـة جـدًا عـن أميركيـات اليـوم الجميـلات دومًـا، وهـي كانت أكبـر بكثير منهـن، وأكثـر أهميـة، وأكثـر إربـاكًا وإزعاجًـا مـع قبعاتهـا الضخمـة طـراز ذلـك العصـر، وكانـت مـا فتئـت تذكّرنـا بالممثـلات ذوات الشـخصية المبدعـة لتلـك الأيـام. والأنمـاط البشـرية الإنكليزيـة والأيرلنديـة والهولنديـة كانـت أكثـر عاديـة وتكـرارًا. وباسـتثناء الجنـوب، فـإن الزنـوج كانـوا أقـل ظهـورًا كمـا كان هنـاك عـدد أقـل مـن المتوسـطيين والبلقانييـن والخلاسـيين علـى اختـلاف أصنافهـم. وكان يبـدو كأن تلـك كانـت عنصـرًا آخـر مـن الناحيـة الجسـمانية عمـا هـي عليـه اليـوم. وبالفعـل فهـي كانـت عنصـرًا آخـر مـن الناحيـة الجسـمانية.

وهـي كانـت أيضًـا مفهومًـا آخـر للحيـاة قائمًـا علـى المبـادأة الفرديـة مـن دون تدخـل الدولـة إلا فـي حالـة وقـوع جريمـة أو سـرقة خيـول. وكان ينتـج عـن ذلـك اضطـراب خـاص يرتبـط بعمليـات مضاربـة تجاريـة ليـس لهـا مـن حـدود، كمـا يتعلـق بسـيادة روح المغامـرات، متضمنـة حـدودًا كانـت مفتوحـة مـن غيـر قيـد أو شـرط نحـو الغـرب، تاركـة كل هـذه الخيـارات والإمكانـات لمـن يريـد أن يقيـم حياتـه هنـا.

---

(8) هنري آدامز (1838-1918) (Henry Brooks Adams) مؤرخ أميركي ومن عائلة آدامز السياسية التي منها رئيسان. بعد تخرجه من جامعة هارفرد عمل سكرتيرًا لوالده تشارلز فرنسيس آدامز سفير الرئيس لينكولن في لندن، الأمر الذي ترك فيه تأثيرًا لجهة تجربته في دبلوماسية الحرب وتشربه بالثقافة الإنكليزية. بعد الحرب الأهلية الأميركية صار صحافيًا وسياسيًا مرموقًا يجتمع نخبة المثقفين في منزله في واشنطن أو بوسطن. اشتهر في حياته بكتابه عن تاريخ الولايات المتحدة خلال إدارة الرئيس توماس جفرسون (9 مجلدات). ولكن شهرته الأكبر جاءت بعد وفاته بفضل كتابه تربية هنري آدامز (The Education of Henry Adams) الذي حاز جائزة بوليتزر بعد وفاته. الكتاب يسجل صراع ابن بوسطن (هنري نفسه) في أواخر أيامه مع فجر ذلك القرن الجديد (القرن العشرين)، وفيه نقد حاد للأساليب التربوية والتعليمية للقرن التاسع عشر.

وكان يقـال للشـاب الـذي نفـذ صبره مـن القيـود الاجتماعيـة: «اذهـب إلـى الغـرب أيها الرجـل الشـاب» (Go West Young man). فالرجـل الأميركـي فـي ذلـك العصـر كان عنـده تـذوق لـكل شـيء فيـه جِـدة وغرابـة، أمـا اليـوم فقـد صـار ذلـك مكروهًـا. والإنكليـزي الـذي يصفـه جـول فيـرن هـو دائمًـا رجـل ذو شـخصية حيويـة وصلبـة بامتيـاز، أمـا الأميركـي عنـده فهـو غرائبـي، مغامـر مقامـر، مبـدع، مجنـون نوعًـا مـا!

هـذه الحضـارة كانـت تعبّـر عـن نفسـها، قبـل أن تغطيهـا مخرطـة التنميـط، فـي سلسـلة مـن الثقافـات المحليـة الخاصـة، محـددة جغرافيًـا، أتيح لـي شـخصيًا التعـرف إليها: بوسـطن وإنكلتـرا الجديـدة تقـوم حضارتهـا علـى عوامـل فكريـة وبيوريتانيـة دينيـة، كمـا ترتكـز حضـارة بلتيمـور ونيـو أورليانـز علـى الصفـاء الذهنـي الحسـاس علـى الرغـم ممـا علـق بـه مـن بعـض الشـوائب بسـبب تأثيـر النزعـة الجنوبيـة لمـا قبـل حـرب الانفصـال[9]. أمـا فيلادلفيـا فتقـوم حضارتهـا علـى الكوايكـرز وتـراث آبـاء الدسـتور. وسـان فرنسيسـكو البلـدة اللاتينيـة، متأثـرة كثيـرًا بفرنسـا والبحـر الأبيـض المتوسـط.

كل واحـدة مـن هـذه الثقافـات يتناسـب معهـا مطبـخ خـاص: مطبـخ بلتيمـور يعـج بحسـاء الضفـادع، والجانبـون امتيـاز مطبـخ فرجينيـا الأكثـر أصالـة والأكثـر قوميـة خالصـة، أمـا مطبـخ لويزيانـا فهـو مزيـج مولَّـد، ومطبـخ سـان فرنسيسـكو إيطالـي فرنسـي يسـتمر عنـد مطعـم جـول (Jules) ومطعـم (Poodle dog). وكذلـك الأدب فقـد كان أكثـر قوميـة، فكتّـاب مثـل مـارك تويـن[10] (Mark Twain) ووالتـر ويتمـان[11]

(9) الحرب التي بدأت في عام 1860 وانتهت في 1864 نتيجة إلغاء تجارة الرق وحاول فيها الجنوبيون الانفصال عن الشمال.

(10) مارك توين (1835-1910) (Mark Twain) واسمه الحقيقي «صمويل لانغهورن كليمنس» (Samuel Langhorne Clemens) هو كاتب أميركي ساخر عرف برواياته مغامرات هكلبيري فين (1884) التي وصفت بأنها «الرواية الأميركية العظيمة»، ومغامرات توم سوير (1876). وقد نقل عنه كثير من الأقوال المأثورة والساخرة، وكان صديقًا للعديد من الرؤساء والفنانين ورجال الصناعة وأفراد الأسر المالكة الأوروبية، ووصف بعد وفاته بأنه «أعظم الساخرين الأميركيين في عصره»، كما لقبه وليام فوكنر بأبي الأدب الأميركي.

(11) والتر ويتمان (1819-1892) (Walter «Walt» Whitman) شاعر أميركي وصحافي وكاتب مقالة اشتغل أيضًا مدرسًا وحاجبًا في المحكمة، وتطوع للتمريض خلال الحرب الأهلية الأميركية. وهو من أكثر الشعراء الأميركيين تأثيرًا وغالبًا ما يسمى بأبي الشعر الحر.

وإدغــار آلان بــو[12] (Edgar Poe) هــم أميركيــون أقحــاح. وكذلــك أدب (Whitman) إميرســون[13] (Emerson) ووليــام جيمــس[14] (William James) وثــورو[15] (Thoreau) والسـيدة أَلْكـوت[16] (Mrs Alcott)... ولكـن «أميركيـون مـن أميـركا» لـم تعـد موجـودة اليـوم. وأنـا أعتقـد أن هـؤلاء جميعًـا ينتمـون إلـى أصـل بريطانـي. ولـم ينقطـع الربـاط مـع النبـع الأوروبـي: نحـن نجـده فـي إنسـانية شـخص مثـل أبراهـام لنكولـن الشـديدة التجـذر فـي بلـده وقارتـه إلا أنهـا قريبـة منـا، وهـي لا تتطلـب منـا مجهـودًا يبـذل لفهمهـا.

---

(12) إدغار آلان بو (Edgar Allan Poe) (1849-1809) ناقد أدبي أميركي مؤلف، وشاعر، ومحرر، ويعتبر جزءًا من الحركة الرومنطيقية الأميركية. اشتهرت حكاياته بـ الأسرار وأنها مروعة، كان بو واحدًا من أقدم الممارسين الأميركيين في القصة القصيرة، ويعتبر عمومًا مخترع نوع من خيال التحري. وله مزيد من الفضل في المساهمة في هذا النوع من الخيال العلمي الناشئ. كان أول كاتب أميركي معروف يسعى في محاولة لكسب لقمة العيش من خلال الكتابة وحدها، مما أدى إلى حياة صعبة ماليًا ومهنيًا.

(13) رالف والدو إميرسون (1803-1882) (Ralph Waldo Emerson) كاتب ومحرر ومحاضر وشاعر أميركي قاد في منتصف القرن التاسع عشر حركة دينية فلسفية دعاها بالترانسندنتالية (مذهب التعالي) (Transcendentalist) وهي حركة قامت ضد ثقافوية جامعة هارفرد وقالت بأن الفرد طيب بطبعه، ولكن المجتمع ومؤسساته خصوصًا الكنيسة والأحزاب تفسد نقاوة وطهارة الفرد. وكان بطل الدفاع عن الفردانية وناقدًا ثاقبًا لضغوطات المجتمع على الفرد. نشر أفكاره عبر الكتابة والخطابة والمحاضرات العامة في أنحاء أميركا.

(14) وليام جيمس (1842-1910) (William James) فيلسوف وعالم نفساني أميركي كان أصلًا طبيبًا ممارسًا للمهنة، وهو أول من قام بتدريس علم النفس في أميركا ولعله أكثر الفلاسفة تأثيرًا في أميركا حتى سموه «أبو علم النفس الأميركي». وهو إلى جانب جون ديوي أبرز فلاسفة البراغماتية الأميركية ومن أوائل مؤسسي علم النفس الوظيفي، كما أنه طوّر في منهج المقاربة الإمبيريقية الراديكالية. وقد أثر في أعمال عدد من الكبار منهم إميل دوركهايم وإدموند هوسرل وبرتراند راسل ولودفيغ فتغنشتاين وريتشارد رورتي... إلخ.

(15) هنري ثورو (1817-1862) (Henry David Thoreau) كاتب وشاعر ومؤرخ وفيلسوف من دعاة إلغاء العبودية ومقاومة الضرائب والعودة إلى الطبيعة، وكان من كبار المنضمين إلى حركة الترنسندنتالية. وأشهر كتبه فالدن (Walden) الذي يحكي عن الحياة البسيطة في بيئة طبيعية. وله كتاب شهير حول المقاومة المدنية أو العصيان المدني (Resistance to Civil Government (also known as Civil Disobedience)) ويدعو فيه إلى مقاومة أي حكومة غير عادلة.

(16) هي لويزا ماي أَلْكوت (1832-1888) (Louisa May Alcott) روائية أميركية نشأت وترعرعت في عائلة تنتمي لتيار الترنسندنتالية فعرفت كبارهم أمثال ثورو وإميرسون. تعرضت عائلتها لأزمة مالية فاضطرت إلى العمل باكرًا، وفي الوقت نفسه تكتب القصص الصغيرة والروايات للشبان المراهقين. كانت من دعاة إلغاء العبودية والمطالبين بتحرير المرأة. أشهر ما كتبت نساء صغيرات (Little Women).

علـى أن مـا يجعـل أميـركا الأمـس لا تجـد نفسـها فـي أميـركا التـي جـاءت بعدهـا هــو أن الأخيــرة وبفضــل الموجــة الثالثــة مــن المهاجريــن، تخلصــت مــن طبيعتهــا الأنكلوسكسـونية. وبذلـك صـار بإمكاننـا أن نتصـور وجـود أميـركا بقيـت أميركيـة حقـة، وفـي الوقـت نفسـه لـم تعـد بشـكل حصـري ولا حتـى بشـكل رئيـس، أنكلوسكسـونية بروتسـتانتية صرفـة. فتغيّـر مركـز الجاذبيـة الجغرافيـة للأنكلوسكسـون أمـر لا يمكـن أن يمـر مـرور الكـرام للعيـن المدققـة: فـي الماضـي كان اسـمها إنكلتـرا الجديـدة وكانـت بوسـطن حاضنـة لتـراث ظـل إنكليزيًـا. أمـا اليـوم وبسـبب هجـرات كثيفـة، فـإن هـذا البلـد الـذي كان يعـد أشـبه مـا يكـون بجنيـف أخـرى فـي العالـم الجديـد، قـد أصبـح مدينـة كاثوليكيـة وأيرلنديـة. صحيـح أن العائـلات البروتسـتانتية الكبيـرة هـي التـي لا تزال تسـيطر فـي الحيـاة الاجتماعيـة وفـي شـؤون المـال، إلا أنـه وفـي مدينـة بوسـطن نفسـها فـإن الشـخصيتين الأكثـر أهميـة همـا المطـران الكاثوليكـي، والعمـدة الأيرلنـدي، فهـل يصـح لنـا القـول بـأن الـروح الأنكلوسكسـونية التـي كانـت تعبّـر عـن نفسـها فـي مجتمـع بوسـطن قـد انتهـى وجودهـا؟ كلا بالتأكيـد! إذ إنهـا هاجـرت نوعًـا مـا إلـى ولايـات وسـط البـلاد وغربهـا، إلـى كل تلـك المـدن الجديـدة التـي ولـدت هنـاك منـذ قـرن مـن الزمـن. وإذا عبرنـا مـا وراء جبـال الأليغانـي (Allegheny Mountain)، وحتـى إلـى مـا وراء شـيكاغو، فإننـا نلاحـظ مـن دون جهـد، فـي هـذه الأماكـن الجديـدة، أن النخبـة الموجهـة فيهـا، إمـا رجـال مـن المهاجريـن الجـدد، وإمـا ممـن كان آباؤهـم قـد أتـوا مـن الشـرق، أكان ذلـك مـن «ماساشوسـتس» أم مـن «فرجينيـا»: وهـؤلاء جلبـوا معهـم كل الصفـات التـي خلقـت عظمـة الولايـات المتحـدة منـذ القرنيـن الثامـن عشـر والتاسـع عشـر. وبفضـل هـؤلاء ومـن خلالهـم تسـتمر التقاليـد العريقـة تحـت سـماوات جديـدة.

إذًا، هنـاك خيـط موجِّـه يسـمح لنـا باكتشـاف تيـار الإلهـام نفسـه، مـن البدايـة إلـى يومنـا هـذا. ولكـن ينبغـي أن نلاحـظ أن العامليـن عليـه قـد تغيـروا، ومـن هنـا نـرى نمـطَ موجـه قائـد رجـل الغـرب الأوسـط، وهـو نمـط مطبـوع علـى الثقـة الكبيـرة بالنفـس والتغطـرس والكبريـاء إلـى حـد مـا، وهـو يتشـابه مـع الألمـان فـي الجديـة ومواهبـه التنظيميـة، وحبـه للنظـام. وقـد ظلـت نسـبة البريطانييـن والبيوريتانييـن الأقحاح (مئـة فـي المئـة) جـد مرتفعـة بيـن الرجـال المعدوديـن مـن الشـخصيات المهمـة ذات

الـوزن، كمـا يظهـر فـي تحليـل الشـخصيات التـي أحصاهـا مجلـد مـن هـو (Who is who)، ولكـن إلـى جانـب هـؤلاء يظهـر أيضًـا، وهـذا أمـر جديـد تمامًـا، بضـع أفـراد مـن أصـل يهـودي أو لاتينـي أو صقلبـي. وليـس أمـر الغرائبيـة مقتصـرًا علـى شـوارع نيويـورك فحسـب، فالأسـماء التـي تنتهـي بــ ski, vitch, ini, وscog... إلـخ، وقـد كانـت قديمًـا شبه غائبـة فـي المراكـز المهمـة صـارت اليـوم موجـودة غالبًـا فـي هـذه المراكـز خصوصًـا، حيـث يكـون للسياسـة دخـل فـي التعيينـات. علـى أن الأدب يعكـس لنـا صـورة واضحـة عـن هـذا التطفـل والتعـدي لبشـرية جديـدة بالكامـل موهوبـة كثيـرًا بـلا شـك، ولكنهـا لـم تعـد لتنحصـر فـي التيـار الواسـع نوعًـا مـا للتـراث الأدبـي البريطانـي والبروتسـتانتي: فأميـركا تعيـش اليـوم مرحلـة أدبيـة رفيعـة المسـتوى، ولكننـا لا نسـتطيع أن نقـول إن أسـلوبها ونبرتهـا قـد ظلـت أنكلوسكسـونية حصـرًا.

علـى الرغـم مـن أهميـة التحـوّل الناتـج عـن تغييـر فـي الأشـخاص، إلا أن مـا يبـدو لـي أنـه الأكثـر أهميـة بمـا لا يقـاس هـو التحـوّل أو بالأحـرى الثـورة المترتبـة علـى الظـروف الجديـدة فـي الإنتـاج وبالأخـص علـى التقنيـة. فمنـذ الحـرب العالميـة الأولـى ظهـرت حيـاة ماديـة جديـدة كانـت الولايـات المتحـدة رائدتهـا ومبدأهـا مـن غيـر منـازع. فالتجهيـز الميكانيكـي الجماعـي للإنتـاج القائـم علـى العمـل بالآلـة، والإنتـاج علـى نمـط واحـد (إنتـاج السلسـلة) وبكميـات كبيـرة، تسـلل إلـى كل شـيء واقتحـم كل شـيء وغيّـر كل شـيء. وقـد كان لهـذا تأثيـر جـارف لا يقـاوم، ليـس علـى الآلات الصناعية فحسـب، بل وعلـى تجهيـزات الحيـاة اليوميـة، وعلـى المنـزل والأسـرة فضـلًا عـن مجمـل تلـك الحيـاة العلائقيـة التـي تشـمل الصحـف والمجـلات والكتـب والتعليـم والديـن والفـراغ والدعايـة وحتـى السياسـة نفسـها! وقـد مسـت يـد التغيـر كل شـيء ولـم تـدع شـاردة ولا واردة إلا وتناولتهـا ونفـذت إليهـا كمـا تتسـرب الميـاه خلسـة فـي جـدار غيـر محكـم السـد. وفـي ضـوء هـذه الحقيقـة، نقـول إن الحضـارة الأميركيـة لـم تغيّـر فـي مصـادر الإلهـام والإرشـاد وفـي السـجايا والخُلُـق فحسـب، بـل غيّـرت كذلـك فـي العمـر، فقـد حـل عصـر الآلـة محـل عصـر الـرواد.

لقـد كان عصـر الـرواد يسـتوحي خصوصًـا المبـادئ الفردانيـة وهـي: المبـادأة ومسـؤولية الضميـر الشـخصي، وتحمّـل حيـاة قاسـية فـي الغالـب، وإنـكار للـذات إلـى حـد الزهـد والتقشـف، وكلهـا مقـولات بيوريتانيـة. أمـا وقـد اكتمـل اسـتعمار

القـارة بأجمعهـا، فلـم يعـد هنـاك «حـدود»، أي لـم يعـد هنـاك أراض حـرة مفتوحـة للاسـتعمار والاسـتغلال: فالموضوعـة القديمـة التـي اسـمها الغـرب، وهـي كانـت موضوعـة تحمـل وجـدًا صوفيًـا، لا تـزال تسـتخدم اليـوم ولكـن لـم يعـد لهـا المعنـى نفسـه طالمـا أن الأميركـي قـد وصـل إلـى حـدود المحيـط الهـادئ. والعصـر الجديـد هـو عصـر الآلـة القائـم علـى التنظيـم الجماعـي. والانطبـاع العـام الـذي تتركـه فـي مثـل هـذه الظـروف الحيـاة الأميركيـة فـي القـرن العشـرين هـو وجـود هيـكل كبيـر ضخـم، أكثـر فأكثـر خفـاء، وحيـث نـرى أن الشـخصية العامـة (الأكثـر عموميـة) فـي هـذه البـلاد هـي شـخصية الموظـف. والمصطلـح الـذي يتكـرر عنـد المحادثـة هـو مصطلـح Job أي الوظيفـة أو الشـغل: فـكل إنسـان عنـده وظيفـة وشـغل، أو يبحـث عـن وظيفـة وشـغل، وأكثـر مـا يخشـاه، وهـذه الخشـية صـارت منـذ أزمـة عـام 1929 سرسـابًا حقيقيًـا، هـو أن يفقـد وظيفتـه التـي يشـغلها. وليـس هنـاك أدنـى شـك أن ثمـة تقدمًـا محسوسًـا رائعًـا فـي مسـتوى الحيـاة قـد حصـل، ولكـن هـذا المسـتوى القياسـي اسـتدعى لوحـة مـن العمـل الجماعـي والنظـام والتنظيـم البيروقراطـي الهائـل تصبـح فيـه المبـادأة والخيـال المبـدع التـي كانـت موجـودة فـي الزمـن القديـم، أمـورًا صعبـة التحقـق إن لـم نقـل مسـتحيلة. ولـن يتمكـن تومـاس جيفرسـون (Thomas Jefferson) (الرئيـس الثالـث للولايـات المتحـدة) مـن التعـرف إلـى الوسـط المشـبع تمامًـا بالليبراليـة، والـذي صـاغ فيـه أيديولوجيتـه... ناهيـك بـأن أبراهـام لنكولـن لـن يتعـرف أيضًـا إلـى هـذا الوسـط وهـو الـذي ولـدت نزعتـه الإنسـانية فـي البيئـة الصحيـة للغـرب. وكل ذلـك بسـبب ظهـور الآلـة ومـا أحدثتـه مـن انقـلاب وثـورة فـي هـذا البلـد أكثـر مـن أي مـكان آخـر بمـا فيـه روسـيا حتـى.

إن أميـركا تجتـاز إذًا مـا يـوازي أزمـة نمـو، حيـث تسـتمر سـمات وخصـال شـبابها الأوليـة بالبقـاء، ولكنهـا تحـل محلهـا شـيئًا فشـيئًا وبهـدوء سـمات وخصـال جديـدة لا تنتمـي إلـى مرحلـة الشـباب. وبمـا أن التحـولات التقنيـة تجـري بسـرعة أكبـر مـن سـرعة تكيـف التـراث التقليـدي مـع هـذه الظـروف الجديـدة، فـإن هنـاك فارقًـا بيـن أيديولوجية آبـاء الدسـتور وسلسـلة التجميـع[17] فـي مصنـع فـورد.

---

(17) المقصود سلسلة تجميع قطع السيارات في كل واحد متكامل ومنها مصطلح العمل بالسلسلة.

(4)

لا بـد أن نعـي أنـه مـن الصعـب الحديـث عـن السـيكولوجية الأميركيـة بالمفـرد وذلـك منـذ اللحظـة التـي فقـدت فيهـا الولايـات المتحـدة شـخصيتها الأولـى وبـدأت تحـاول بنـاء شـخصية جديـدة لهـا. وفـي خضـم هـذه الأزمـة بيـن روح الأمـس وطريقـة اليـوم، يصبـح الموضـوع معرفـة أيـن يحـدد المـرء مركـز الجاذبيـة الأخلاقيـة والأدبيـة لهذا الشـعب. فمـا هـو النمـوذج المثالـي الـذي نعتبـره اليـوم ممثـلًا للسـيكولوجية الأميركيـة بيـن الأميركييـن خيـر تمثيـل؟ فهـل علينـا أن نتخـذ مثـالًا البيوريتانـي أم رجـل الأعمـال أم رجـل السياسـة أم حتـى رجـل العسـكر، وهـو الجديـد الصاعـد؟ ومـا هـي المدينـة التـي نتخذهـا مقياسًـا عامًـا ممثـل لهـذه السـيكولوجية؟ هـل هـي نيويـورك أم بوسـطن أم شـيكاغو؟ هـل تكـون هيوسـتون أو لـوس أنجلـس، ذلـك النجـم الجديـد الـذي تعرفـت إليـه حديثًـا بسـكانها البالغيـن تسـعين ألـف نسـمة؟ هـل نأخـذ معيـارًا للأميركـي العـادي ذلـك البروتسـتانتي الملتـزم بالتقاليـد، أم البابيـت[18] (Babbitt) مـن الغـرب الأوسـط، أم ذلـك الدخيـل الأجنبـي المقيـم علـى السـاحل الأطلسـي، أم ربمـا أيضًـا أي زنجـي متطـور مـن هارلـم؟ لقـد شـاهدت فـي نيويـورك مسـرحية مؤلفهـا يهـودي ومخرجهـا أرمنـي، والـذي يقـوم بالـدور الأول فيهـا أسـود، وواضـع موسـيقاها ألمانـي... ومـع ذلـك فقـد كانـت مسـرحية أميركيـة خالصـة تحـدث عنهـا النقـاد باعتبارهـا نجاحًـا قوميًـا.

إن سـيكولوجية شـعب كهـذا، تتطلـب أن ننظـر إليهـا وندرسـها بطريقـة خاصـة. وقـد أوضحنـا كيـف أن وحـدة التجهيـز والتهيـؤ للعمـل أكسـبت هـؤلاء البشـر، المتعـددي والمختلفـي الأصـول، وحـدة فـي المسـلك والمظهـر. وعلـى الرغـم مـن الفـارق البيّـن فـي الأعـراق بيـن الأميركييـن، فإننـا نجـد أنهـم يميلـون أينمـا كانـوا إلـى النظـر إلـى الأمـور بالطريقـة عينهـا، أكان ذلـك فـي بوسـطن أو نيـو أورليانـز، أم فـي

---

(18) البابيت (Babbitt) رواية صدرت عام 1922 كتبها سنكلار لويس (Sinclair Lewis) تسخر من الثقافة الأميركية وسلوكيات الأميركيين وتنتقد فراغ الطبقة الوسطى ونمط الحياة الأميركي الذي يضغط باتجاه الامتثالية. نال صاحبها جائزة نوبل للآداب عام 1930 وصارت كلمة بابيت تعني الشخص (خصوصًا رجل الأعمال أو المهن الحرة) الذي يمتثل من دون تفكير للمعايير السائدة للطبقة الوسطى.

ريتشـموند أو سـان فرنسيسـكو: ففـي كل مـكان مـن أنحـاء أميـركا نجـد القطـارات نفسـها والفنـادق نفسـها والمطاعـم نفسـها ومحطـات الوقـود نفسـها والصحـف نفسـها والمجـلات نفسـها والشـعارات نفسـها والأفـكار نفسـها. وهـذا التناسـق والتشـابه وتلـك الرتابـة قـد أصبحـت حتـى إحـدى دعائـم الوحـدة الوطنيـة، والشـيء المميـز أيضًـا أنهـا لـم تعـد تبـدو كأنهـا مفروضـة، بـل صـارت مقبولـة لا بـل مرحـب بهـا طوعًـا، تمامًـا كمـا أن أي تقـدم هـو مرحـب بـه.

وهـذا التنميـط يصـدم الزائـر كمـا لـو أنـه قـد أصبـح العلامـة الفارقـة والطابـع الأكثـر تمييـزًا للمجتمـع الأميركـي. ومـع ذلـك فيجـب ألا نتجاهـل أن الـروح التـي تنعـش هـذا الشـعب لا تـزال تتغـذى مـن النبـع القديـم. ولذلـك نـرى أنفسـنا مدفوعيـن فـي مثـل هـذه الظـروف إلـى أن نميّـز بيـن نخبـة قائـدة وريثـة التـراث والتقاليـد الأخلاقيـة مـن جهـة، وجمهـور أكثـر سـلبية، تحصّـل علـى الخيـرات الماديـة للحيـاة الأميركيـة، أكثـر مـن امتلاكـه لروحهـا. وقـد يجـدر بنـا أن نتحـدث هنـا عـن الطوائـف[19] فـي أميـركا، لا عـن الطبقـات، لأنـه ليـس فيهـا طبقـات. فالمسـاواة الاجتماعيـة فـي المجتمـع الأميركـي كاملـة، أمـا مـن الناحيـة العرقيـة الإثنيـة، فـإن هنـاك حاجـزًا دقيقًـا بيـن الأنكلوسكسـوني ذي الأصـل القديـم، والصقلبـي اللاتينـي الواصـل إلـى أميـركا منـذ أقـل مـن أربعيـن سـنة، أو حتـى الأيرلنـدي الكاثوليكـي. وقـد سـقط حاكـم ولايـة نيويـورك آل سـميث (Al Smith) حيـن رشـح نفسـه لرئاسـة الولايـات المتحـدة فـي عـام 1928، لمجـرد أنـه أيرلنـدي فحسـب، وأيرلنـدي كاثوليكـي خصوصًـا، ولـم يكـن مـن أسـباب سـقوطه كونـه مـن وسـط متواضـع، بـل انتمائـه إلـى طائفـة الأيرلندييـن، أي إلـى حـد مـا نـوع الـدم الـذي يسـيل فـي عروقـه. وهـذا أمـر يميـز أميـركا، مهمـا كانـت حقيقـة ديمقراطيتهـا، عـن ديمقراطياتنا الأوروبيـة؛ ونحـن نسـتطيع - فـي ضـوء وجهـة النظـر هـذه - أن نتبيـن فـي الولايـات المتحـدة وجـود سـيكولوجيتين توافقـان وجـود طابقيـن.

الخصـال التـي تميـز الدولـة الموجِّهـة هـي أساسًـا خصـال نشـطة، تبـدو وكأنهـا

(19) نستخدم طائفة وطوائف هنا ترجمةً لـ caste بمعنى الفئة والفئات (أو الصنف والأصناف بحسب التعبير الشائع في التراث الإسلامي).

ترجع بشكل رئيس إلى الأصل الأنكلوسكسوني وإلى التكوين البروتستانتي. وتنسب هذه الخصال إلى البيوريتاني الأميركي وإلى الرائد الأميركي أيضًا. ومن بين هذه الخصال نلاحظ بشكل أساس المبادأة ومعها الفاعلية وهما خصلتان تنشآن من الضمير وتقدير الجهد وغياب الروتين. ثم لنلاحظ الثقة في الإنسان عمومًا وبالرجل الأميركي خصوصًا، وبالقارة الأميركية عامة، وبالولايات المتحدة الأميركية، وبالدستور الموروث عن أجدادهم كأنه وديعة مقدسة. وكان البيوريتاني في القرن السابع عشر يؤمن بالخطيئة الأصلية، ولكنه من هذه العقيدة المتشائمة كان يستمد أدوات للطاقة والحيوية. أما وقد أصبح تلميذ جان جاك روسو، وإلى درجة نعتقدها سيئة، فإنه صار يفكر بأن الإنسان خيّر بطبعه وأنه يجب أن نمنحه الثقة. فحسن النية (good will) هو إذًا من خصائص الرجل الأميركي، وهي بمنزلة دعامة من دعامات مواطنيته (إخلاصه وغيرته لوطنه) التي هي قبل كل شيء شعور بروتستانتي تمامًا بـ «الخدمة الاجتماعية». فبحسب تقاليد نوع من أنواع البروتستانتية، إن هكذا «خدمة» تتضمن حس الواجب، والتبشير بالإنجيل، والحاجة إلى تقويم الأمور والحكم عليها، والتمييز بين الأخيار والأشرار، وإعطاء الدروس للناس ووعظهم. ففي أميركا ما أسهل أن تصبح الفصاحة موعظة: لقد كان ويلسون يلقي من المواعظ أكثر من إلقائه الخطب السياسية. وأميركا تنظر من علياء استقامتها الأخلاقية وهي ممتلئة بالنصائح الطيبة. والتواضع كما نعرف هو فضيلة كاثوليكية.

ويصعب علينا - إلى حد ما - تحديد كيفية تسلسل هرمية القيَم هنا، ذلك أنه إذا كانت القيم مادية إلا أنهم ينظمونها ويصنفونها وفق إلهام مثالي. والأميركي رسول، بيد أنه رسول يتحدث عن أمور الروح بالدولار. وهو مؤمن، ولكنه مؤمن يعتقد بأن كل شيء ينظم نفسه بنفسه بما في ذلك الروح، كما يؤمن كذلك بأن كرامته لا تنفصل عن مستوى حياته. فنحن إذًا بعيدون من باسكال الذي كان يقول بأن كرامة الإنسان تكمن في عقله وفكره! فإنجيل أميركا هو إذًا إنجيل اجتماعي، ولا يمكن فهمه من دون بذل جهد للارتقاء بحالة الإنسان الاجتماعية. والرجل الأميركي يعتقد أن رسالته في الحياة هي أن يقوم بتعميم هذا الإنجيل في العالم كله: توراة وبراد وديمقراطية على النمط الغربي! ذلك أن

إرادتـه مخلصـة واثقـة ونيتـه الحسـنة مطلقـة. ومـن الخطـأ أن نقـول عنـه إنـه مثالـي أو مـادي، فهـو فـي الواقـع هـذا وذاك فـي آن، فـي ظـروف وشـروط تبـدو لنـا متناقضـة، أمـا مـن وجهـة نظـره فهـي ليسـت كذلـك. وقـد جـاء فـي خلاصـة تقريـر نشـره «مجلـس نيويـورك الاقتصـادي المدمـج» (New York economic council incorporated) فـي الرابـع مـن تشـرين الأول/أكتوبـر عـام 1935، مـا يلـي: «فـي الميـدان الروحـي نحـن مبدعـون ممتـازون؛ ففـي الإحصـاء الـذي أجـري فـي عـام 1933 وهـو عـام أزمـة اقتصاديـة عنيفـة أنفقنـا ثلاثـة مليـارات مـن الـدولارات فـي التعليـم، وهـذا يفـوق مـا أنفـق فـي كل بلـدان العالـم مجتمعـة. ونحـن نمتلـك أكثـر مـن إحـدى عشـر مليـار مسـتثمرة فـي مؤسسـات التربيـة والتعليـم الخاصـة والعامـة. وقـد جـاوزت اسـتثماراتنا فـي الكنائـس أربعـة مليـارات مـن الـدولارات». إن الإخـلاص (أو التفانـي) الاجتماعـي وهـو يعبّـر عـن نفسـه فـي مجـال الإنجـازات الماديـة هـو مثـل عـن خصوصيـة البروتسـتانتية الأميركيـة، فأعمـال هـذا التفانـي رائعـة، ولكـن ليـس هنـاك فـي المجتمـع مـكان لرجـل يعيـش فـي الخيـال. وكرسـي الأسـتاذ فـي الجامعـة يتضـاءل أمـام كرسـي «الرئيـس» الـذي يجمـع الأمـوال لتدعيـم الجامعـة.

لا شـك فـي أن أميـركا قـد صُنعـت علـى يـد قـادة تنطبـق سـيكولوجيتهم علـى كل مـا ذكرنـاه آنفًـا. أمـا سـيكولوجية الشـعب فـي مجموعـه، فقـد صـارت تختلـف تمـام الاختـلاف عـن سـيكولوجية القـادة. والسـبب الأهـم فـي ذلـك يعـود إلـى ظـروف تشـكيل هـذا البلـد. فالقادمـون الجـدد مـن المهاجريـن قـد انخرطـوا فـي نسـيج بنيـان اجتماعـي لـم يصنعـوه هـم، ولـم يُصنـع هـو لهـم. وقـد كان لزامًـا عليهـم أن ينخرطـوا فـي هـذا المجتمـع لأنـه لـم يكـن أمامهـم خيـار آخـر؛ وقـد قبلـوا هـذا الوضـع عـن طيـب خاطـر، بقـدر مـا أن هـذا يعـد برهانًـا علـى تكيفهـم مـع الوضـع الجديـد. ولكـن الأخـلاق والصفـات التـي نتطلبهـا الآن لـم تعـد تلـك التـي تحلـى بهـا الـرواد الأوائـل: فعـوض المبـادأة صرنـا نتطلـب الـدأب والصبـر وقـوة الاحتمـال والانضبـاط النظامـي. وفـي وسـط لـم يعـد ريفيًـا وإنمـا مدينيًـا يصبـح مـن الصعوبـة بمـكان الاختـراق، خصوصًـا وأن العمـل بطـل علـى العمـوم أن يكـون فرديًـا وصـار يتخـذ طابـع العمـل الجماعـي: فنحـن هنـا أمـام مجتمـع جماهيـري لا مثيـل لـه فـي أي مـكان آخـر؛ وهـذه الجماهيـر الشـعبية نفسـها هـي التـي صـارت قـوة المجتمـع

اقتصاديًـا. وفـي مثـل هكـذا ظـروف وشـروط، وفيمـا يناقـض مـا ذكرنـاه قبـل قليـل، يتـرك الشـعب العـادي لديـك انطباعًـا عـن سـلبية مـا فـي التفكيـر، بعيـدة مـن المواطنـة النشـطة. فمـا يهمـه هـو أن يكـون لـه مـكان أينمـا كان. وقـد كان الأيرلنديـون فـي مجالـس البلديـات التـي سـيطروا عليهـا هـم الـرواد بحـق فـي هـذا المجـال، أمـا اليـوم فـإن هـذا المفهـوم يميـل إلـى التوسـع والامتـداد وذلـك مـع سياسـة النيـو ديـل (New Deal) (التسـوية الجديـدة)[20]، وسياسـة الفيـر ديـل[21] (Fair Deal) (التسـوية العادلـة)، ودولـة الرفـاه [22] (Welfare State) ولـم يعـد مهمًـا أن تتصـرف كجنتلمـان واضعًـا نفسـك فـي خدمـة المجمـوع، وإنمـا صـار المهـم أن يكـون لـك سـهم مـن إعانـات الجماعـة الماليـة. ولنلاحـظ أيضًـا أن الجمهـور الشـعبي الأميركـي، وحتـى الغوغـاء منهـم، يبقـون منضبطيـن بالنظـام أساسًـا، فهـم قـوم يميلـون إلـى البحـث عـن مواقـع،

(20) سلسلة من البرامج المحلية التي جرى تفعيلها في أميركا بين 1933 و1938 وبعضها القليل في ما بعد وهي تتضمن القوانين التي أقرها الكونغرس، وكذلك قرارات الرئيس فرنكلين روزفلت خلال الفترة الأولى من حكمه (1933-1937). وقد جاءت هذه البرامج للرد على نتائج الأزمة الاقتصادية الكبرى وتركزت على 3 عمليات سميت بالـ «3 Rs»: وهي مساعدة الفقراء والعاطلين عن العمل (Relief)، واستعادة عافية الاقتصاد لمستوياته الطبيعية (Recovery)، وإصلاح النظام المالي لمنع تكرار الأزمة (Reform). وقد أدى تطبيق هذه السياسة إلى نيل الحزب الديمقراطي الأغلبية وسيطرته على منصب الرئاسة 7 مرات من أصل تسع بين أعوام 1933 و1969، مستندًا إلى قاعدة بين ذوي الأفكار الليبرالية، والجنوب الأبيض، والديمقراطيين التقليديين، والمدن الصناعية الكبرى، والاتحادات العمالية الناشطة حديثًا، والأقليات الإثنية. وقد انقسم الجمهوريون بين محافظين عارضوا كل السياسة الجديدة كونها عدوة التجارة والأعمال، وليبراليين وافقوا عليها. وأدى هذا الاستقطاب إلى نشوء تحالفات جديدة بين «تحالف التسوية الجديدة» الذي سيطر على الرئاسة حتى الستينيات من القرن العشرين، وتحالف المحافظين الذي سيطر على الكونغرس بين 1937 و1963.

(21) هي سلسلة من المقترحات وضعها الرئيس هاري ترومان للكونغرس في خطابه حول حال الأمة في كانون الثاني/يناير 1949 وصار لاحقًا يلخص كل برنامج عمل إدارة ترومان المحلي من 1945 إلى 1953. وهو عبارة عن مقترحات جديدة لمواصلة طريق ليبرالية التسوية الجديدة. ولكن مع سيطرة المحافظين على الكونغرس لم تمر سوى بضع من مبادراته لتتحول إلى قوانين... وأهم المبادرات التي نوقشت في الكونغرس وفشلت في الحصول على الأصوات: قوانين حول المساعدات للتعليم والضمان الصحي، ولجنة الإشراف على عدالة ممارسات التشغيل...

(22) هو مفهوم عن الحكم تؤدي فيه الدولة دورًا محوريًا في حماية الاقتصاد وتطويره وفي تأمين رفاهية المواطنين. وهو يقوم على مبدأ المساواة في فرص العمل، والتوزيع العادل للثروات، والمسؤولية العمومية عن أولئك الذين لا يقدرون على تأمين الحد الأدنى من متطلبات العيش الكريم. وقد وصف عالم الاجتماع مارشال (T.H. Marshall) دولة الرفاه الحديثة بأنها مزيج من الديمقراطية والرفاهية والرأسمالية.

ولكنهـم ليسـوا بثورييـن. كمـا أنهـم يحترمـون ويحبـون النظـام الأميركـي فضـلًا عـن أنهـم وعلـى الرغـم مـن المظاهـر السـطحية التـي تنـم عـن اللامبـالاة والفوضـى إلا أنهـم مـن الجماهيـر الأكثـر وداعـة وطاعـة علـى الإطـلاق.

ثـم إنهـم لا يطبقـون هـذا الانضبـاط النظامـي فـي العمـل فحسـب، بـل فـي سـلوك حياتهـم الخاصـة ناهيـك بكيفيـة تبنيهـم الأفـكار أيضًـا. والأميركـي يجـل كل مـا يمكـن أخـذه بالتعليـم، وهـو يؤمـن بالتربيـة والتعليـم، ولكنـه يريدهـا أن تكـون عملانيـة. وهـو لا يعتبرهـا اكتسـابًا لثقافـة بقـدر مـا أنهـا مجموعـة وصفـات: فهـو يفضـل التربيـة والتعليم الجاهزيـن غـب الطلـب، أو العلـم يأتيـك فـي علبـة، أو حتـى إن أمكـن فـي قـرص علومـي مضغـوط. وهـو يريـد مقـولات وموضوعـات يمكـن فهمهـا بسـهولة، ومـا نتناولـه مثـل حبـوب الـدواء، أي مـا يمكـن اسـتعماله بسـرعة ومباشـرة ولا يتطلـب بـذل أي جهـد. وباسـم الكفـاءة نجـد أن الأميركـي مسـتعد لأن يقبـل أي شـيء إن جـاءه ممـن يسـمونه «الخبيـر الاختصاصـي»، وهـؤلاء تزخـر بهـم أميـركا.

ومـن هنـا تلـك الامتثاليـة (conformisme) الغريبـة وغيـر المتوقعـة التـي نجدهـا عنـد أفـراد هـذا الشـعب الـذي كان قديمًـا شـعبًا صاحـب نـزوات وهـوى، لا بـل شـعبًا شـاردًا هائمًـا. أمـا بخصـوص المهاجـر، فـإن هـذه الامتثاليـة تصبـح علامـة علـى مـدى اندماجـه، أي علـى مـدى تبنيـه الكامـل داخـل العائلـة الأميركيـة. وقـد صـار النـاس معاديـن لـكل مـن يتميّـز مـن الآخريـن: فبـدل المعانـاة لكونهـم صـاروا يشـبهون بعضهـم بعضًـا فـي كل شـيء، نجـد الأميركييـن يفرحـون ويغتـرون لأنهـم يلبسـون القبعـة نفسـها أو الـزي نفسـه أو يحملـون الأفـكار نفسـها. وقـد ظلـت بقايـا هـذا الموقـف فـي موضـة التغنـي بالفردانية التـي (الموضـة) إن اتخـذت شـكل الطرافـة والابتـكار، والاحتجـاج ضـد الشـعارات المقبولة مـن الجميـع، فإنهـا سـتجعل حياتـك صعبـة والنجـاح أقـل احتمـالًا. ويوجـد هنـا علـى كل حـال درس خطيـر فـي السـلبية وقـد لا أكـون مجافيًـا للصـواب، إذا رأيـت فـي هـذا الاتجـاه نحـو الامتثاليـة أحـد الأخطـار المسـتقبلية التـي تهـدد هـذه الحضـارة. والأميركـي يسـتجيب ببراعـة للدعايـة، فـي الأقـل بحسـب مـن يقومـون بهـا. وتؤثـر الدعايـة فيـه بشـكل فريـد فـي فعاليتـه، ولهـذا الأمـر نتائـج سياسـية مهمـة، إذ إن الحكومـة تسـتطيع بفضـل اسـتخدام إجـراءات معروفـة ومجرَّبـة جـر الجمهـور العـام خلفهـا حيـن تريـد. ومن

الناحيـة الاقتصاديـة، فـإن هـذا الانضبـاط النظامـي الجماعـي يخـدم عمليـة توحيـد نمـط ومعاييـر الإنتـاج بسـماحه تأطيـر المنتوجـات ضمـن سلاسـل ضخمـة: والزبون الـذي يحترم نفسـه، وهـو واع علـى كل حـال، لا يحتـج علـى الأمـر، إذ إنـه يجـد فـي هـذا الوضـع مصلحـة لـه. وسياسـيًا يضـع الراديـو فـي أيـدي الخطبـاء إمـكان الوصـول مباشـرة إلـى ملاييـن الناخبيـن: والقضيـة ليسـت قضيـة مـال فحسـب، ونحـن نعـرف أن وال سـتريت لـم تسـتطع أن تهـزم ترومـان، إنمـا هـي قضيـة تنظيـم، وتقنيـة زاحفـة وقويـة فـي نشـر وتعميـم الحجـج التـي تقنـع الجماهيـر.

لعـل مـا قـد يتأثـر سـلبًا فـي هـذا النظـام هـو الـروح النقديـة، وذلـك مـن لحظـة انحنائهـا باحتـرام أمـام كفـاءة وخبـرة الاختصاصـي. وتتغلـب التقنيـة - هـذه الشـابة والإلهـة الجديـدة - علـى الثقافـة، وهـي إلهـة آفلـة. علـى أن المهاجريـن الذيـن جـاءوا مـن أوروبـا وصلـوا إلـى أميـركا وهـم شـيوخ هرميـن يحملـون ثقـل القـرون، وقـد عملـت أميـركا علـى تجديـد حيويتهـم وشـبابهم ونقلتهـم إلـى الشـباب، لا بـل ونقلتهـم بفضـل السـرعة المكتسـبة إلـى الطفولـة. ويخالجنـا مـن ذلـك شـعور بنـوع مـن الصبيانيـة تجـاه هـؤلاء الأميركييـن الجـدد الذيـن يفخـرون بـآلات الفكـر التـي امتلكوهـا إلـى حـد نسـيان الفكـر فـي حـد ذاتـه. ونحـن نفهـم علـى كل حـال معنـى اعترافهـم بالجميـل نحـو بلـد أعطاهـم كرامـة العمـل وحريـة سياسـية، وأنـا مسـتعد للاكتفـاء بهمـا وأنـا مغمـض العينيـن. والأميركيـون يظلـون متفائليـن ويعتقـدون أنـه فـي هـذا النظـام تتهيـأ الفرصـة لـكل فـرد كـي يصـل إلـى مـا يحـب، فقـد يصبـح الأميركـي ملياردیـرًا أو رئيسًـا للجمهورية. وحتـى إن كان هـذا الأمـر لـم يعـد ممكنًـا أو حقيقيًـا، إلا أنـه مـن المفيـد أن نقـرر هنـا أن غالبيـة الأميركييـن مـا زالـوا يعتقـدون بـه.

(5)

لا يسـعني وأنـا أختـم هـذا البحـث إلا أن أقـول إن الولايـات المتحـدة تسـتغل فـي وقتنـا الحاضـر إلـى أقصـى حـد ممكـن كل إمكاناتهـا، وهـي لا تـزال تملـك كل حيويـة القـرن التاسـع عشـر، وفـي الوقـت نفسـه كل فاعليـة القـرن العشـرين. وقـد كشـفت لنـا الحـرب العالميـة الثانيـة مـن دون منـازع عـن أن هـذه الدولـة لا تـزال قـادرة علـى الإبـداع الخـلاق والتنظيـم فـي الوقـت نفسـه؛ وقـد تكيـف الشـعب الأميركـي

بسرعة مع ظروف جديدة عليه تمامًا، فسمح له ذلك بتصور الحرب وخوضها متخلصًا من كل روتين أو تصلب: فقد أنشأ جيوشًا تتوافق مع الظروف الجديدة، ولم يكن لديه فيها أي سابقة تاريخية، سواء أكانت جيوشًا في وسائل النقل أم في الإدارة أم في كيفية الحفاظ على روح الشعب المعنوية، وكان ذلك يتطلب صفات شبه متعارضة، تلتقي فيها المرونة والحزم: وهذه لحظة لعلها فريدة في التاريخ من حيث إن اندفاع عصر الفردانية لا يزال يحيي ويحرك الأساسات المتبلورة للعصر الميكانيكي.

ولعل الخطر المقبل هو أن يتقدم التنظيم على الفرد. ونستطيع منذ الآن أن نتبيّن وجود طلاق بين أيديولوجية القرن الثامن عشر التي لا تزال قوية إلى الآن، والبنيان الجماعي للمكننة الآلية[23] (machinisme) التي شرع القرن العشرون بفرضها بشكل متصاعد يوميًا على المجتمع الأميركي. «إن الإنسان يعتقد أنه يسوس نفسه حين يكون في الحقيقة مسوسًا، وفي الوقت الذي يتجه فيه إلى بلوغ هدف ما من طريق تفكيره، نرى قلبه يجرفه نحو هدف آخر من دون أن يشعر». هذه الحكمة التي ذكرها لا روشفوكو[24] (La Rochefoucauld)، ما إن نغيّر موضعها فحسب، حتى نراها تنطبق تمام الإنطباق على سيكولوجية الشعب الأميركي، إذ هي سيكولوجية على مفترق طرق. في مقال مهم نشرته مجلة الشؤون الخارجية (Foreign Affairs) في عدد شهر تموز/يوليو 1949، حلل السيد جيرولد تانكواري روبنسون (Gerold Tanquary Robinson) المعركة الأيديولوجية القائمة في الولايات المتحدة حول هذا الموضوع فكتب يقول إن البلاد تواجه أزمة 1949 بأسلحة وعتاد وذخيرة عام 1950 ولكن بتجهيز أيديولوجي يعود إلى عام 1775! ثمة نزاع بين وصية آباء الدستور وطرائق العمل التي تتجذر رويدًا رويدًا في الممارسة

(23) تحويل الصناعات اليدوية إلى آلية، تعميم استعمال الآلات بدلًا من اليد العاملة.

(24) هو فرنسوا السادس، دوق دو لا روشفوكو، وأمير مارسياك (1613-1680) (François VI, duc de La Rochefoucauld, prince de Marcillac) كاتب وواعظ أخلاقي اشتهر خصوصًا بكتابه الحِكَم (Maximes) ومع أنه لم ينشر غيره إلى جانب مذكراته (Mémoires)، فإن نتاجه الأدبي كان غزيرًا. وهو كان يرى السياسة باعتبارها لعبة شطرنج. يدين كتابه الحِكَم بشدة وإصرار كل المظاهر الخادعة عن الأخلاق والقيم. كرس جان دو لافونتين له حكايته الرقم 11: الرجل وصورته (L'Homme et son image).

العمليـة الأميركيـة. فالأيديولوجيـة الليبراليـة والفردانيـة للتـراث الدسـتوري لا تتـلاءم مـع متطلبـات مجتمـع يـكاد يصيـر شـبه صناعـي بالكامـل.

وفـي القـرن التاسـع عشـر، كانـت هنـاك نسـبة كبـرى مـن الأميركييـن تسـتطيع أن تقـوم بمراقبـة فعالـة علـى نشـاطاتها اليوميـة: فالـرواد والمزارعـون والمنتجـون الذيـن لـم تسـتوعبهم الاحتـكارات، كانـوا يهتمـون فـي الحـد مـن تدخـل الدولـة فـي حياتهـم الخاصـة، أكثـر مـن اهتمامهـم بمطالبـة الدولـة بتحمـل بعـض المسـؤوليات والواجبـات الجديـدة. كانـت الديمقراطيـة تعنـي أول مـا تعنـي الفردانيـة واللامركزيـة. أمـا فـي القـرن العشـرين، فـإن الصناعـة الممكننـة تتطلـب العمـل جمهـورًا متحـدًا فـي ظـل نظـام ضبـط جماعـي، مـن أجـل تنفيـذ مشـروعات ضخمـة. وبنـاءً علـى ذلـك، كان الأمـر يتطلـب وجـوب تنظيـم وتيـرة عمـل العامـل علـى وتيـرة اشـتغال الآلـة. وعندمـا لـم يعـد الفـرد قـادرًا علـى مواجهـة أعبائـه الجديـدة، أحـس أنـه مضطـر إلـى اللجـوء إلـى الدولـة وقبـول نظـام ضبطهـا الاجتماعـي الـذي نظمتـه ثـلاث مبـادرات هـي التسـوية الجديـدة والتسـوية العادلـة ودولـة الرفـاه. وقـد ذكـر مسـتر روبنسـون (Robinson) بعبـارة ذكيـة أن التكنولوجيـا هـي أم المشـاريع الضخمـة، وجـدة تدخـل الدولـة. وقـد أجـرى روبنسـون مقارنـة مقلقـة حيـن قـال إن التفتيـش عـن الفاعليـة يـؤدي إلـى الهاويـة الجمعويـة ذاتهـا، فـي بيتسـبرغ (Pittsburgh) (مدينـة فـي أميـركا) وفـي مانيتوغورسـك (Magnitogorsk) (مدينـة فـي روسـيا).

وقـد طابـت أميـركا نفسًـا لهـذا النظـام الـذي يحقـق لهـا مسـتوى مـن الحيـاة أعلـى وسـاعات عمـل أقـل، ولكـن ثمـن هـذه الامتيـازات باهـظ، حيـث أدى إلـى اختفـاء ملاييـن المزارعيـن أو الحرفييـن وقـد كانـوا بالأمـس مسـتقلين فصـاروا اليـوم خدامًـا منضبطيـن لنظـام الآلـة. هـذا وقـد ظلـت الأيديولوجيـة القوميـة، كمـا كانـت منـذ مئـة وخمسـين عامًا: فردانيـة ومبـادأة وحريـة وتنافـس. كمـا أن الرجـل الأميركـي المخلـص يبقـى أمينًـا لهـذه الأيديولوجيـة متعلقًـا بهـا، بيـد أنـه فـي الوقـت الـذي «يتجـه فيـه إلـى بلـوغ هـدف معيـن مـن طريـق تفكيـره»، كمـا قـال الحكيـم الفرنسـي لا روشـفوكو، نـرى أن تيـار العصـر كلـه «يسـوقه دونمـا شـعور منـه صـوب هـدف آخـر». والواقـع أن هـذه المشـكلة هي المشـكلة الأميركيـة الحقـة، بـل هـي مشـكلة الغـرب كلـه.

الخاتمة

الحضارة الغربية
«تعريفها... ومستقبلها»

مما قدمنا من اللوحات الست في الفصول السابقة، نستطيع أن نستخلص بعض الصفات المشتركة، والتي تميّز الحضارة الغربية: على أن هذه اللوحات تفسّر لنا مدى ما بلغته من نجاح باهر، كما أنها تهيئ لنا أيضًا أن نتخيّل احتمال أفولها، وفي الأقل احتمالات تغيرّها المقبل.

لقد أمكن طويلًا التفكير بأوروبا والعرق الأبيض (في الأقل القسم الأكبر منه) والحضارة الغربية على أنها معان لحقيقة واحدة: واستمر هذا الأمر حتى مرحلة الاكتشافات الكبرى، وكان لفظ «الغرب» يقتصر على القارة القديمة وحدها. وعندما انتشر البيض في العالم لاكتشافه والسيطرة عليه واستغلاله، فإن القارة القديمة مع بقائها مسكنهم (ومقرهم) الرئيس إلا أنها لم تعد مجالهم (وميدانهم) الوحيد، في الوقت الذي كانت تتطور فيه حضارة غربية تفيض جغرافيًا عن حدود موطنها الأصلي. حتى أن أميركا الشمالية انتهت حالها إلى أن تصير جزءًا أساسيًا من هذا النظام إلى حد أننا نتساءل اليوم إن لم تكن مدعوة لأن تكون هي مركزه ومحوره. في حين أنه في الوقت نفسه نجد كتلة أورو آسيوية كاملة لم تتأثر بهذا الغرب الحضاري. وبوجود مركز محوري يميل إلى الأفول، وقيادته خارج الزمن، فإننا في شك من مقدرة الغرب على الاحتفاظ لفترة طويلة بميزاته التقليدية التي صنعت شخصيته .

(1)

إن مصادر الحضارة الغربية جد قديمة ومتنوعة في آن، وهي ترتكز برأيي على أقنوم من ثلاثة مفاهيم: المعرفة، والإنسان، والتقنية في شكلها الحديث للثورة الصناعية.

من ناحية المعرفة، نحن مدينون للإغريق في طرائق التفكير والحكم على الأمور: فقد أخذنا عن الإغريق روح النقد كما اقتبسنا ملاحظة الظواهر ومناقشة المشكلات بحرية تامة. هذا هو التراث الأساس الذي نقله إلينا الإغريق الذين تصوروا منذ العصور القديمة استقلال العقل الإنساني المتحرر من السحر والنبوات وكل ما هو لاعقلاني، وحتى من الدين نفسه. فقد سبق لهم أن «علمنوا»، نوعًا ما، مجال المعرفة. وقد أخذنا عنهم كذلك ممارسة طريقة التفكير المنهجي في الحكم على الأمور، وفن توضيح الفكرة من طريق أدلة وحجج لا يستطيع الفهم والإدراك إلا الانحناء أمامها، بل إن الآلهة عندهم كانوا ملزمين بالخضوع للمنطق! هاكم هو الحد الأول الذي ارتسم بين الشرق والغرب، وهو كما ترون حد عقلي. ففي الآداب أو العلوم، الآشورية أو المصرية، وهي كانت متطورة، نرى أن الرجل الشرقي يأمر ويؤنب ويرجو ويتنبأ بالمستقبل، وأنه عندما يلاحظ، يحكي ملاحظاته، يعددها، يجمعها واحدة واحدة، وأخيرًا يكوّن منها مجموعة، ويتبع الرجل الإغريقي الطريقة نفسها، ولكنه يبحث على أن يستخلص من ملاحظاته قوانين عامة؛ بالكشف عن المنطق العقلاني للأشياء.

وقد كان المصريون علماء رائعون في قياس الأرض ومساحتها، في حين أن إقليدس[1] (Euclide) كان من أساتذة هندسة الرياضيات. وبين الطريقتين فرق كبير؛ فالطريقة الثانية قد أحرزت في مجال التطور الإنساني تقدمًا ملحوظًا حتى أن أعرق الحضارات الآسيوية كالحضارة الصينية مثلًا، لم تلحق بها في هذا

(1) إقليدس (Eukleidês) عالم رياضيات إغريقي عاش في حدود عام 300 قبل الميلاد، يعتبر في الغرب مؤسس دراسة الرياضيات.

المضمار. اليوم، فإنك حيثما كنت تلاحظ وتفكر وتحلل مثل الإغريق، فإنك حتمًا ستكون في الغرب. إنه مناخ فكري ثقافي يمكن التعرف إليه مباشرة.

تنطوي هذه الممارسة في التفكير والتحليل على مفهوم عن الفرد باعتباره قادرًا على مراقبة نفسه ومحاسبتها ومراجعتها، فمثل هذا الإنسان يكون حرًا ولا يخضع إلا للقوانين التي وضعها هو لنفسه أو رضي هو بها، ومن هنا مصدر اهتمامه بالشؤون العامة، كونها شؤونه هو. وبما أن حقوقه تتمثل في احترام كرامته الإنسانية وحريته الناقدة، فإنه يتلقى من القوانين بالمقابل ضمانات تفي بهذا الغرض. حين كان الإغريق يصارعون ضد الفرس فإنما كانوا يفعلون ذلك بصفتهم رجالًا أحرارًا واعين كونهم ذلك، يقاتلون ضد رعايا تابعين لسيد، كتلة من البشر عديمة الشكل ولا تماسك روحي بينها. من هنا ولد مفهومنا عن الفرد من وجهة النظر السياسية: وديمقراطيتنا الغربية هي ابنة «المدينة» التي لا تنفصل عن الليبرالية، وبالتالي فهي ترتكز على تصور لقاعدة مقبولة طوعًا وليست مفروضة وتتعارض مع هوى الحاكم المستبد. وساحة معارك سباقات الماراثون هي من أبرز الأماكن الرمزية التي لا يملك أي غربي يزورها سوى أن يقف مدهوشًا مذهولًا.

ويتضمن مفهوم «الكلمة» (Logos) الهيليني معنى فطريًا بالعلاقات وتناسبها في ما بينها. وقد كان الشرق على نقيض ذلك يعرف ما هو ضخم، وما هو جبار، وينتشي بذلك. كما كان الإغريق يفضلون التناسب الناجم عن الوسطية والاعتدال، فالذي يعرف علاقة الأشياء بعضها ببعض يصبح قادرًا على تقدير تناسب أهدافه مع الوسائل التي يملكها كي يقوى على بلوغها، وبذلك يكسب لنفسه قاعدة للسلوك خاصة به، وهي ليست بالضرورة «الأخلاق»، وإنما هي أخلاق في ما يخصه هو بالضبط. إن الغرب بقبوله التام بهذه الطريقة في النظر أو العمل بالأحرى، اكتسب الوسيلة الفريدة من نوعها لتحقيق قوته: أي الفاعلية، وهذا ما يميز العرق الأبيض من باقي الأعراق. وما إن يتعلق الأمر بأمور جدية، أو يختار أن يعتبرها جدية، فإن الغرب يتبع «الطريقة العقلانية الإغريقية»، ومن دون أدنى تحفظ أو حذر، حيال الدين، حتى وهو ينحني احترامًا له. وعلى الرغم

مما عـرف عـن الإغريـق مـن أنهـم يعرفـون كيـف يضعـون اللاعقلانـي فـي موضعـه، فإنهـم قـد حـددوا قطاعًـا كامـلًا مـن قطاعـات الحيـاة، حيـث يتطـور العقـل والتفكيـر باسـتقلال عـن أي شـيء آخـر، وبغـض النظـر عمـا لـم يكـن منـه أو فيـه: فالتحـرر لـم يكـن كامـلًا فـي الميـدان الاجتماعـي، وإنمـا كان كامـلًا حيـن يتعلـق الأمـر بالدراسـة والعلـم والتفكيـر والمنطـق. لقـد تبنينـا هـذا التمييـز الأسـاس والـذي لا وجـود لـه لا فـي آسـيا ولا فـي الإسـلام، بحيـث اسـتمرت الحـدود القديمـة بيـن اليونـان أم الغـرب والشـرق، والشـيء المثيـر أنهـا بقيـت فـي الموقـع نفسـه تقريبًـا. والحـدود الفاصلـة لـم تكـن بيـن اللـه وقيصـر فحسـب، بـل بيـن اللـه ومينرفـا آلهـة العقـل والفكـر، ولعلـه مـن الأصـح أن نقـول: بيـن اللـه ومنافسـه الأكثـر خطـورة اليـوم، إلهـة الفاعليـة.

نضـب معيـن الحضـارة الإغريقيـة علـى طـول الزمـن: فالقسـطنطينية التـي واصلـت حضـارة الإغريـق وعملـت علـى انتشـارها فـي بـلاد الغـرب، قـد فقـدت اليـوم الإلهـام الروحـي الأولـي لهـذه الحضـارة، ولـولا اقتصـر التأثيـر علـى تـراث الفكـر الهيليني لمـا كان الغـرب مـا هـو عليـه اليـوم. فـلا بـد أنـه كان هنـاك تأثيـر وتطعيـم آخـر مختلـف؟ وهنـا بالـذات يظهـر مسـاهمة العالـم اليهـودي، ثـم مسـاهمة الإنجيـل. لقـد نحـت اليهـود فكرة الإلـه الشـخصي وتصـور علاقـات الإنسـان بهـذا الإلـه. فالتوحيـد اليهـودي هـو توحيـدٌ شـغفٌ عاطفـيٌ يتناقـض مـع التعدديـة الشـكوكية للهيلينيـة. والحـال أن الآلهـة اليونانييـن الذيـن تغلغلـت النواقـص البشـرية فـي ألوهيتهـم، والذيـن كانـوا يخضعـون بجـلال وأبهـة لقوانيــن الزمـان والمنطـق، والذيــن كانـوا أقـل ألوهيـة بالإجمـال، لـم يعـودوا بنظرنـا غيـر لعبـة خيـال سـاحرة ومبتكـرة. أمـا إلهنـا نحـن، خصوصًـا فـي البروتسـتانتية، فقـد ظـل هـو نفسـه إلـه إبراهيـم. ونحـن أخذنـا تصوّرنـا عـن الإلـه الكلـي القـوة والمجـد والجـلال والعظمـة، الخالـق كل شـيء، والقـادر علـى كل شـيء حتـى علـى تجـاوز الحـدود الأخلاقيـة: فهـو الغيـور المتسـلط، ومـا علـى المؤمـن إلا أن يعقـد معـه عقـدًا (أو عهـدًا كمـا فـي اليهوديـة والمسـيحية) هـو ميثـاق الإيمـان، هـذا التصـوّر أخذنـاه عـن بطريـرك أور (المقصـود النبـي إبراهيـم). فـي هـذا التصـوّر للإلـه لا مـكان للـذكاء والعقـل والتفكير المنطقـي وإنمـا للروحانيـة الغيبيـة، إذ مـا الذي يمكنـه أن يشـرح بالمنطـق العقلي معنى تضحيـة إبراهيـم بابنـه إسـحق؟ إن ذلـك البـدوي العتيـق مـن أور هـو فـي أصـل طريقـة

فـي التفكيـر والشـعور تتأبـد اليـوم حتـى لـدى ملاييـن الغربييـن. وأن يكـون اليهـود والمحمدييـن (التسـمية الغربيـة للمسـلمين) يعترفـون معًـا بإبراهيـم بوصفـه نبيًـا لا يقلـل بـأي حـال مـن المكانـة الهائلـة التـي يحتلهـا فـي تكويننـا الدينـي. خـلال زياراتـي للقـدس كانـت أولـى أفـكاري تذهـب باتجـاه الجلجلـة، إلا أنـه ظهـر لـي لاحقًـا أن الحجـر العجائبـي الشـهير فـي مسـجد عمـر لا يقـل أهميـة عـن الجلجلـة بوصفـه شـاهدًا علـى أصولنـا الروحيـة. هـذا المنبـع آسـيوي، ولكـن لنوضـح أننـا نقصـد غـرب آسـيا، إذ إن آسـيا الوسـطى قـد كان لديهـا تصـوّر خـاص مـن الأديـان الوثنيـة، حيـث يصيـر الرجـل (البشـر) نفسـه هـو اللـه. ومـع إبراهيـم تبـدأ فـي الغـرب (Ouest) منطقـة توحيديـة يرتبـط بهـا غربنـا (Occident) نحـن: فهـو يتميـز مـن جهـة الشـرق عـن الهنـد والصيـن، ويفصـل بينـه وبيـن الديانـات الأرواحيـة والوثنيـة الشـركية الأفريقيـة حـدود أخـرى؛ وهـذه المنطقـة التوحيديـة تشـمل أساسًـا اليهـود والمحمدييـن والمسـيحيين، إذ يجـب علينـا للحـق أن نصنـف أنفسـنا فـي تيـار ديـن إبراهيـم وإسـحق ويعقـوب.

ومـن التـراث اليهـودي يأتينـا أيضًـا، عبـر المسـيحية، تصوّرنـا الغربـي للفـرد، الـذي نعتبـره وحـدة أدبيـة معنويـة اعتباريـة. إن القانـون الأخلاقـي الاعتبـاري، وهـو إلـزام تقريـري، لا ينبـع مـن العقـل والفكـر، بـل مـن قـوة سـلطانية عليـا، مختلفـة بجوهرهـا. وعمليـة النقـل أو التحويـل التـي قـام بهـا المسـيح، نازعًـا بذلـك عـن هـذا القانـون طابعه اليهـودي، لـن تغيّـر فـي الأسـاس مـن طبيعتـه وسـمته: إن الـدور الضخـم للمسـيحية فـي تكويـن الغـرب، ولعلهـا (المسـيحية) تشـكل هـي وحدتـه (الغـرب) الرئيسـة، يـدل علـى أصالـة هـذا التصـوّر للكائـن البشـري باعتبـاره ليـس فكـرًا وعقـلًا وإنما وحـدة روحيـة. لقد اختـرع اليونـان النظـام والمنطـق فـي حيـن أن اليهـودي ومـن بعـده المسـيحي يهتمـان بالعدالـة. غيـر أن النظـام هـو قاعـدة فـي حيـن أن العدالـة هـي شـغف وعاطفـة: إذ يختلـف فـي الحالتيـن كل مـن الضغـط والحـرارة والتوتـر. إن المعنـى العاطفـي الشـغوف والغيـور لمـا هـو عـادل، والـذي هـو فـي الآن نفسـه مُهمـل ومنفـي ومُـداس، ربمـا، مـن طـرف السـلطة الاجتماعيـة، هـذا المعنـى يرجـع إلـى روح الاحتجـاج، أي الـروح الثوريـة حقًـا. وبهـذا، فقـد هبـت ريـح صوفيـة غيبيـة حاملـة عواصـف، نبعـت مـن بـلاد اليهوديـة القديمـة، اخترقـت الأجيـال والقـرون ومـا زالـت تهـز الأرض تحـت أقدامنـا.

وبقـدر مـا أن هكـذا خميـرة تفعـل فعلها فينـا، بقـدر مـا أننـا أقـل أورفيـة[2] أو أبوليناريـة[3] ممـا نحـن عبرانيـة. وأنـا أميـل إلـى الاعتقـاد أن هـذا التأثيـر هـو أكثـر قـوة عنـد البروتسـتانت ممـا هـو عنـد الكاثوليـك، وعنـد البروتسـتانت الأنكلوسكسـون أكثـر مـن غيرهـم. فالكتـاب المقـدس هـو بحـق وتقليديًـا الكتـاب الأسـاس للكنائـس المصلحـة، وفـي الكتـاب المقـدس لا يركّـز هـؤلاء علـى العهـد الجديـد فحسـب، وإنمـا علـى العهـد القديـم أيضًـا. ذلـك أن تأويـل آيـة مـن هنـا، أو كلمـة مـن هنـاك، مأخوذتيـن مـن سـفر التكويـن، أو مـن المزاميـر، أو مـن كتـاب الأنبيـاء، هـذا التأويـل هـو فـي أسـاس شـيع بروتسـتانتية عـدة فـي أميـركا، يتسـلل مـن خلالهـا نـوع مـن الحضـور الشـرقي إلـى قلـب الغـرب الأقصـى. وهكـذا، فإنـه مـن التجربـة اليوميـة فـي قـراءة الكتـب المقدسـة، يولـد فـي البـلاد الناطقـة باللغـة الإنكليزيـة نـوع مـن الثقافـة الكتابيـة (البيبليـة، متعلقـة بالكتـاب المقـدس) أكثـر شـعبية ممـا هـي أرسـتقراطية، محمّلـة بالأشـعار والألـوان وبالنغمـات الغنائيـة البليغـة وبالآمـال الإنسـانية. والشـيء الفريـد هنـا أن الديناميـة اليهوديـة وقـد انتقلت/تحولـت إلـى بروتسـتانتية اجتماعيـة، نجدهـا حتـى فـي التقنيـة الأكثـر تجهمًـا وتنفيـرًا، بحيـث يبـدو أحيانًـا (كمـا فـي حالـة كارل ماركـس) أن هـذه الديناميـة تلهـب التقنيـة بشـغفها العاطفـي.

إن الغـرب بأخـذه هـذه المقـولات الشـرقية القديمـة لحسـابه، قـد حوّلهـا إلـى حـد أنهـا صـارت تناقـض معناهـا الأول. فالمفهـوم الإنجيلـي للكرامـة الكامنـة فـي أدنـى

(2) نسبة إلى أورفيه. والأورفية تيار ديني في اليونان القديمة معروف بمجموعة من الأناشيد والتراتيل إضافة إلى بعض الكشوفات الأركيولوجية التي أظهرت صورًا وأوصافًا منقوشة أو منحوتة على ألواح وصخور وجدت في القبور القديمة. أما أسطورة أورفيه فغامضة وغير معروف أصلها وتاريخها وأشهر فصولها نزول البطل إلى قاع الجحيم بحثًا عن زوجته أوريديس (Eurydice). وهذه الأسطورة في أساس كثير من ممارسات التنسيب أو التعدية الغنوصية (initiation): النفس البشرية محكومة بالمرور بدورات بعث عدة لا ينقذها منها سوى طقوس التنسيب والتعدية التي تنقل النفس إلى حياة دائمة سعيدة حيث يلتقي الإنسان بالإله. ونحن نجد هذه الدعوة الخلاصية في صورة أدب شعري هيليني وبعضه نيوأفلاطوني محفوظ باسم أورفيه يعود إلى حوالى عام 560 ق.م وبعضه استمر حتى القرن الخامس ميلادي.

(3) نسبة إلى أبولينار (Apollinaire de Laodicée) (390-315م) ويسمى أيضًا أبولينار الشاب، كونه ابن أبولينار القديم (Apollinaris)، أسقف لاوذيقيا السورية (اللاذقية) انتخب عام 361، وكان زعيم هرطقة مسيحية سميت الأبولينارية.

البشـر اتضاعًـا تصبـح فـي القـرن الثامـن عشـر تأكيـدًا للمسـاواة السياسـية. وصرخـة الأنبيـاء الداعيـن إلـى العدالـة هـي فـي أسـاس الروحانيـات الصوفيـة الاجتماعيـة الحديثـة. وللمفارقـة هنـا، فـإن مـا كان نزاهـة زهديـة إنجيليـة يصيـر منبـع الفاعليـة: لقـد كان هـدف الديـن خـلاص الـروح (فـي الآخـرة)، ولكـن ممارسـة عـادة مقاومـة كل الإغـراءات، والزهـد فـي رقابـة صارمـة علـى الـذات، يتحـولان إلـى أداة للنجـاح الدنيـوي. يوجـد هنـا التبـاس غامـض ومقلـق مـن حيـث إن الإلهـام الغيبـي يقـود هنـا إلـى الإنجـاز المـادي. ويمكننـا والحـال هـذه أن نتسـاءل هنـا إن كانـت غيبيـة إبراهيـم الصوفيـة هـي المنبـع البعيـد لإمبرياليتنـا، إذ إن اللـه يكافـئ إيمـان إبراهيـم بوعـد بـأن يكـون لـه القوة/السـلطة الدنيويـة. وإذا اسـتمرينا فـي النظـر إلـى المسـألة علـى هـذا المنـوال فسـنصل إلـى حـد القـول بـأن الغـرب قـد مـارس نقلًا/تحويـلًا لربمـا كان مـن وجهـة النظـر الروحانيـة الدينيـة خيانـة.

لا الإغريـق ولا اليهـود عرفـوا كيـف يسـتخرجون القاعـدة، أكان مـن المبـدأ، أو مـن العاطفـة. ونحـن نديـن لرومـا بفكرتنـا عـن النظـام والانتظـام وبعدتنـا القانونيـة: لا بـل إنـه لا يوجـد غـرب حقيقـي أصيـل فـي القـارة القديمـة مـا سـوى داخـل الحـدود القديمـة للإمبراطوريـة (limes)[4]. لقـد كان بإمـكان آسـيا القديمـة أن تقيـم دولـة، ولكـن علـى شـكل اسـتبدادي؛ وكانـت المـدن الإغريقيـة قـد أسسـت ديمقراطيـة، ولكـن مـن دون أن تجـد ميـزان الوسـط المعتـدل بيـن الفوضـى والطغيـان. ولطالمـا حافظـت أوروبـا علـى حنينهـا للسـلم الرومانـي، أي لانتظـام كونـي مؤسَّـس علـى إدارة كبيـرة ويُخضـع كل الحضـارة للقوانيـن ذاتهـا. وفـي هكـذا نظـام، فـإن القانـون يحمـي الملكيـة مـن خـلال قوننتهـا وشـرعنتها، ومـن هنـا ذلـك الاسـتقلال المدنـي للفـرد. وبالتالـي، فـإن التصـور المفهومـي لمـا هـو الإنسـان، وهـو تصـوّر ولـد فـي شـرقي المتوسـط، سـيكون لـه تعبيـره التشـريعي القانونـي الـذي يضمـن لـه وجـوده. وبهـذا المعنـى أيضًـا كانـت رومـا، فـي مرحلتهـا الكاثوليكيـة، تـؤدب وتهـذب وتؤطـر التيـار الأسـاس فـي الإنجيـل، عبـر تحريـره مـن منبعـه اليهـودي.

---

(4) (limes) اسم مفرد، هو حدود دفاعية وفي الوقت نفسه نظام ترسيم حدودي في روما القديمة. وهو رسم حدود الإمبراطورية الرومانية.

هكذا، فإن تراثًا مثلثًا سيخترق العصر الوسيط كي يصل إلى العصور الحديثة؛ وهذه الثلاثية تتمثل بـ: تراث الإغريق المرادف للحرية الفكرية؛ تراث الإنجيل (مع انعكاساته اليهودية) رمز المثالية البشرية؛ تراث روما المعلّمة في مجال الانتظام والضبط والربط. ومن واحدة أو أخرى من هذه المصادر الثلاثة تغذت الواحدة تلو الإخرى كل مراحل القرن الثالث عشر، والنهضة، وعصر الأنوار. ومنذ ذلك الوقت كان الغرب يستطيع أن يظهر مكتملًا ناجزًا، وبمعنى ما: الأفضل ربما، وهو كان كذلك في الحقيقة. وكان ينقص فحسب كي يكون الغرب على ما نراه عليه اليوم، أي لإنجاز كماله أو لإخراجه عن محوره وإضلاله، مرحلة أخيرة هي مرحلة التصنيع.

إن الأخذ بتقنية جديدة، أي تقنية الصناعة الآلية، هو الذي جعل من الغرب ما هو عليه اليوم، وذلك بتزويده بالسلاح الأهم والحاسم لقوته وسلطانه. وقد بدأت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر، بعد أن مهد لها منهجية أبدعها علماء القرن السابع عشر وفلاسفته شقت للإنسانية طرائق جديدة حقًا. وبهذه المناسبة يجب أن نميز ما بين العلم والتقنية. وقد سبق لهؤلاء الإغريق أن تصوروا قواعد الملاحظة العلمية، وإلى حد ما التجربة التطبيقية. وقد كانوا يمتلكون فكرة القانون الطبيعي لدرجة أن العلماء المحدثين لم يأتوا بجديد في هذا الشأن، لكن العلماء الأقدمين، كانوا في ما عدا بعض منهم، مهتمين بالعلم النظري، لشغفهم بالتأمل البحت (وهو بنظرهم أكثر نبالة)، أكثر من البحث عن التقدم المادي. وقد كانوا يعيشون تحت سماء مناخ البحر المتوسط المريح والذي لا يجعل من مشاغل الحياة العملية أمرًا حتميًا بالنسبة إليهم: وكان أرخميدس يعتذر عن اختراعات الإبداعية! أما في حضارة مركزها انتقل إلى شمال غربي أوروبا، فكان يجب أن نشن حربًا ضد البرودة والرطوبة وتقلبات الجو المفاجئة، وأن نقلق بالضرورة حيال كيفية ترتيب راحة أكبر في الحياة اليومية. وفي ظل هذه الظروف كان من الطبيعي أن يتجه العلم اتجاهًا بعيدًا من المشاهدة والتأمل؛ وأن تبدأ التقنية بتحضير نفسها كي تتغلب على العلم. وقد ظل حب المعرفة عند المفكرين والعلماء القوة الدافقة المسيطرة بلا شك، ولكن لم يعد بمقدور العلم إهمال التطبيق. والحال أن الفكر هو

الـذي كان يقـدم للعلـم طرائـق الاهتمـام بالتقنيـة: فالطريقـة التجريبيـة للفيلسـوف الإنكليـزي بيكـون (Bacon) هـي مصـدر الفاعليـة الحديثـة، وطريقـة الفيلسـوف الفرنسـي ديـكارت تتضمـن فعليًـا بـذور العقلانيـة الأميركيـة. وهـؤلاء المفكـرون أو الفلاسـفة الذيـن نعتبرهـم امتـدادًا لمفكـري الإغريـق هـم الذيـن هيـأوا لظهـور الازدهـار الصناعـي الرائـع فـي القرنيـن التاسـع عشـر والعشـرين، وذلـك بفضـل الطرائـق والمنهجيـات التـي طوروها.

علـى أن «الآليـة» كمـا يمارسـها الغـرب، لـم تكـن ممكنـة بغيـر العلـم والمنطـق علـى الطريقـة الإغريقيـة، وهـذا مـا لا يمتلكـه الشـرق، لا بالأمـس ولا اليـوم. وهـذه «الآليـة» هـي أولًا «تقنيـة فنيـة»[5] (technique)، تقنيـة امتـلاك القـوى الطبيعيـة التـي تخضـع لاسـتغلال الإنسـان والتـي تتضاعـف قواهـا بهـذا إلـى غيـر حـد. ولـم تكـن الأدوات المسـتخدمة فـي العصـر الحجـري لتتحـرك إلا بواسـطة الطاقـة العضليـة للإنسـان وهـي محـدودة للغايـة؛ علـى أن الآلـة فـي العصـر الحديـث - علـى الرغـم مـن أنهـا ليـس لهـا علاقـة البتـة بعضـلات الإنسـان - لا تعـرف لهـا حـدودًا فـي الإنتاجيـة، بحيـث إنـه يصبـح مـن خلالهـا كل شـيء ممكنًـا مـن بعـد. وقـد ترتـب علـى هـذا التطـور شـكل جديـد تمامًـا مـن الحيـاة الاجتماعيـة للإنسـان، لأن العلـم الـذي أضحـى فـي خدمـة الصناعـة، كمـا غـدا شـيئًا مختلفًـا تمامًـا عـن مجـرد الفضـول الخالـص فـي المعرفـة، تحـول إلـى علـم منتظـم مرتبـط بالوقائـع كـي يطوّعهـا فـي خدمـة حاجيـات الإنسـان. ومـا يسـيطر اليـوم علـى الإنسـان هـو الرغبـة فـي الاقتـدار والقـوة، والتعجـل فـي اسـتغلال الأرض التـي يعيـش عليهـا. والإنسـان هـو سـيد طرائقـه وتدابيـره، ولكنـه لـم يعـد سـيد نفسـه: فهنـاك نـوع مـن الرومنطيقيـة المنفلتـة مـن عقالهـا تسـتولي عليـه، وهـي التـي عبـر عنهـا الكاتـب الفرنسـي بارّيـس (Barrès) بقولـه: «إنهـا طريقـة منهجيـة فـي خدمـة شـغف عاطفـي».

وليـس عصـر الآلـة مرحلـة تاريخيـة محـددة، ولكنـه عصـر جديـد للبشـرية: فبعـد العصـر الحجـري الـذي يمـر أمامنـا، يظهـر عصـر الآلـة: وهـذا العصـر يوافـق سياسـة الإسـراف المبتذلـة للثـروات الطبيعيـة فـي العالـم والتـي لا يهمهـا الاهتمـام والتفكيـر

---

(5) مجموعة المناهج والطرائق في الفن كما في الصناعة.

فـي آثـار هـذا الإسـراف علـى مسـتقبل العالـم، ولعـل هذا مـا يفسـر جزئيًـا ذلـك الانطباع المتكـون عندنـا عـن وجـود إثـراء مفاجـئ وغيـر متناسـب وهـو انطبـاع توحـي بـه تلـك الحضـارة التـي تصـرف رأسـمالها. وقـد احتكـر الغـرب لمـدة قـرن ونصـف القـرن العلـم والصناعـة الميكانيكيـة، وبذلـك اسـتمد منهـا قـوة لا يوجـد شـيء يسـتطيع مقاومتهـا. فالتـوازن الـذي كان فـي القـرن السـابع عشـر بيـن أوروبـا وآسـيا لـم يعـد لـه وجـود. وحيـن اكتشـفت آسـيا متأخـرة أن التقنيـة الفنيـة الغربيـة تـرادف السـيطرة والتسـلط، حاولـت جهـد طاقتهـا أن تقلدهـا ولـم يكـن ذلـك بسـبب إعجابهـا بهـا، بـل مـن أجـل الدفـاع عـن نفسـها. واليـوم تطالـب جميـع القـارات والبـلاد والأعـراق بتعميـم الآلـة. ولكـن اسـتعمال الآلـة شـيء سـهل، أمـا اختراعهـا وتجديدهـا فهـو شـيء آخـر؛ وهنـا يتبـدى الأسـاس الصلـب، علـى الرغـم مـن كل شـيء، الـذي يقـوم عليـه التفـوق الغربـي. والظاهـر مـن هـذا التفـوق هـو التقـدم التقنـي، غيـر أن النجـاح الـذي أحـرزه الغـرب يعتمـد علـى عوامـل متشـعبة للغايـة بقـدر تشـعب المصـادر القديمـة التـي نشـأ منهـا وتنوّعهـا. ونحـن نـرى هنـا تباشـير أزمـة محتملـة لحضارتنـا تلـوح فـي الأفـق: ذلـك أن تقنيتهـا تتغـذى أساسًـا مـن ثقافتهـا؛ وهـي بإنكارهـا ثقافتهـا، أو بميلهـا وانحرافهـا المبالـغ بـه صـوب التقنيـة، فإنهـا تضـرب فـي الصميـم مصـادر حيويتهـا نفسـها.

(2)

لقـد تكونـت الحضـارة الغربيـة فـي وسـط جغرافـي خـاص، حيـث نشـأت فـي الأصـل فـي حـوض البحـر المتوسـط عمومًـا وفـي شـرقه خصوصًـا. وبتعـارض مـع الكتلـة القاريـة الآسـيوية كانـت الحيـاة الإغريقيـة بَحريـة متمفصلـة ومتنوعـة. كمـا أن رومـا علـى الرغـم مـن أن بنيتهـا كانـت أكثـر صلابـة، فإنهـا ظلـت متوسـطية أيضًـا. ثـم إن النظـام الصناعـي الـذي هـو الطابـع المميـز للغـرب اليـوم، تبلـور فـي وسـط أوروبـا وشـمالها الغربـي. حتـى ولـو أن حاضنـة التقـدم التقنـي تميـل إلـى التمركـز فـي العالـم الجديـد، فإنـه ينبغـي دائمًـا الاعتـراف بـأن النبـض الأول لهـذا التقـدم كان فـي العالـم القديـم. هنـاك إذًا ظـروف وشـروط جغرافيـة يمكـن التعـرف إليهـا بسـهولة هـي التـي كانـت فـي أسـاس حضارتنـا.

وإنـي لأرى أولًا، وفـي حـوض البحـر المتوسـط خصوصًـا، بيئـة جغرافيـة مناسـبة لحيـاة البشـر باعتـدال، حيـث لا تقسـو الطبيعـة أو تشـتد تجـاه الإنسـان. وقـد كان السفسـطائي الإغريقـي بروتاغـوراس[6] (Protagoras) يقـول فـي هـذا المقـام قـولًا مميّـزًا: «إن الإنسـان هـو المعيـار الوسـط للأشـياء». ويصـف بـول فاليـري (Paul Valéry) قـول هـذا الفيلسـوف بأنـه متوسـطي أساسًـا، ويمكـن القـول بأنـه أوروبـي أيضًـا. والواقـع أن الإنسـان فـي القـارة القديمـة قـد كيّـف نفسـه مـع الطبيعـة. والشـيء نفسـه ينطبـق علـى المنـاخ بوجـه عـام فهـو منـاخ معتـدل هـادئ بحـري (ريحـه جنوبيـة شـرقية)، وليـس مناخًـا قاريًـا عدوانيًـا (المعـروف بشـدة حرارتـه وبرودتـه)، أي إنـه - علـى حد تعبيرهـم - بيـن بيـن؛ علـى أنـه لا يثيـر فـي الإنسـان البـلادة أو الحماسـة فـي العمـل الـذي يفيـض عـن الحاجـة، بـل إنـه علـى العكـس يثيـر فـي المـرء حالـة وسـط من الجهـد المـوزون والنتائـج التـي يمكـن احتسـابها مسـبقًا، ففـي مثـل هـذه البيئـة توجـد علاقـة بيـن الإنسـان والطبيعـة التـي يعيـش فيها. وهـذا الأمـر يقتصر علـى أوروبا فحسـب مـن بيـن القـارات كلهـا. ونتائـج تأثيـر مثـل هـذا المنـاخ علـى الإنسـان واضحـة. فإمـكان قيـاس المجهـود للوصـول إلـى الهـدف المقصـود، هـي مولّـدة لأخلاقيـات، وفـي الأقـل مـا يتعلـق منهـا بشـعور معقـول حيـال السـلوك والتصـرف، يتضمـن تصـورًا دقيقًـا للزمـان والمـكان. أمـا إذا كانـت البيئـة الجغرافيـة شاسـعة المسـاحة غير معتدلـة المنـاخ، كما هو الحـال فـي أفريقيـا وآسـيا وأميـركا مثـلًا، فـإن هـذا النـوع مـن الأخلاقيـات المتوازنـة فـي السـلوك، لا تكمـل صورتـه فـي مثـل هـذه القـارات. وعلـى ذلـك يكـون العمـل فيهـا إمـا مفرطًـا فـي السـهولة وإمـا مفرطًـا فـي الصعوبـة، كمـا لا تنشـأ علاقـة ثابتـة بيـن المجهـود المبـذول ونتائجـه المرتقبـة: ومـن هنـا روح التأمـل التـي تعطيـك ادعـاء الحصـاد من دون انتظـار، أو لاوعـي المـزارع الـذي يؤمـن بأنـه يسـتطيع أن يطلـب كل شـيء مـن الأرض مـن دون أن يسـتنزفها. فـي حيـن يؤمـن الفـلاح الأوروبـي إيمانًـا راسـخًا بطاقـة الإنسـان

(6) بروتاغوراس (Protagoras) فيلسوف إغريقي ما قبل سقراطي، عاش بين عامي 490 ق.م و420 ق.م على وجه التقريب. عده أفلاطون واحدًا من السفسطائيين، وذلك في حواره المعنون باسمه (بروتاغوراس)، حيث يصفه بأنه أول من اخترع وظيفة السفسطة. اشتهر بعباراته التي أثارت ولا تزال تثير الجدل: «الإنسان هو معيار كل شيء»، والتي فسرها أفلاطون على أنها تعني أنه لا يوجد حقيقة مطلقة.

المحـدودة، وضـرورة مسـايرة إنتاجـه لطاقتـه. وقـد تكـون الحـرب هـي التـي جلبـت معهـا هـذا السـلوك الاقتصـادي. بيـد أنـه عندمـا نقـارن تصرفاتنـا فـي العمـل والإنتـاج بمثيلاتهـا فـي الأعـراق الأخـرى، بـل مـع إخواننـا مـن العـرق الأبيـض فـي مـا وراء أوروبـا، نجـد أن أوروبـا قـد أرسـت مبـادئ وخُلُقيـات خاصـة بالعمـل كانـت أحـد عوامـل نجاحها.

وعلـى الرغـم مـن أنـه ليـس كل البيـض مرتبطيـن فـي مـا بينهـم بهـذه الفكـرة، إذ إن بيـض آسـيا ظلـوا يقاومونهـا، فـإن الحضـارة الغربيـة فضـلًا عـن أنهـا ثمـرة مـن ثمـرات بيئـة معيّنـة، فهـي كذلـك عمـل مـن أعمـال عـرق بعينـه. فالبيـض وحدهـم، مـن دون غيرهـم، هـم الذيـن صنعـوا حضـارة الغـرب. والمسـافة التـي تفصـل البيـض عـن السـود والحمـر مسـافة كبيـرة جـدًا. وإذا كان أبنـاء العـرق الأصفـر يمتلكـون فاعليـة تضاهـي فاعليـة البيـض، فإنهـم يقاسـون مـن تأخـر تقنـي يقـدر بثلاثـة قـرون. وفـي هـذه الظـروف، فـإن حضارتنـا تشـمل منطقـة جغرافيـة نشـعر فـي مـا بيننـا وبيـن أنفسـنا أنـه مـن الصعـب تعييـن حـدود لهـا. والحـال أنـه فـي العصـور القديمـة كان الشـرق قبـلًا يتميـز مـن ذلـك الشـيء الـذي لـم يكـن قـد سـمي الغـرب، أي مـن ذلـك العالـم الهيلينـي الـذي كان عليـه أن يخلـق طريقـة جديـدة فـي التفكيـر. فبحـر «إيجـه» بمدنـه الإغريقيـة الواقعـة علـى الشـاطئ الآسـيوي كان يمثـل حضـارة غيـر حضـارة الفـرس الشـرقية الخالصـة. وحيـن امتـدت الهيلينيـة فـي عهـد الإسـكندر الأكبـر حتـى وصلـت إلـى الهنـد، بـدا وكأن حـدود حضارتنـا قـد تراجعـت حوالـى 2000 كلـم صـوب الشـرق، إلا أن ذلـك كان مجـرد مـد مؤقـت، إذ مـا إن حـل القـرن الثانـي بعـد الميـلاد حتـى اسـترد الشـرق حقوقـه حيـن جعـل مـن الفتـح الهيلينـي نفسـه «شـرقيًا»: فمـع الحـدود (limes) التـي توقفـت فـي سـوريا علـى بوابـة الصحـراء، بـدا وكأن هنـاك نوعًـا مـن الحـدود الجغرافيـة القديمـة ترتسـم مـن جديـد. أمـا مـع العـرب، فـإن الشـرق هـو الـذي فـاض علـى الغـرب، فـي المتوسـط، وحتـى المحيـط. وكان العـرب يومهـا أكثـر ثقافـة وتهذيبًـا مـن الغربييـن. وكانـوا هـم الـرواد الأول قبـل الغـرب فـي المبـادأة (d'initiative) والحريـة الفكريـة التـي اقتبسـها الغـرب منهـم وبفضلهـا أكّـد عظمتـه فـي مـا بعـد. وأخيـرًا، ومـع انحطـاط الإمبراطوريـة العثمانيـة ونهايتهـا عدنـا مجـددًا إلـى حـدود الماضـي.

تـرى مـا هـي هـذه الحـدود؟ يبـدو أن حـوض البحـر المتوسـط، ومهمـا كان حجـم التأثيـرات الشـرقية المتغلغلـة فيـه، وفـي تبايـن مـع القـرى الخلفيـة الغارقـة فـي عمـق القـارة، لا يـزال يُحسـب علـى الغـرب. علـى السـاحل، نـرى أن الموانـئ المسـماة بالأسـكلة[7] تنتمـي إليـه (أي المتوسـط)، وتقـف فـي مقابـل تلـك المخازن/المسـتودعات الداخليـة، وهـي موانـئ فعليـة للصحـراء، والتـي غالبًـا مـا سـميت بالبـازار. وفـي حيـن أن الإسـكندرية وبيـروت وطرابلـس هـي متوسـطية، فـإن القاهـرة والقـدس ودمشـق وحلـب تسـتظل بمنـاخ يختلـف عـن منـاخ تلـك الموانـئ وتنتمـي إلـى عالـم غيـر عالمهـا. إذًا هنـاك اختـلاف بيـن منطقتيـن جغرافيتيـن وبيـن حضارتيـن، وليـس مـن الخطـل أنـه جـرى الـكلام علـى المتوسـط علـى أنـه مضـاد الصحـراء. وإضافـة إلـى ذلـك، فـإن الشـرق يبـدأ مـع الإسـلام الـذي اسـترد كل مـا قامـت بـه أثينـا ورومـا مـن غـزوات وفتوحـات فـي آسـيا. وباختصـار، فإنـه لـم يكـن ممكنًـا لحيـاة الصحـراء والمسـاحات البريـة الشاسـعة أن تتغـرب: إنهـا تنتمـي للشـرق، ولهـذا رجعـت إليـه.

علـى أن العبـور بيـن أوروبـا القـارة وآسـيا هـو أقـل وضوحًـا، فالغـرب الخالـص يمثـل أوروبـا الغربيـة ووسـط أوروبـا، أمـا بعـد ذلـك وبالاتجـاه نحـو الشـرق نجـد تدرجًـا فـي المنبسـطات: فمناطـق الوقـت تقسـم القـارة بدقـة إلـى كتـل حضاريـة. وحيـن نبلـغ السـاعة الروسـية، فلعلنـا لا نكـون ربمـا بلغنـا آسـيا، ولكننـا لسـنا أيضًـا فـي أوروبـا تمامًـا، إنمـا نحـن بالتأكيـد تركنـا الغـرب وراء ظهرنـا.

وأخيـرًا، فهنـاك فـي الغـرب الأقصـى ذلـك الجـزء مـن حضارتنـا الـذي لـم يعـد أوروبيًـا: الولايـات المتحـدة، الممتلـكات البريطانيـة، بلـدان أميـركا الجنوبيـة، فـي الأقـل بقـدر مـا أن العـرق الأبيـض هـو المسـيطر فيهـا. وعلينـا أن نضيـف مسـتعمرات الاسـتغلال التـي يديرهـا البيـض والتـي تشـكّل مـا يشـبه الأسـكلات نوعًـا مـا. ولكـن

(7) أساكل، جمع أسكلة، هي مرافئ ومدن الشرق في الإمبراطورية العثمانية، على امتداد الشرق الأوسط وأفريقيا الشمالية. والتسمية تأتي من الكلمة التركية iskele التي تعني المرفأ أو مربط السفن، وهي اللسان البري الممتد في البحر والذي منه ينطلق البحارة والبضائع. وفي السجلات الشرعية العثمانية تعني كلمة الأسكلة ميناء طرابلس تحديدًا.

يجب أن نترك خارج هذا العالم تلك البلدان التي مع استخدامها تقنياتنا واتباعها مظاهر حضارتنا المادية، لا تزال تنتمي روحيًا إلى حضارة أخرى. ومن هذا المنظار لا مصر ولا باكستان ولا هندوستان هي من عائلتنا، ولعل هذا الأمر يوضح وحدة الأساس المسيحي للعالم الغربي التي هي ربما الوحدة الأكثر واقعية، وتلك النزعة الإنسانية، وحس الشفقة والرحمة، والإحسان، والتي تغطي، بحسب عبارة القديس بولس، «حشد من الآثام والخطايا».

وفي ضوء هذه المميزات، وحين نكنس كل الادعاءات والمظاهر والنفاق، فإن الروح الحقيقية للحضارة الغربية ستبرز بالإجمال واضحة نقية. وفي عمقه الأساس يعتقد الغرب ويؤمن بأن المرء يمكنه ويجب عليه أن يصنع مصيره بنفسه، فهو لن ينتظر إذًا أن تزف إليه السماء أسباب السعادة، بل سيتدخل بنفسه بعد أن يحدد هدفه الذي يسعى إليه والوسائل اللازمة للوصول إلى هذا الهدف. وهذا نفي للقدرية وللسلبية، لأن التركيز هنا هو على المظهرين المادي والاجتماعي للأمور؛ والموضوع هو دائمًا التقدم البشري أكثر من كونه الروحانية. وهؤلاء الذين يعرفون قارة آسيا حق المعرفة، لا يغيب عن بالهم مدى اختلاف المناخ العام هنا وهناك، وكيف أن آسيا تستسلم، حتى اليوم، للفقر والجوع والمرض وحتى للضعف الجسماني العام. ويبدو أن الآسيويين يضعون المصدر الحقيقي للسعادة في مكان آخر غير التقدم المادي.

والغرب يتحدث كثيرًا عن الله، لا بل يسهب كثيرًا في حديثه، بيد أنه في الأغلب يتصرف كما لو أنه لا مبرر كي يتكل عليه. ويحمل المثل القائل: «عاون نفسك، فإن الله سيعاونك»[8]، دلالة كبيرة في هذا الصدد. وقد كتب لا فونتين (La Fontaine) في هذا المعنى يقول[9]: «هرقل يريدنا أن نحرك أنفسنا قليلاً ثم يأتي هو للمساعدة» (بمعنى أنه على المرء أن يساعد نفسه أولًا، ثم تأتي بعد ذلك مساعدة الله له). لذا، فعلى المرء أن يعمل ويجد في أموره بنفسه كما لو أنه لن يجد أي معونة من السماء. وهذا يعتبر «علمنة» لمسألة «العمل» تقود

---

(8) المثل الشعبي: اسع يا عبدي كي أسعى معك.

(9) في إحدى قصائده المسماة: «Le Chartier Embourbé»

فـي النهايـة إلـى إيجـاد وتحديـد حقل/ميـدان، مدنـي إن شـئتم القـول، حيـث يسـود حصـرًا حكـم العقـل وطرائقـه. فنحـن هنـا نطبـق إذًا حرفيًـا قسـمة العالـم مـا بيـن اللـه وقيصـر، وهـذا الأخيـر عنـده مملكـة كاملـة لـه أكبـر بكثيـر ممـا قـد نظـن. وقـد علـق المـؤرخ الفرنسـي إرنسـت رينـان (Ernest Renan) علـى القـول الشـائع عـن المسـيح: «اعـط مـا لقيصـر لقيصـر ومـا للـه للـه» بأنـه «أسـاس الحضـارة الغربيـة. وهـي عبـارة عميقـة قـررت مسـتقبل المسـيحية فـي العالـم. وهـي أيضًـا عبـارة ذات روحانيـة كاملـة ومعنـى دقيـق وعميـق، أسسـت الفصـل مـا بيـن السـلطتين: «الروحيـة والزمنيـة»، ووضعـت دعامـة الليبراليـة الحقـة والحضـارة الحقيقيـة»[10].

هـذا التمايـز بيـن حيـاة مدنيـة وحيـاة دينيـة هـو فـي الحقيقـة شـيء لا يعرفـه الشـرق: فـلا يوجـد أي حجـاب حاجـز بيـن هذيـن الحقليـن. وفـي الإسـلام يبـدو وكأنـه لا يمكـن تصـوّر وجـود قانـون مدنـي. فثمـة سلسـلة طويلـة مـن الأفعـال، وبعضهـا مـن أهـم مـا تقـوم بـه الحيـاة اليوميـة، تبقـى محـددة بالحجـج النابعـة مـن الإيمـان الدينـي أو مـن النبـوة أو السـحر، وليـس مـن العقـل والتجربـة. وهـذا علـى عكـس مـا يقـوم بـه الغـرب مـن مباشـرة الأمـور العمليـة مـن دون نـدم وبواسـطة اعتبـارات وإجـراءات عمليـة: وكل الادعـاءات المناقضـة تتلاشـى هنـا.

وأظننـي مجبـر هنـا علـى الذهـاب أبعـد مـن ذلـك: إذ إننـا نعمـل مـن دون الآلهـة، كمـا يقـال، وإن دعـت الضـرورة فبالضـد منهـم أيضًـا. ولقـد كان بروميثيـوس[11] (Prométhée) يمثـل شـخصية الثائـر الـذي يسـتنهض مقاومـة البشـر ضـد الخضـوع والطاعـة التـي تنـادي بهـا الآلهـة. ومـن طريـق هـذه الثـورة أخـذت ظـروف البشـر فـي التحسـن. علـى أن أوروبـا اليـوم، وهـي تواصـل يوميًـا تـراث أنصـاف الآلهـة، تعبّـر فـي

---

(10) Ernest Renan, Vie de Jésus (Paris: Calmann-Lévy, 1863).

(11) في الميثولوجيا الغربية بروميثيوس (Promêtheús) هو من العمالقة أو الآلهة الأوائل البدئيين الذين خلقوا الإنسان من بقايا طين تحول إلى صخور، وهو من سرق النار المقدسة التي كانت مشتعلة على الدوام في الأوليمبوس وخبأها ثم أعطاها للبشر بعد أن كان الإله زوس (Zeus) قد أخذها من البشر أول مرة. وقد غضب زوس (إله الآلهة) عليه لفعلته هذه وحكم عليه بأن يبقى مربوطًا إلى صخرة على قمة جبل القوقاز، يأكل صقر القوقاز كبده كل يوم ويعود هو إلى الحياة في الليل. وقد جاء هرقل لاحقًا وقتل الصقر وخلص بروميثيوس من عذابه.

الحقيقـة عـن هـذا اللاخضـوع واللامتثاليـة، الأمـر الـذي يحفـظ لهـا حيويتهـا، كمـا أن الحركـة تجعـل الميـاه حيـة. ويحـق لنـا أن نتسـاءل إن كان الأخـذ بموقـف امتثالـي، علـى شـكل دولـة توتاليتاريـة علـى سـبيل المثـال، قاضيًـا علـى المسـتقبل الحقيقـي للقـارة. ذلـك أن أسـلوب النقـد والكفـاح أمـر متأصـل فـي القـارة الأوروبيـة: كفـاح مـن أجـل الدفـاع عـن الحـدود أو عـن وحـدات سياسـية ترفـض الاندمـاج مـع بعضهـا بعضًـا، كفـاح مـن أجـل تحديـد مـن يملـك الهيمنـة ويقـرر كيفيـة قيـادة العالـم. فتاريـخ أوروبـا كلـه ليـس إلا سلسـلة مـن الحـروب الداخليـة بيـن دول متنافسـة لا تملـك واحـدة منهـا القـوة اللازمـة للسـيطرة علـى الآخريـن. ومـع ذلـك، فـإن وحـدة الحضـارة الأوروبيـة لـم تكـن قـط موضـع تشـكيك أو تسـاؤل، وهـذا يعتبـر خاصيـة مـن خصائصهـا المميـزة وهـي أن هـذا الشـقاق السياسـي كان متطابقًـا مـع ثقافـة مشـتركة. فهنـاك تعايـش بيـن روح إبداعيـة وتنظيـم وضعـي وعقـل نقـدي سـرعان مـا يتحـول إلـى روح ثوريـة، تـزن الأمـور وتقيسـها وتناقشـها، وإن لـزم الأمـر تنفيهـا. فهـل كانـت أوروبـا تسـتطيع المحافظـة علـى حيويتهـا مـن دون هـذا التناقـض؟ علـى أن هـذا التناقـض هـو أيضًـا الـذي يقتلهـا. وهـذه اللامتثاليـة انتقلـت أولًا عبـر الأطلسـي، ولكـن لا يبـدو أنهـا مسـتقرة هنـاك. والنتيجـة القادمـة رائعـة، ولكـن أليسـت تلـك إحـدى ينابيـع الغـرب الأقصـى الحيـة التـي قـد يفقدهـا بالتالـي.

لقـد حدثـت نفسـي دائمًـا بـأن أي عمليـة تربيـة وتعليـم غربيـة كاملـة لا بـد وأن تنتهـي بحـج إلـى «هـذه الأمكنـة التـي لهـا معنـى خـاص للـروح» كمـا يقـول بارّيـس، والتـي تشـكلت فيهـا الحضـارة الغربيـة. فـإذا أتيـح لـي أن أحـج إلـى هـذه البـلاد، فإننـي أبـدأ بالقوقـاز للبحـث عـن صخـرة «بروميثيـوس»، وفـي مـكان مـا مـن بـلاد اليونـان القديمـة الموقـع الأسـطوري الـذي أنجـز فيـه هرقـل انتصاراتـه، وهـو الـذي كان يدعونـا إلـى أن نتحـرك... وسـيكون المركـز الرئيـس لزيارتـي الأكروبـول، حيـث كل واحـد منـا سيسـتعيد هنـاك صـلاة رينـان، إلا أنهـا صـلاة مـن وحـي آخـر مختلـف سـتجري فـي القـدس. ولـن أكـون متناقضًـا مـع نفسـي إن قلـت إن بحثنـا هنـاك لـن يكـون عـن المسـيح وحـده، ليـس لأن المـكان ليـس مناسـبًا لذلـك، ولكـن لأنـه لا يجـوز أن نربـط بيـن مـكان محـدد وذاك (المسـيح) الـذي بشّـر بـأن ديـن الـروح والعقـل ليـس لـه حـدود سـوى حـدود البشـرية نفسـها. وأمـام صخـرة إبراهيـم سـأنتقل بالفكـر

نحـو أول تصـوّر مفهومـي للإلـه الشـخصي الـذي لا يـزال هـو إلهنـا، وأتضامـن مـع الذيـن يؤمنـون بـه. وأظـن أننـي لا أريـد أن أنسـى الإسـكندرية ولكننـي سـأنتقل فـي مـا بعـد صـوب رومـا، حيـث سـأتأمل حـال تلـك المدينـة الفريـدة والتـي وهـي حاملـة شـكل الإمبراطوريـة أم شـكل الكاثوليكيـة، غرسـت فـي حضارتنـا المفهـوم الأسـاس للنظـام والانتظـام.

كمـا أننـي بصفتـي حاجًـا شـغوفًا أريـد كذلـك أن أتنقـل فـي مختلـف الأماكـن التـي تكونـت فيهـا طرائـق العلـم والتقنيـة الحديثـة بفضـل عبقريـة بعـض الرجـال. علـى أن الاختيـار هنـا يصبـح شـبه مسـتحيل. فهـل أبحـث فـي مـكان مـا مـن ألمانيـا عـن «الموقـع القطـب» الـذي وضـع لنـا فيـه «ديـكارت»، فـي هـدأة إقامتـه الشـتوية، قواعـد التفكيـر التـي مـا زلنـا نسـتخدمها الآن؟ وهـل أجـد فـي البحـث عـن مـكان ذلـك البسـتان الـذي شـاهد نيوتـن (Newton) سـقوط التفاحـة مـن إحـدى أشـجاره؟ وهـل ألحـق خطـى وات (Watt) أو دنيـس بابـان (Denis Papin) مخترعـي الآلـة البخاريـة التـي أقامـت دعائـم الثـورة الصناعيـة؟ أم أبحـث عـن كلـود برنـار (Claude Bernard) فـي ذلـك المختبـر المتواضـع فـي الكوليـج دو فرانـس والـذي عمـل فيـه علـى إتقـان الطريقـة التجريبيـة فـي العلـوم؟ أم عـن باسـتور (Pasteur) فـي ذلـك الزقـاق مـن شـارع أولـم بباريـس، حيـث كان لـه السـبق فـي فتـح نافـذة أمـام عظمـة العالـم الجديـد؟... إن المحاولـة هنـا سـتصبح جـد جمعيـة، وأيضًـا ضخمـة جـدًا علـى وجـه الخصـوص، كـي يكـون بالإمـكان أن نجمـع حـول مـكان مـا كل الملاحظـات السـاحرة الفاتنـة التـي تدعونـا إليهـا تلـك المحاولـة.

لكننـي أفضـل حينئـذ أن أغيّـر مـن مجـال رحلاتـي كـي أنتقـل إلـى المغامـرة! فأبـدأ مـع فيكتـور بيـرار (Victor Berard) فـي المسـير علـى خطـى رحلـة عوليـس، وفـي إعـادة بنـاء صـورة تلـك الغـزوة المدهشـة التـي قـام بهـا البحـار الاسـكندنافي لييـف أريكسـن (Leif Ericksen) الـذي اكتشـف أميـركا منـذ القـرن الحـادي عشـر، ولكـن اكتشـافه لـم يتـرك أثـرًا نظـرًا إلـى انعـدام الدعايـة لـه (ويـا لـه مـن درس بليـغ!). وسـأصّر جـدًا علـى زيـارة تلـك الشـواطئ الجنوبيـة الغربيـة مـن أوروبـا والمفتوحـة علـى المـدى وعلـى الحلـم، والتـي كان مستكشـفو النهضـة ينطلقـون منهـا نحـو عوالـم مجهولـة: منهـا

كنيسة بيليم (Belem) في لشبونه، حيث يستريح فاسكو دي غاما في الموقع نفسه الذي منه انطلق في فتوحاته الهندية، أو دير سانتا ماريا الرابضه (Santa maria de La Rabida) قرب وَلْبَة (مدينة في الجنوب الغربي من إسبانيا عاصمة مقاطعة ولبة من منطقة الأندلس) (Huelva)، حيث نسمع صوت المحيط من دون أن نراه، وحيث نام كريستوف كولومبوس ليلة سفره نحو عالم جديد. يا لهذه الرحلة الرائعة التي لا مثيل لها يا سيد كوك (Cook)!

(3)

وبعد، فإني لا أدري إن كان الغرب بذاته أرفع منزلة أو أرقى من الشرق. إذا كان المقصود الناحية الأخلاقية أو حياة الروح، فإن الشرق لا يعترف بهذا التفوق عليه، أما في مجال الفاعلية فما من شك أن الغرب يتغلب على الشرق. ويجب علينا أن نحلل أسباب هذا التفوق الفذ والخارق.

إننا نلمس بوضوح وجلاء تفوقنا ورفعة منزلتنا في ميدان التقنية. حتى القرن السابع عشر بقليل لم تكن الكفة لمصلحتنا. وقد كان يتوفر لدى الهنود والصينيين والعرب طوائف من الصناع المهرة في مختلف الصناعات، وقد تفوقوا علينا في هذا الميدان بكثير، حتى باعترافنا نحن. فالأنسجة الهندية، والأواني الخزفية والأصماغ الصينية، تنم عن دقة الصنع ومهارة الإبداع التي لم نستطع أن نتعداها أو أن نبلغها حتى. وكثير من الاختراعات التي قمنا بتنميتها لاحقًا أخذناها عن آسيا من دون أن تكون هذه الأخيرة قد اهتمت بالاستفادة منها: فقد استخدمنا مسحوق البارود في صنع قنابل المدافع، في حين كان الصينيون يستخدمونه في صناعة الألعاب النارية!. وفي مجال التقنيات الحرفية التي تدل على التفتح المفيد للعصر النيوليتي، لم يكن الغرب ليحتل المكان الأول فيها. والحال أن الآلة هي التي تؤرخ لمصلحتنا بداية تفتح لا مثيل له. ونحن والحق ما زلنا إلى اليوم نمتلك احتكار الآلة إلى حد كبير: فالمنتجات الميكانيكية الثقيلة والصعبة لا تصنع إلا في الغرب، ويمكن صناعة المنتجات الميكانيكية الخفيفة والسهلة في أي بلد آخر غير بلاد الغرب. وحتى اليابان

نفسـها وعلـى الرغـم مـن تفوقهـا فـي بعـض التخصصـات، نجـد أنهـا غيـر قـادرة علـى أن تقوم بـكل الأشـياء.

ومـع ذلـك، فقـد أجـادت آسـيا إدارة آلات الغـرب وهـي تسـتخدمها برشـاقة وبوعـي حـاد للتقليـد، وخصوصًـا أنـه يتـم بكلفـة زهيـدة، ذلـك لأن اليـد العاملـة لا تكلفهـا شـيئًا علـى وجـه التقريـب. فثمـن التكلفـة لصناعـة غـزل القطـن فـي اليابـان أو الصيـن تتحـدى كل منافسـة لهـا فـي العالـم. ومـن هنـا ذلـك التصـور الواهـم الـذي يظـل يـراود الشـرقيين، حيـن يقولـون للغربييـن: «نحـن نملـك مـن الآن فصاعـدًا آلاتكـم ونجيـد اسـتخدامها، فنحـن إذًا علـى قـدم المسـاواة. والتفـوق الـذي كان لكـم بالأمـس علينـا، لـم يعـد لكـم اليـوم». وفـي الحقيقـة أن الطائـرة والسـيارة والآلـة، لـم تعـد ملـكًا خاصًـا أو احتـكارًا لقـارة معينـة؛ كمـا أن اسـتخدامها الشـائع ليـس هـو السـبب العميـق للنجـاح الغربـي، إنمـا السـبب يكمـن فـي أن كل الاختراعـات الميكانيكيـة الحديثـة وبالإجمـال كل الاختراعـات الصناعيـة الحديثـة، تصـدر عـن بـلاد مـن العـرق الأبيـض.

إن كل الحضـارات الإنسـانية قـد عرفـت الواحـدة تلـو الأخـرى وفـي طـور معيـن مـن أطـوار نموهـا شـيئًا مـن الإبـداع. ولا يوجـد هنـا أي احتـكار لقـارة أو لعـرق، ولكـن مـن المقبـول أن نقـول إنـه فـي المرحلـة الصناعيـة الراهنـة قـام الغـرب بالعـبء جلـه إن لـم يكـن كلـه، فـي حيـن أن الشـرق لـم يقـدم شـيئًا. قـد يكـون عظيمًـا أن تعـرف إدارة الآلـة، لكـن هـذا وحـده لا يكفـي، بـل يجـب أيضًـا أن تكـون قـادرًا علـى إصلاحهـا، وعلـى تحسـينها، وعلـى درايـة بإعـادة تركيبهـا وبإعـادة تصورهـا وصناعتهـا مـن جديـد فـي ضـوء ظـروف وضـرورات جديـدة. فآسـيا تقلـد علـى أحسـن الوجـوه، ولكنهـا لا تجـدد فـي مـا تسـتورده مـن مفاهيـم وتصـورات؛ وانطواؤهـا علـى خبراتهـا التـي تفصلهـا عـن المصـدر الأصلـي الأوروبـي أو الأميركـي للمخترعـات يجعلهـا سـريعًا عاجـزة أو متخلفـة عـن الركب. وفـي الوقـت الـذي يتابـع فيـه الغـرب تقدمـه، فـإن آسـيا تظـل فـي حالـة جمـود، لا مـن نقـص فـي الإدراك والـذكاء أو النشـاط، بـل مـن نقـص فـي الإلهـام والطريقـة الخلاقـة، وربمـا يكـون مـن نقـص فـي الإيمـان بالتقـدم الإنسـاني أيضًـا.

وأعتقد أننا لم نصل حتى الآن إلى السبب المباشر أكثر ما يكون لنجاح الغرب في إنجازاته الكبرى الحديثة: وبرأيي أنه علينا أن نبحث عن ذلك في قدرته على الإدارة؛ ذلك أن الإنتاج الإنساني ينقسم تاريخيًا إلى بعض المراحل الكبرى من التطور المعقدة في ترتيب تعاقبها، إلى حد أنها لا تزال تتطابق من حولنا، في البلدان نفسها، مع الورش نفسها تقريبًا. فما يطابق العصر النيوليتي هو أولًا مرحلة الحرفة المرتبطة باستخدام الآلة اليدوية. ومع الآلة الميكانيكية جاءت المرحلة الميكانيكية التي خرج منها التطور الضخم للصناعة الحديثة. وهذه الأخيرة هدفت - بعد تفوقها في الإنتاج على نطاق واسع وبكميات ضخمة - إلى توجيه الإنتاج صوب مرحلة جديدة هي «المرحلة الإدارية»، لأن إدارة المشاريع الكبرى تتطلب تنظيمًا متنوعًا معقدًا لدرجة أن يتجاوز الميدان الخاص بالتقنية؛ فقد أوضحت جميع الإحصائيات الأخيرة في البلاد الصناعية الكبرى أن النسبة العددية لمجموع العمال تتناقص في حين يتزايد مجموع الإداريين والتجار تزايدًا سريعًا. وفي المؤسسات التي يقوم فيها الإنتاج على ثمن التكلفة، يتضاءل موقع التصنيع، في حين يتضخم موقع الإدارة. وقد أصبح لزامًا على الرؤساء في المصانع شيئًا فشيئًا أن يكونوا إداريين ومنظمين من الدرجة الأولى قبل أن يكونوا تقنيين. والحال أن الذي يملك هذه الموهبة في الإدارة في وقتنا الحاضر هو الغرب وحده.

إن الصفات المطلوب توافرها لإدارة أي مشروع حديث بنجاح جد معروفة. فيجب أولًا أن نحدد الهدف الذي نضعه نصب أعيننا وننسق الوسائل التي نملكها من أجل بلوغ هذا الهدف. كما ينبغي أن نكون قادرين على قياس الوقت الضروري للانتهاء من إنجاز المشروع، لأن الوقت مهم جدًا لاحتساب تكلفة الإنتاج والمردود؛ وإضافة إلى ذلك، يجب أن نقدّر مسألة أعطال بعض الآلات كي نسهر دائمًا على صيانتها وتجديدها عندما تكون على وشك الاستهلاك. وحين يكون المشروع ضخمًا يكون مجموع العمال كثيرًا، وذلك يستلزم توجيهًا حكيمًا متزنًا للمحافظة على النظام وفاعلية المجهود الجماعي المشترك في الوقت ذاته. وقد برهنت التجربة على تمتع الغربي بالصفات اللازمة لإدارة المشاريع الكبرى كافة؛ ولكنها لا تزال غريبة على الرجل الشرقي.

وإذا ناقشنا الموضوع في دقة وحصرناه، فإننا نرى أنه يتوفر لدى كل قائد حقيقي حس معين بالسلوك الواجب، وهذا الأمر على ما يبدو ظل إلى اليوم حكرًا على الغرب. فالغربي يحدد لنفسه هدفًا، ويملك الإرادة اللازمة لبلوغه في وقت محدد، وهو يعرف كيف يضحي براحته الشخصية وعاطفته الشخصية في سبيل إنجاز عمله، ولأنه على علم تام بقيمة الوقت، نرى أنه لا يضيعه سدى، كما أنه يعرف قيمة وفاعلية الآلات التي يشرف عليها، ويعلم أنه إذا أهمل صيانتها فما أسرع ما أن تُستهلك؛ ولذلك فإنه يجب العناية بها ما يتطلب الاهتمام وذهنية التوقع لما قد يحصل. وخصائص العناية والصيانة هي مخصوصة بالغرب ولا أبعد من الحقيقة إن قلت إنه ينبغي التفتيش هنا عن السمة الخاصة المميزة له. ولا يوجد آسيوي يستطيع أن يصون آلة ما. وتضرب جذور الإهمال في أعماق المنزل الشرقي؛ ويحدث ذلك من دون أن يبدو على مالكها أي امتعاض حتى ولو كان موسرًا ويتمتع بذوق سليم. إعطوا الرجل الشرقي إدارة بناء أو شركة أو أشغالًا عامة كبيرة، وعودوا بعد سنة أو بعد عشر سنوات، ستجدون حالًا الفرق مع الزمن الذي كان فيه أوروبي ما هو الذي يديرها. إن كل ما يفتقر إليه الرجل الآسيوي هو الثقة في ذاته بوصفه فردًا، وتحمل المسؤولية الشخصية. ولا يعمل الناس في آسيا أبدًا أي شيء منفردين، بل هم دائمًا أعضاء ضمن مجموعة لها السيادة وهم فيها متكاتفين متعاونين. والمجهود مشترك لدى الآسيويين على غرار ما لدى الأوروبيين. فالمسؤولية موزعة في ما بينهم وكأنها مسؤولية عائلية، والأخلاقية هي أخلاقية الطاعة للوالدين أو للنظم الاجتماعية. وقد يعمل الرجل الآسيوي ساعات أكثر من الأوروبي، على أكبر بساطة وصبر وتحمل جسدي. وقد تقوم المهارة والبراعة عند الآسيويين مقام التنظيم عند الأوروبيين: فالسيارة في يد الميكانيكي الصيني ينتهي أجلها في ستة أشهر...إلا أنها تظل في الاستعمال على علاتها لأكثر من خمس سنوات. ولا تستطيع صناعتنا الأكثر تقدمًا تقنيًا أن تجاري الصناعة العائلية الصينية التي تحقق أسعار تكلفة لا تنافس. ويتكون دائمًا عندنا انطباع أن الرجل الشرقي يهتم بالمشاريع النظرية أكثر من اهتمامه بالمشاريع العملية، تجذبه المهارة الشخصية أكثر من الطريقة والقاعدة، كما أنه لا يرى في الحياة إلا سلسلة من الحوادث العارضة التي يستطيع بواسطة الحظ أو الحيلة أو الدسيسة أن يجعلها تدور لمصلحته.

وإذا ذهبنا إلى الشرق، فإننا نجد فيه صناعات ومشاريع وإدارات تشبه واجهاتها واجهات مؤسساتنا المختلفة، ولكننا سرعان ما نكتشف أن أمهر الشرقيين في ميدان الفاعلية، لا يجاري الأوروبي المتوسط في هذا الميدان. وعلى أي حال، فإن هؤلاء وأولئك ليسوا من طبقة واحدة، فهذا الأوروبي الذي يبدو لنا في بلادنا عاديًا ومن دون ثقافة، هو الذي سنعهد إليه بمسؤولية القيادة هناك، بالأحرى من الوطنيين الذين يكونون لامعين أكثر منه ربما؛ وقد ظلت الأيدي الغربية حتى يومنا هذا هي التي تشرف على المؤسسات العالمية الكبرى وشركات الملاحة البحرية والقنوات الواصلة ما بين المحيطات (مثال قناة السويس قبل تأميمها) وشبكات الدفاع عن الصحة العامة؛ فإذا حصل وتركها الأوروبيون فلا يؤمن أن لا تتأثر الحضارة بوصفها كلًا.

من أين لهؤلاء الغربيين بتلك الإمكانات الفذة؟ لا شك في أن من مصادرها كما سبق القول تلك التقنية المنظمة في إنتاج تطبيقات وممارسات عمل جماعي إنتاجي قائم على وسائل علمية برهنت على مدى نجاحها. بيد أنه يجب أن نعود إلى الوراء إلى مصادر أكثر عمقًا، لأن هذه الطرائق العلمية لم تكن في حد ذاتها إلا وجهًا من وجوه طريقتنا في الحكم على الأمور. ويبدو أننا لم نعرف قدر فاعلية التفكير المنطقي على الطريقة الإغريقية والذي طوّره أمثال بيكون (Bacon) وديكارت (Descartes)، وكلود برنار (Claude Bernard) والذي يقوم على معالجة القضايا بذاتها عبر استبعاد عنيف لكل ما لا يطابق العقل. أما الآسيوي، والأفريقي أكثر منه، فقد أقاموا لكل قضية براهين وحججًا فوق - عقلانية (خارج حدود العقل) تتدخل في بلورة قراراتهم. وقد ترتب على ذلك، أننا قد رأينا في ريف الصين طرقًا معوجة عن قصد، وذلك لمنع الأرواح الشريرة من سلوكها، إذ إن هذه الأخيرة لا تكثر ولا توجد إلا في الطرق المستقيمة. وعلى المنوال ذاته من الاعتقادات أيضًا، نجد الصينيين يستشيرون الجن عندما يفكرون في اختيار مكان لبناء منزل أو مصنع. ولا شك في أن مثل هذه الخرافات موجود عندنا وخصوصًا في الريف، إلا أن الصناعة والمدن قد لاشتها تمامًا.

ثنائيتنا هذه التي تفصل بين ما هو عقلاني وما هو غير عقلاني، إنما تؤمن استقلال الحقل المدني واستقلال الحقل الديني في آن، إلى حد أن رينان كان يستطيع أن يرى في ذلك «دعامة الحرية الحقيقية والحضارة الحقيقية». وقد صنعت هذه الحرية من التفكير الغربي أداة لا مثيل لها للعمل. وفي ظل هذا الطابع، فسّر بيغي (Péguy) فاعلية الطريقة التي وضعها ديكارت بقوله: «إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن طريقة ديكارت هي أيضًا موعظة وآداب سلوك عامة، موعظة في التفكير أو موعظة كي نفكر، وبعبارة أخرى: كل شيء في هذه الطريقة موعظة وآداب سلوك عامة، لأن كل ما فيها هو سلوك وإرادة سلوك؛ وربما يكون أكبر اختراعات ديكارت هنا وأكثر ما فيه من جدة وأفضل ما فيه من إبداع ومن قوة، هو أنه قاد فكره عن سابق تصور وتصميم على أنه فعل وحركة»[12]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الغربي رجل يسلك بفكرته سلوك الفعل؛ وإن فعله تحدده قواعد فكر واع قادر على مراقبة نفسه بنفسه. وبذلك نعود إلى المنبع الأصلي؛ أي إلى «الحرية النقدية». بيد أن هذه الحرية النقدية تعتمد هي نفسها على الحرية السياسية، ما يجعلنا نلاقي في هذا المقام القول المأثور عن الإغريق: «نحن رجال أحرار». وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: أنه إذا ما قُدِّر أن تختفي الحرية السياسية في أوروبا، فإن حيويتها ستصاب بالضعف. والاقتصاد الموجّه الذي يمتد إلى ميدان الفكر يقضي على نبع لا يعوّض؛ فكل نظام توتاليتاري سيكون قاضيًا على مستقبلنا. ولقد كان سير روبرت بيل[13] (Sir Robert Peel) رجل الدولة البريطاني، في خطابه الشهير الذي طالب فيه عام 1846 بإلغاء الرسوم المفروضة على القمح، يقدّر مدى الفائدة التي تجنيها إنكلترا من مواردها في الفحم ومن صناعتها وفعاليتها الاقتصادية التي لا تقبل المنافسة، لكنه كان يضع فوق كل ذلك، من بين الحجج التي اعتبرها حاسمة لفكرته، نظام الحرية الذي تتمتع به البلاد، فضلًا عن تقاليدها

---

(12) Charles Péguy, Note conjointe sur M. Descartes et la philosophie cartésienne (Paris: Gallimard, 1914).

(13) السير روبرت بيل (1788-1850) (Sir Robert Peel, 2nd Baronet) رجل دولة بريطاني محافظ خدم مرتين بوصفه رئيس وزراء (1834-1835) ثم (1841-1846). اشتهر بإصلاحه النظام الجنائي وقوانينه وبتأسيس قوة الشرطة الحديثة.

فـي حريـة المناقشـة؛ وهـو أنهـى يومها خطابـه بهـذه العبـارة: «أهـذه حـال بلـد عليـه أن يخشــى المنافســة؟». وهــذا القــول ينطبــق علــى الغــرب: بقــدر مــا يحافــظ علــى الحريـة، يظـل تفوقـه لا يبـارى ولا يجـارى.

(4)

إن المخاطـر التـي قـد تهـدد مسـتقبل الحضـارة الغربيـة لا تأتيهـا مـن الخـارج، بـل مـن الداخـل. قـد نجـد سـببًا لزوالهـا فـي اختـلال المبـادئ التـي توجههـا، وفـي حقيقـة أن الشـعوب التـي تمسـك بقيادتهـا صـارت أكثـر فأكثـر غريبـة بالنسـبة إلـى محورهـا التقليـدي الأوروبـي.

وقـد أوضحنـا أن دعامـة الغـرب تتركـز فـي ثلاثـة مفاهيـم: المعرفـة والفـرد والتقنية، لكـن يجـب أن يكـون هنـاك نـوع مـن التـوازن بيـن هـذه المفاهيـم لا يتخلخـل؛ بمعنـى أن التقنيـة تكـون فـي خدمـة الفـرد لا أن يكـون الفـرد فـي خدمـة القـوى التـي نشـأت عـن التقنيـة. ونحـن جاءتنـا الحضـارة (لقـد تحضّرنـا وتمدّنـا) قبـل ظهـور الثـورة الصناعيـة، فهـل نحافـظ علـى حضارتنـا (علـى تحضّرنـا وتمدّننـا) بالمعنـى القديـم الـذي نعرفـه، إذا مـا تفوقـت الفاعليـة الميكانيكيـة علـى كل اهتماماتنـا الأخـرى؟ وماديتنـا المزمنـة والتـي لـم تضبطهـا تحذيـرات الإنجيـل، تـزداد أكثـر فـي ظـل النظـام الديمقراطـي الشـعبي وتفقد اتصالهـا بتـراث الزهـد عندنـا، وهـو تـراث كان منبعًـا للنشـاط والقـوة الأخلاقيـة. فـروح المبـادأة توشـك أن تـزول بسـبب الإفـراط فـي نزعـة تضخيـم قـوة الدولـة التـي تتدخـل فـي كل شـيء وتحبـذ الامتثاليـة، لا بـل تفرضهـا، وهـذا أمـر مناقـض للـروح الحقيقيـة للحضـارة الغربيـة. ومثـل هـذه الحـالات العارضـة ليسـت صنيعـة خيـال متشـائم؛ فنحـن نراهـا تحـدث تحـت سـمعنا وبصرنـا. فثمـة إسـراف فـي فاعليـة تدخّـل الحكومـة، وفـي إصـدار التعليمـات، وفـي إغـراق الصناعـات بكثـرة التنظيمـات، وفـي البعـد مـن الطبيعـة السـمحة، وفـي حيـاة المدينـة، وفــي التصنّـع وتشـويه الحيـاة الاجتماعيــة الطبيعيـة: يترتـب علـى كل ذلـك خطـورة تنشـأ مـن المبالغـة فـي التوجيهـات أكثـر ممـا تنشـأ مـن نقـص فـي التفكيـر، فالغـرب لا يفعـل فـي النهايـة غيـر تضخيـم تنظيـم جهـازه، دافعًـا بـه إلـى حـدود اللامعقـول.

وبعد... فهذه هي السيئات التي تكشفت حتى الآن من العصر الإداري، الذي تحتوي إفراطاته المَرَضية في التنظيم بداخلها بذورًا واضحة جدًا للشيخوخة والهرم. وقد كانت أوروبا حتى الآن بيت الثقافة الأوروبية. أما الآن وقد سحقت بين هذين الجبارين (الولايات المتحدة وروسيا)، فنراها تحتفظ بلا شك بحيويتها الفكرية والخلاقة، ولكنها فقدت إلى حد ما قدرتها على الإنجاز. فهل تتعرض حضارتنا إلى تغيير في خصائصها ما دامت الآن قد أصبحت في يد قادة، أحدهم ليس أوروبيًا والثاني ليس غربيًا خالصًا؟

الولايات المتحدة هي الآن الضامنة الكبرى للحضارة الغربية التي ينتمي إليها مثلنا: وهم مثلنا تمامًا في أنهم يمثلون التقاليد الديمقراطية والمسيحية التي تعبّر عن احترام الفردية والحرية والمبادأة، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الشعب الأميركي يعيش في إطار جغرافي لا تشبه بنيته بتاتًا الإطار الذي تشكلت فيه أوروبا. لذا، فهل ستستمر وتصمد فلسفتنا في الوسطية والاعتدال؟ نحن نعرف المكانة التي تتمتع بها هناك أمور مثل الكمية والرقم القياسي. فكل شيء هناك يدفع صوب الإنتاج بكميات كبيرة في بيئة مكانية منسجمة إلى حد كبير، وإلى التلبية الكاملة لمتطلبات المعايرة (توحيد العيار والنمط). ومن جهة أخرى، فإن المناخ يتكفل على مر الزمن في تغيير العرق الأبيض الذي جاء بالهجرة واستقر به المقام في هذه الأرض الجديدة. ولا بد أن نتوقع حدوث تغيّرات أخرى بسبب تصدّع التقاليد التي سبق أن ورثتها أوروبا عن ماضيها البعيد «المتوسطي»: فالأميركيون قوم مهاجرون أوروبيون، لا بل حتى «متوسطيون» عبروا المحيط الأطلسي؛ لكن ذوبانهم في هذه الأرض قد قطع الصلة نهائيًا بينهم وبين أصولهم القديمة. وقد ظل تأثير المسيحية قويًا في نفوسهم على الرغم من هزيمته أمام ديانة النجاح في الحياة. وفي هذا الصدد، فإن الحيوية الناجمة عن التكوين التوراتي استمرت هنا، وربما أكثر مما هي في أوروبا. على أن التراث الكلاسيكي لم ينتقل إلى العالم الجديد: هو موجود في جامعاتهم وكتبهم، لكن من دون أن يكون مبدأ حيًا. ونتيجة لذلك فقد تتعرض روح النقد في هذه البلاد إلى الزوال. والامتثالية قد أضحت موقفًا مشتركًا في أميركا، وهو يتجاوب مع الميول الغريزية لنظام يتأسس أكثر فأكثر على مبدأ التنظيم. وقد تقلص ميدان الاختيار والمفاضلة والمبادأة لمصلحة نظام لم يعد يترك للفرد

المكانـة التـي كانـت لـه فـي قديـم الزمـان، ولـم تعـد هـذه الظـروف هـي الظـروف التـي تشـكلت فيهـا أوروبـا غيـر الامتثاليـة، والمفتتـة، والثائـرة، إنمـا علـى الرغـم مـن ذلـك أوروبـا أمنـا. هنـاك شـيء مـا جديـد فـي سـبيله إلـى الظهـور فـي هـذه القـارة... هـذا الشـيء الجديـد سـيبقى يمثـل الغـرب، ولكنـه لـن يكـون غربنـا نحـن.

فـي الطـرف الآخـر مـن العالـم الغربـي، تحمـل روسـيا هـذه العوامـل الجماهيريـة التـي تقلقنـا نفسـها: إن بنيتهـا الجغرافيـة والسـكانية والاقتصاديـة، ليسـت علـى مسـتوى ومقـام أوروبـا. ومـن المسـتحيل أن تبقـى حقيقـة لهـا مثـل هـذا المـدى مـن دون نتائـج. والحلـول الروسـية تميـل إلـى التشـبه بالحلـول الأميركيـة وليـس بحلولنـا الأوروبيـة، لأنهـم فـي البلديـن يحملـون شـعار الجمهـرة. والصوفيـة عنـد الـروس والتـي تختـرق حتـى الماديـة المعلنـة مذهـب الدولـة الرسـمي، لا تنتمـي إلـى الغـرب فـي شـيء. وهـذا التواطـؤ بيـن التقنيـة والتصـوف الاجتماعـي اللذيـن يتحالفـان ضـد الثقافـة المعتبـرة مفهومًـا رجعيًـا، يناقـض مباشـرة المفهـوم الإغريقـي والمسـيحي للفـرد الـذي يعتبـر وحدة روحيـة مسـتقلة. وانتصـار الشـيوعية فـي العالـم معنـاه نهايـة الغـرب، ولا تخفـي موسـكو بتاتًـا رغبتهـا فـي تدميـره.

ولا يغيـب عـن ناظرنـا أن أوروبـا قـد تخلصـت للتـو مـن خطـر كان فيـه القضـاء علـى التكامـل الروحـي لشـخصيتها. فلـو أنهـا توحـدت فـي ظـل السـيطرة الجرمانيـة لكانـت شـهدت انعقـاد قواهـا فـي شـعاع هجومـي؛ تلـك القـوى التـي هـي سـبب ضعفهـا حيـن تكـون مشـتتة، ولكنهـا فـي الآن نفسـه هـي التـي حافظـت علـى خصوبـة تنوعهـا، علـى خطورتهـا. وكمـا أن مقدونيـا قـادت اليونـان كلهـا إلـى حـرب انتقـام وغـزو لآسـيا، فـإن القيـادة العسـكرية لشـخص مثـل هتلـر كانـت سـتؤدي إلـى مضاعفـة قـوة القـارة عشـرة أمثالهـا عـن ذي قبـل، وجعلـت منهـا سـيدة العالـم بـلا شـك، ولكـن هـذه اللعبـة أفقـدت الهيلينيـة طهارتهـا، ولكانـت أفقـدت أوروبـا روحهـا.

علـى أن هنـاك تأثيـرات أخـرى هـي التـي سـتؤدي اليـوم إلـى تغييـر الحضـارة الغربيـة. وقـد عملنـا علـى توضيـح الـدور الـذي قـد يقـوم بـه كل مـن اللاتينييـن والفرنسـيين والإنكليـز والألمـان والـروس والأميركييـن فـي هـذا التغييـر... وعلـى أي حـال، فـإن فصلًا جديـدًا فـي تاريـخ العالـم قـد بـدأ، وربمـا يجـدر القـول إنـه كتـاب جديـد.

ملحق
لائحة بمؤلفات أندريه سيغفريد

Afrique du Sud; notes de voyage, Paris, A. Colin, 1949.

Albert Schweitzer; études et témoignages, Éd. Robert Amadou, Bruxelles, Éditions de la Main jetée, 1951.

Amérique latine, Paris, A. Colin, 1934.

Aspects de la société française, Paris, Pichon, 1954.

Aspects du XX^{e} siècle, Paris, Hachette 1955.

Cinq propos sur la langue française, avec Mario Roques, Paris, Fondation Singer-Polignac, 1955.

Cotonniers aux Indes, Paris, 1950.

Croisade. Conférences contradictoires, avec Alfred Wautier d'Aygalliers, Charles Riandey, Union de libres-penseurs et de libres croyants pour la culture morale, Paris, Fischbacher, 1931.

De la III^{e} à la IV^{e} République, Paris, B. Grasset 1956.

De la IV^{e} à la V^{e} République au jour le jour, Paris, B. Grasset, 1958.

Deux Mois en Amérique du Nord à la veille de la guerre (juin-juillet 1914), Paris, A. Colin, 1916.

Discours de réception à l'Académie française. 16 janvier 1947, Éd. Maurice Garçon, Paris, A. Fayard, 1947.

Discours prononcés dans la séance publique tenue par L'Académie française pour la réception de M. Daniel-Rops, le jeudi 22 mars 1956, Paris, Typographie de Firmin-Didot, 1956.

Édouard Le Roy et son fauteuil, avec Henri Daniel-Rops, Paris, A. Fayard 1956.

Edward Gibbon Wakefield et sa doctrine de la colonisation systématique, Paris, Armand Colin, 1904.

En Amérique du Sud: Articles parus dans le Petit Havre de juillet à décembre 1931, Le Havre, Le Petit Havre, 1932.

Enquête politique, économique & sociale sur la Nouvelle-Zélande, Paris, Bureaux de la Revue politique et parlementaire, 1900.

États-Unis, Canada, Mexique: lettres de voyage écrites au Petit Havre, Le Havre, Le Journal, 1936.

Fourrure et pelletiers à travers les âges, avec Jean H. Prat, Paris, Éd. du Tigre 1960.

France, Angleterre, États-Unis, Canada, Paris, Emile-Paul 1946.

Géographie économique. Cours de l'Université de Paris, Institut d'études politiques, année 1953-1954, Paris, Centre de documentation universitaire, 1954.

Géographie électorale de l'Ardèche sous la III République, Paris, Colin, 1949.

Géographie humoristique de Paris, Paris, La Passerelle, 1951.

Géographie poétique des cinq continents, Paris, La Passerelle, 1952.

Histoire politique de la III République. Tome premier, L'avant guerre (1906-1914), avec Georges Bonnefous, Paris, Presses universitaires de France, 1956, 1994.

Impressions de voyage en Amérique: 1914, Le Havre, Randolet, 1915.

Impressions du Brésil. Articles parus dans le Petit Havre du 5 au 19 septembre 1937, Le Havre, Impr. du journal le Petit Havre, 1937.

Itinéraires de contagions. Épidémies et idéologies, Paris, Armand Colin, 1960.

La Civilisation occidentale, Oxford, Clarendon Press, 1945.

La Crise britannique au XX[e] siècle, Paris, A. Colin, 1931.

La Crise de l'Europe, Paris, Calmann-Lévy, 1935.

La Démocratie en Nouvelle-Zélande, Paris, A. Colin, 1904.

La Dignité humaine, avec Russel W. Davenport, Paris, Nouvelles éditions latines, 1958.

La Fontaine, Machiavel français, Paris, Ventadour, 1955.

La Langue française et les conditions de la vie moderne, avec Josef Felixberger, Munich, Hueber 1968.

La Mer et l'empire. Série de vingt-deux conférences faites à l'Institut maritime et colonial, Paris, J. Renard 1944.

La Suisse, démocratie-témoin, avec Pierre Béguin, Neuchâtel, La Baconnière, 1969.

La Technique et la culture dans une civilisation moderne, Paris, F.N. Syndicats d'ingénieurs et des cadres supérieurs, 1953.

La Zone sterling, avec Jean de Sailly, Paris, A. Colin, 1957.

L'Alsace. Photographies originales, avec Michel Nicolas, Paris, del Duca 1953.

L'Âme des peuples, Paris, Hachette 1950.

L'Amérique ibérique, avec Jacques de Lauwe, Paris, Gallimard, 1937.

L'Angleterre d'aujourd'hui: son évolution économique et politique, Paris, Grès, 1924.

L'Angleterre moderne. Le problème social, l'expérience travailliste, avec André Philip, Paris, Ed. G. Crès et Cie, 1925.

L'Année politique, 1946: revue chronologique des principaux faits politiques, économiques et sociaux de la France du 1[er] janvier 1946 au 1[er] janvier 1947, Paris: Éditions du Grand Siècle, 1947.

L'Artisanat rural, ses problèmes actuels, avec Lucien Gelly, Paris, Institut d'études corporatives et sociales, 1944.

Le Canada, les deux races; problèmes politiques contemporains, Paris, A. Colin, 1906.

Le Canada, puissance internationale, Paris, A. Colin, 1937.

Le Capital américain et la conscience du roi. Le Néo-capitalisme aux États-Unis, avec A. A. Berle, et Hélène Flamant, Paris, A. Colin, 1957.

Le Centenaire des services des Messageries Maritimes, (1851-1951), Éd. Jérôme et Jean Tharaud, Paris, Ettighoffer et Raynaud, 1952.

Le Développement économique de l'Amérique latine, Paris, SPID, 1947.

Le Grand changement de l'Amérique (1900-1950), avec Frederick Lewis Allen et Roger Blondel, Paris, Amiot-Dumont, 1953.

Le Rôle moral et social d'Israël dans les démocraties contemporaines, Paris, Cahiers d'études juives, 1932.

Le XX^{e} siècle, âge de vitesse, Roma, Centro per lo sviluppo dei trasporti aerei, 1954.

L'Économie dirigée, avec Chassain de Marcilly et al. Paris, F. Alcan, 1934.

Les États-Unis d'aujourd'hui: avec 8 cartes et figures, Paris, Librairie Armand Colin, 1927.

Les États-Unis et la civilisation américaine, Paris, Centre de documentation universitaire, 1947.

Les États-Unis tels que je les ai vus il y a cinquante ans et cette année, Conférence prononcée à l'Assemblée générale du G.I.R.E.P. le 25 avril 1956, Paris, 1957.

Les Forces religieuses et la vie politique. Le catholicisme et le protestantisme, avec André Latreille, Paris, A. Colin, 1951.

Les Grandes Œuvres politiques de Machiavel à nos jours, avec Jean-Jacques Chevallier, Paris, A. Colin, 1960.

Les Principaux Courants de la pensée religieuse en France: conférence prononcée à l'Hôtel Majestic, à Buenos-Aires le 17 septembre 1931, Éd. Buénos-Ayres: Comité Pro-Église Évangélique de Langue Française, 1931.

Les Problèmes ethniques de l'Afrique du Sud: conférence faite à la tribune de l'Université Coloniale de Belgique à Anvers le 21 février 1949, Anvers, Association des Anciens Etudiants de l'Université Coloniale de Belgique, 1949.

Les Questions actuelles de politique étrangère dans l'Amérique du Nord, Paris, F. Alcan, 1911.

Les Voies d'Israël. Essai d'interprétation de la religion juive, Paris, Hachette 1958.

L'Esprit de l'histoire d'Angleterre, avec A. L. Rowse, Paris, R. Julliard 1951.

L'Occident et la direction spirituelle du monde. Allocution prononcée le vendredi 18 novembre 1932, Neuilly, La Cause, 1932.

L'Œuvre scientifique d'André Siegfried, Paris, Presses de la Fondation nationale des sciences politiques, 1977.

Mes Souvenirs de la III^e^ république. Mon père et son temps, Jules Siegfried, 18361922-, Paris, Presses universitaires de France, 1946.

Mes Souvenirs d'enfance, Bourges, Tardy, 1957.

Mon Village sous la IV^e^ République, avec Henri Baudet, et Corrie Siohan-Psichari, Ed. Groningen, 1965.

Normandie, avec Noël Le Boyer, Paris, Hachette 1957.

Nous sommes restés des Hommes, avec Sidney Stewart, Québec, Le Club des livres à succès, 1950, 1961.

Pourquoi la Mission? Éd. Marc André Boegner, Paris, Société des Missions Évangéliques, 1950.

Progrès technique et progrès moral, avec Nicolas Berdiaeff, et al. Neuchâtel, La Baconnière, 1948.

Quelques Maximes, Paris, J. Haumont, 1946.

Quelques Règles à observer dans le travail, [S.l, s.n.], 1900-1950.

Qu'est-ce que l'Amérique?, Paris, Flammarion 1938.

Savoir parler en public, Paris, Michel 1950.

Suez, Panama et les routes maritimes mondiales, Paris, A. Colin, 1940.

Tableau des États-Unis, Paris, A. Colin, 1954.

Tableau des partis en France, Paris, B. Grasset 1930.

Tableau politique de la France de l'Ouest sous la Troisième République. 102 cartes et croquis, 1 carte hors texte, Paris, A. Colin, 1913; réimp. Genève/Paris/Gex, Slatkine Reprints, 1980; réimp. Paris, Impr. nationale éditions, 1995; reimp, Bruxelles, Éditions de l'Université de Bruxelles, 2010.

Vers un Ordre économique et social, Eugène Mathon 1860-1935: sa vie, ses idées, ses œuvres, avec Henry-Louis Dubly, Paris, [s.n.], 1946.

Vocation de Pont-à-Mousson, Nancy, 1957.

Voyage aux Indes, Paris, Colin, 1951.

Vue générale de la Méditerranée, Paris, Gallimard 1943.

Préfaces

Préface de Le Destin des races blanches, d'Henri Decugis, Librairie de France, 1935.

Préface de Questions de langage, de Louis Piéchaud, Éditions du Lys, 1952.

المراجع

Books

Arendt, Hannah. Les origines du totalitarisme. Paris: Seuil, 1950.

Barrès, Maurice. Du Sang, de la volupté et de la mort. Paris: G. Charpentier et E. Fasquelle, 1894.

Bedin, Véronique et Martine Fournier (dir.). Gustave Le Bon, La Bibliothèque idéale des sciences humaines. Paris: Sciences humaines, 2009.

Daudet, Alphonse. Numa Roumestan. Paris: G. Charpentier, 1881.

Durtain, Luc. L'Autre Europe: Moscou et sa foi. Paris: Gallimard, 1928.

Freud, Sigmund. Psychologie collective et analyse du moi. Paris: Payot, 1921.

Hillerin, Laure. La comtesse Greffulhe, L'ombre des Guermantes. Paris: Flammarion, 2014.

Le Bon, Gustave. Civilisation des Arabes, Livre I à VI. Paris: Firmin-Didot, 1884.

__________. Psychologie des foules, collection: Les livres qui ont changé le monde. Paris: Félix Alcan, 1895.

Morand, Paul. Hiver Caraïbe. Paris: Flammarion, 1926.

Péguy, Charles. La France. Paris: Gallimard, 1939. (Collection N.R.F.)

__________. Note conjointe sur M. Descartes et la philosophie cartésienne. Paris: Gallimard, 1914.

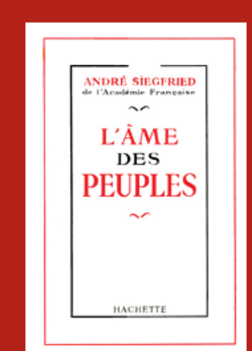
Renan, Ernest. Vie de Jésus. Paris: Calmann-Lévy, 1863.

Rivière, Jacques. L'Allemand. Souvenirs et réflexions d'un prisonnier de guerre. Paris: Gallimard, 1918.

Tharaud, Jérôme et Jean Tharaud. Notre cher Péguy. Paris: Plon, 1926.

فهرس عام

هذا الكتاب



هو محاضرات كان ألقاها أندريه سيغفريد في مناسبات متفرقة ثم جمعها في كتاب، وهو متأثر في اختيار عنوانه بصديقه وزميله غوستاف لوبون. قدّم سيغفريد لهذه المحاضرات بفصل أول تحدث فيه عما كانت عليه حال الشعوب (الغربية) في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية قبل الحربين العالميتين الكبيرتين الأولى والثانية، ثم انتقل إلى الحديث عن خمسة شعوب يرى أنها تمثل أرقى ما في البشرية من حضارة، وهي: اللاتين، والأنكلوسكسون، والألمان، والروس، والأميركيون. وهو باختياره هذا حصر الحضارة في شعوب القارة الأوروبية وامتدادها الأميركي الشمالي.

في هذه المحاضرات يسلط أندريه سيغفريد الضوء على ما يسميه "روح الشعوب"، ويعني بذلك مزاجها النفسي، ليطرح سؤاله الإشكالي: هل تغيّرت هذه الشعوب إثر الحربين العالميتين؟ وجوابه في هذا الكتاب أن روح الشعوب الغربية لم تتغير، وأنها بقيت على ما كانت عليه في الماضي على الرغم من الويلات والكوارث التي عاشتها في النصف الأول من القرن العشرين (صدر الكتاب في عام 1950). وقد هدف المؤلف من كتابه هذا إلى بيان اختلاف أمزجة الشعوب الغربية ونفسياتها، ودراسة خلفيات تكوين تلك الأمزجة والنفسيات وتحليل مكوناتها وأسباب اختلافها، مع حرصه على إبراز مساهمتها التاريخية الحاسمة في تقدم الحضارة البشرية، على اختلاف استعداداتها وإمكاناتها.

المؤلف

أندريه سيغفريد (André Siegfried) 1875-1959 عالم وكاتب وصحافي فرنسي. عُيّن مدرسًا في مدرسة العلوم السياسية في باريس، ثم في معهد فرنسا "كوليج دو فرانس"، ثم عضوًا في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي عام 1933 تسلّم كرسي الجغرافيا الاقتصادية والسياسية في الكوليج دو فرانس، وانتخب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية في عام 1944، وهو أول رئيس للمؤسسة القومية الفرنسية للعلوم السياسية (1945). أسس في عام 1954 معهد العلوم والتقنيات الإنسانية. له مؤلفات كثيرة خصوصًا عن البلدان الأنكلوسكسونية وفرنسا، وعن علم اجتماع الانتخابات، وكان صاحب مدرسة في الدراسات السوسيولوجية الأكاديمية تربط بين العوامل المؤثرة جغرافيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وتنظر إلى مدى تأثير كل منها في الأخرى.

المترجم

عاطف المولى مترجم لبناني كندي، حائز على دبلوم الترجمة من جامعة مونتريال في كندا، من ترجماته: **وثائق السفارة الأميركية بطهران** (1986-1990)؛ **الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة** لروبرت فيسك (3 مجلدات) (2006)؛ **الرأسمالية أم الديمقراطية: خيار القرن الواحد والعشرين** لمارك فلورباييه (2007)؛ ورواية **الضفة الأخرى** لجورج أوليفييه شاتورينو (2007).

فلسفة وفكر
اقتصاد وتنمية
لسانيات
آداب وفنون
تاريخ
علم اجتماع وأنتروبولوجيا
أديان ودراسات إسلامية
علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 8 دولارات

ISBN 978-614-445-074-1
9 786144 450741



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies